يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

أروع ما كتب
مارسيل پريفو

مدموازيل جوفر

مرسيل بريڤو

مدموازيل جوفر

MADEMOISELLE JAUFRE

Par

MARCEL PREVOST

الثمن ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منهاحتىالان سبعة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فىأول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها واحد وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعوديةوالاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنوياخالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثانى والخمسون

مدموازيل جوفر

ترجمة فقيد الصحافة العربية المرحوم

فرج جبران

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

المؤلف .. فى سطور

ولد « مرسيل بريفو » فى باريس عام ١٨٦٢ . ثم تخرج من كلية الهندسة واشتغل مهندسا فى مصانع التبغ حتى استقال منها عام ١٨٩٠ . وكان وقتئذ قد نشر ثلاثا من رواياته: « العقرب » (عام ١٨٨٧) ، و « كونشيت » (عام ١٨٨٨) ، و «مدموازيل جوفر» ـ التى تقرأها فى هذا العدد ـ فى عام ١٨٨٩ .. ثم تلتها هذه الروايات على التوالى : «ابنة العم لورا»، اعترافات عاشق (عام ١٨٩١) ، رسائل النساء (١٨٩٢) ، خريف امرأة (١٨٩٣) ، انصاف العذارى ـ وقد اقتبست منها مسرحية مثلت على مسرح (جيمناز) فى العام التالى ـ رسائل النساء الجديدة (١٨٩٤) ، ريفنا (١٨٩٥) ، الحديقة السرية ، رسائل النساء الاخيرة (١٨٩٧) ، البيت السعيد (١٩٠٠) ، فريدريك ، ليا (١٩٠٠) ، رسائل الى فرانسواز (١٩٠٢) .. والاخير يتناول موضوع تربية البنات ..

ويعتبر « بريفو » من أقدر الادباء على تحليل نفسية النساء ، وهو يتفوق فى التحليل العاطفى الذى يتميز فى آن واحد بالرقة والجلال !

و « مدموازيل جوفر » من أروع روايات « بريفو ». ، وتعتبر من أقوى قصص الأدب الفرنسى التى تنطوى على دراسة عميقة .. كما سترى .

وقد توفى مرسيل بريفو عام ١٩٤١ .

الصديق الذى رحل ..

يا للمصادفة المشئومة !

وهل أعجب ، وأفجع ، من المصادفة التى شاءت أن يصدر العدد الماضى من كتابى فى يوم أول أكتوبر الحالى ، وفى الصفحة الاخيرة منه اعلان عن هذه القصة التى بين يديك .. وفى نفس الساعة التى كان الباعة يحملون فيها ذلك العدد من كتابى ، كانوا يحملون صحف الصباح وفى صفحتها الاولى نبأ اختفاء طائرة الركاب العربية فوق جزيرة البا ، وبين ركابها الكاتب الصحفى والصديق الحميم **فرج جبران** .. مترجم هذه القصة !

وقرأت النبأ ، وبكيت ..

لم أصدق أن تنتهى هكذا فجأة ، وعلى هذه الصورة المفجعة ، حياة الصديق العزيز الذى قابلته لأول مرة عام ١٩٣٨ ، يوم دخلت مكتبه فى مجلة (الشعلة) أحمل أول قصة مصرية كتبتها .. وكان هو يكتب للشعلة مقالا عن أول رحلة له « بالطائرة » من القاهرة الى الاسكندرية !

.. وعدت الى ذلك المقال ، فاذا هو يبدأ بهذه السطور ، (وكأنها نبوءة أو نذير بما وقع لكاتبها بعد اثنين وعشرين عاما من كتابتها !) :

« حين أعلنت على رؤوس الأشهاد اننى سأسافر بالطائرة اختلف هؤلاء الأشهاد فى طريقة استقبال الخبر ، فمنهم من هز رأسه آسفا مترحما على شبابى الفض ، وذكرنى ببيت الشعر المشهور :

الموت نقـــاد على كفـه

جواهر يختار منها الجياد

« ولكننى أقنعت هــذا البعض بأن الموت قد يكون نقادا بالفعل .. واننى قد أكون من الجواهر حقـا .. ولـكننى لست من الجياد ، من جياد الجواهر ، فلا محل للخوف اذن !

« ولم أشـعر بخوف وانا أركب الطائرة للمرة الاولى فى حياتى ، ذلك لاننى كنت اعتمد على وجود مظلة الوقاية أو (الباراشوت) تحت مقعد كل راكب .. والباراشوت كفيلة بأن تصل بأى طائرة ، أقصد مسـافر بالطائرة ، الى الارض سالما ، حتى لو كان فى حجم زيور باشا !

« ولكن ما لم أذكره الا وانا فى الطيارة هو ان الباراشوت قد لا ينفتح أحيانا بمن يلقى بنفسه من الجو .. ولما تذكرت هذه الحقيقة كدت أغادر الطيارة لولا ان الباب كان قد اغلق، والطيارة اخذت تتحرك على الارض استعدادا للطيران ! »

***

وقد ركب فرج جبران الطائرة منذ تلك المرة الاولى مئات المرات ، ففيما عدا سنوات الحرب العالمية ، لم ينقض عام لم يغادر القطر فيه الى الخارج فى رحلات صحفية مرة أو مرتين ، فزار اوربا عشرات المرات ، كما طاف بانحاء امريكا الشمالية وامريكا اللاتينيـة اكثر من مرة .. وفى كل رحلـة من تلك

الرحلات كان يركب الطائرة عشرات المرات، متنقلا بين مختلف الدول والمدن .. فلماذا شاء القدر الساخر أن يختم حياته المثمرة داخل الطـائرة التى أحبها كل هذا الحب ، واختارها وسيلة لتنقلاته قبل أن يعم الانتقـال بالطـائرة ويقبل عليه الناس هذا الاقبال الذى نشهده هذه الايام ؟ !

اللهم سبحانك ، تعالت حكمتك وجلت عن الفهم !

***

وقد شغف الفقيد بأدب « مرسيل بريفو » منذ بدأ يكتب للصحف .. فترجم له فى (الشعلة) ـ أيام كان يشرف على تحريرها ـ عشرات القصـص القصيرة ، كما ترجم له منـذ أعوام طويلة كتابه المشـهور « رسائل النساء » .. أما من روايات « بريفو » الطويلة فهذه أول قصة يترجمها له .. وكم يحز فى النفس أن يختطفه الردى قبل أيام معدودة من نشرها ، وهو الذى سهر عليها الليالى الطوال ، وأعرب لى أكثر من مرة عن مدى لهفته على صدورها ! . .

وكم يحز فى النفس أن أذكر لقاءنا الاخير ، فى نادى مصر الجديدة ، قبل سفره فى رحلته الاخيرة بأسابيع . كنت قد دعوت الصديق « نبيل حمدى » ـ السكرتير بسفـارتنا فى طوكيو ـ الى جلسة فى النادى فى ذلك المساء من أمسـيات الصيف . وفيما نحن نختار منضدة نجلس اليها فى شرفة النادى، لمحت الراحل العزيز جالسا بمفرده الى منضدة قريبة، فدعوته للانضمام الينا .. ودار الحديث حول بلاد اليابان ، فقال انه يتمنى ان تتاح له فرصة زيارتها ، وانه سيحاول تحقيق هذه الامنية فى ذلك الصيف بالذات . ووعد الصديق

نبيل حمدى بأن يخطره بموعد وصوله الى طوكيو اذا استطاع تدبير برنامج تلك الرحلة ..

ثم افترقنا فى تلك الليلة .. ولم تمكنا المشاغل من اللقاء فى الاسابيع التالية .. حتى قرأت له تحقيقا صحفيا فى « الجمهورية » كتبه من (بيروت) ، وعلمت انه سأل عنى قبيل سفره فقيل له اننى فى الاسكندرية . ثم مر شهر سبتمبر وانا أسأل نفسى كلما امسكت بالجمهورية فلم اجد تحقيقا من تحقيقاته الصحفية : ترى اين ذهب بعد بيروت ؟ .. هل اتيح له أن يحقق حلمه بزيارة اليابان ؟ .. أم سافر الى بلد آخر ؟ .. وفى هذه الاثناء كنت قد فرغت من اصدار الجزء الثالث من (مرتفعات ويذرنج) ، فخطر لى ان أفاجئه لدى عودته بنشر قصته هذه ، التى كان قد تأخر نشرها من قبل ، بسبب فقدان بضع صفحات من أصولها ، لدى عامل النسخ الذى نسخها على الآلة الكاتبة .

وبينما القصة يجرى اعدادها للطبع ، حان موعد صدور كتابى السابق ، فضمنت صفحته الاخيرة اعلانا عن قرب صدور هذه القصة ..

.. وهو الاعلان الذى طالعه قراء كتابى فى **نفس اليوم والساعة** التى خرجت فيها صحف صباح السبت أول اكتوبر تحمل الى قرائها النبأ المفجع ، عن اختفاء الطائرة التى كان عائدا عليها الى القاهرة !

فسلام عليك أيها الصديق العزيز .. وحسرة مبللة بالدموع ، أبكيك بها من قلب لا يجد عن فراقك عزاء ..

فكيف بالله اطلب لأسرتك العزاء ؟ !

اللهم رحمتك !

حلمى مراد

القسم الاول

(١)

((اننى اشرب نخب صحتك وصحة أسرتك يا لويس !.. وانت أيضا يا كاميل.. هاتى كأسك واشربى نخب ((زوجك)) العزيز ،وادعى له برحلة مباركة !))

ووقف الصغيران ، ((لويس)) و ((كاميل)) ، اطاعة لامر الطبيب ، فداعبت شعرهما الفروع المتدلية من شجرة التين .. وأخذت الكأس تهتز فى يد ((لويس)) ، فما لبث أن رفعها الى فمه وافرغها .. كذلك شربت الفتاة كأسها ، ثم قفزت لتمسك بيدها ثمرة من ثمار التين ، التى كانت تتدلى من الفروع السفلى !

واذ جلس الثلاثة الى المائدة ـ بعد ذلك ـ سيطر عليهم الصمت . ولا عجب ، فان الوقت كان قد قارب الغروب،وساد الهدوء تلك المنطقة التى اشتهرت بجمال طبيعى قل أن يجد الانسان له مثيلا الا فى ايطاليا .. أجل ، كانت مدينة (تونيان) تدين لمناظرها الطبيعية البديعة بصيتها الذائع .

وراح لويس ـ فى صمته العميق ـ ينقل بصره بين المائدة وبين الحديقة الغناء التى كانت تحيط به . أما ((كاميل)) ، فقد مضت تأكل ثمرة التين ـ التى اقتطفتها من الشجرة ـ وهى تبتسم لوالدها الطبيب الذى جلس أمامها .. وما لبثت ان دوت فى ارجاء ذلك المنزل ، ذى الطابق الواحد ، ضحكة عالية ترددت فى الحديقة .. ضحكة غريبة لا يكاد المرء يميز ما اذا كانت صادرة عن انسان أو عن حيوان . فارتجف

لويس .. وكانت الفتاة تراقبه بعينين حادتين ، فما لبثت أن قالت :

ـ هل لاحظت يا والـدى كيف ارتجف لويس ، وهو فى مقعده ، عندما سمع ضحكة « ارما » ؟

وانفرجت شفتا الطبيب عن ابتسامة عريضة ، وقال وهو يعبث بشعر الصبى : « مسكين ياعزيزى لويس ! .. أتغادر (تونيان) ولما تألف بعد ضحكة خادمتنا ؟ ! »

ثم رمقه بنظرة عطف وحب ، فقال الصبى : « اجل ! .. كان يجدر بى أن ابقى هنا ، برغم أن هذه الضحكة تؤثر على اعصابي ! »

وفى تلك اللحظة ، برزت من المنزل امرأة لم يكن من السهل ادراك سنها ، وقد حملت أقداح القهوة .. وكانت مخيفة الشـكل حقا ، غريبـة الملابس ، غائرة العينين ، حتى أن « لويس » لم يتمالك ان أشاح بوجهه كى لا يراها .. وتبعها « الدكتور جوفر » بنظره حتى خرجت ، ثم قال : « ان لويس محق فى خوفه من هذه المرأة ، وكان من الواجب اقصـاء المخلوقات الشاذة ـ مثل خادمتنا ـ عن المجتمع لانها تؤذى نظره ! .. كان خليقا بأهلها أن يقتلوها يوم ولدت ، بدلا من أن يتركوها تهيم على وجهها فى الغابة ، كما وجدتها مصادفة وهى بعد صغيرة ! »

وصاحت كاميل : « آه ! ما أفظع ما تقول يا والدى ! .. أتريد أن يقتلوا « ارما » المسكينة العجوز ، التى ننتفع بها وتقوم بخدمتنا ؟ .. اننى أكاد اوقن بأن امها تراها جميلة !»

وسبحت « كاميل » فى بحر عميق من التفكير ، بعد أن نطقت بالجملة الاخيرة .. حتى اذا عادت « ارما » الى المائدة تحمل زجاجتين من الشراب ، طوقت الفتاة الصغيرة عنقهـا وقبلتها . فانتهرها والدها قائلا : « ما هذا يا كاميل ؟ .. انك فتاة غريبة الاطوار ! كيف تقبلين هذا الوحش ؟ ! »

وسكتت « كاميل » برهة ، ثم غيرت مجرى الحديث فجأة، فقالت وهى تمعن النظر فى قدح قهوتها : « بالسوء الحظ !.. كان من الواجب أن اذيب السكر ببطء فى قهوتى ، فقد جنحت الفقاقيع كلها الى الجوانب ، بدلا من أن تتجمع فى وسط القدح .. وأنت يا لويس ، أرنى قدحك ! » .. وتركت مقعدها وسارت الى مقعد الصبى فاستندت اليه ، وأخذت تتمعن القدح من وراء كتفيه .. وسر الطبيب لهذا المنظر ، بينما قال لويس مبتسما : « أحسبنى سأصبح أغنى منك ! » .. فتمتمت الصبية :

ـ هذا حق !.. أن لويس سعيد الحظ .. انظر ياوالدى ! ان فقاقيع قهوته تتجمع كلها فى وسط القدح .. يا لغرابة شكلها ! انها تسارع الى الوسط ، كأن هناك ما يجذبها اليه .. سيكون لويس رجلا غنيا .. بل غنيا جدا !!

وضربت يدا بيد ، ثم بدا عليها الحزن ، وقالت :

ـ أما أنا فسأكون فقيرة .. لكم يضايقنى هذا !

فابتسم الطبيب وقال : « وكيف تصبحين فقيرة ، اذا كان لويس سيتزوجك ؟ » .. فاحمر وجه الصبى لسماع هذه العبارة . وكانت كاميل قد جلست بالقرب منه ، فانحنت عليه ـ عندما سمعت قول والدها ـ حتى اقترب راسها من رأسه ، وكأنها عاشقة تقترب من عشيقها . وقالت وهى تنظر فى عينيه :

ـ لسوف تتزوجنى بكل تأكيد .. أليس كذلك ؟

فأطرق الصبى برأسه ، وقال لها بصوت واهن ، شديد الاضطراب :

ـ بلى ! لقد عاهدتك يا كاميل !.. لن أتزوج من غيرك ، اذا انت وافقت ..

وهنا انتبه الطبيب الى وضع ابنته من الصبى ، فقطب جبينه ، وقال : « اعتدلى فى جلستك يا كاميل ! »

***

وغادر المائدة، فتبعه الصبيان.. وبينما راح الطبيب يتمشى في الحديقة ، اقتادت « كاميل » صديقها « لويس » الى ركن قصى بالقرب من سياج الحديقة ، يشرف على غابة صغيرة من أشجار برية ضخمة ، بدت كمتنزه مهجور ، اذ لم تكن قد امتدت اليها يد انسان بالعناية ـ منذ نصف قرن تقريبا ـ فاختفت الدروب التى كانت تتخللها ، وتوارى المنزل ـ الذى كان يتوسطها ـ وراء النباتات الطويلة والاشجار التى اطبقت عليه من كل جانب .

وسمع الدكتور جوفر صوت الصبيين وهما يتحادثان .. كان صوت كاميل يرتفع أحيانا ، كما كانت ضحكتها ترن من حين لآخر ، كأنها نغمات موسيقية . اما لويس فكان يجيب ببطء ، فى صوت رفيع ، ينم عن صغر سنه . وتمتم جوفر مخاطبا نفسه : « ما أجملهما ! »

وكان محقا فى قوله .. فقد كانت كاميل تتكىء بيديها وظهرها الى الحائط الصغير ، بحيث بدا جمالها الباهر فى اكمل صورة . ومع انها لم تكن تصغر لويس بأكثر من بضعة اشهر ، الا انها تجلت فى مظهر امرأة كاملة النمو ، وقد تهدل شعرها الاسود الطويل على ظهرها ، وراح لسانها يمر ـ بين وقت وآخر ـ على شفتيها ! .. وكان لويس يقف بجوارها ، ولكن الطبيب لم يكن يرى منه سوى جانبه الايسر ، وكان يبدو ـ الى جانب كاميل ـ كما لو أن فارق العمر بينهما كان كبيرا ، نظرا لحجمه الضئيل ! .. وكان واسع العينين ازرقهما .. لا ، بل ان لون عينيه كان دائم التغير بتباين ساعات اليوم ! .. ورفع رأسه ، فتجلت على وجهه ابتسامة اضاءته ، وهو يتتبع نظرات « كاميل » الحائرة بعينيه .. وتمتم الدكتور جوفر :

ـ واأسفاه !.. ليت الامور سارت فى مجراها الطبيعى! .. ولكن ، هاهوذا لويس يوشك أن يرحل من هنا ، ولن يلبث أن ينسى ابنتى !

كان الطبيب يرى فى لويس ـ بالرغم من سنى حياته الاربع عشرة ـ صبيا عاقلا ، رزينا ، لا يميل للخيال ، وان كان قوى العاطفة .. وتذكر الطبيب تلك الفترة التى عالج فيها والد لويس ـ مسيو «لوت» ـ وكيف ان لويس كان يرفض ، اذ ذاك ، ان ينام الليل ، ليمكث ساهرا الى جانب فراش والده المريض ، مع أن والدته كثيرا ما كانت تستسلم للتعب فتنام .. والحق ان « لويس » كان خير من توكل اليه العناية بالمريض ، فكان « جوفر » ـ يطلعه على كل ما يجب عمله ، وهو مطمئن تماما الى انه لن يغفل منه شيئا .

وهكذا نشأت بين الاثنين ـ الطبيب والصبى ـ صداقة متينة ، بسبب جهودهما المشتركة فى شفاء المريض ، وبسبب ما أثاره الثانى فى نفس الاول من اعجاب .. حتى اذا شفى الوالد المريض ـ ولم يبق له من المرض سوى شلل فى ذراعه اليمنى ـ زادت الصلة وثوقا بين الاسرتين ، وعرض الطبيب ان يصبح أستاذا للويس ، يلقنه شيئا من الرياضيات فى أوقات فراغه . وهكذا اخذ لويس يتردد على المنزل المنعزل ـ الذى كان الطبيب يسكنه مع ابنته ـ فى أوقات متباعدة . على انه لم يكد يتعرف الى « كاميل » ، حتى أخذ يواظب على الحضور يوميا .. فكان يصل فى حوالى الساعة الثانية من بعد الظهر ، عقب الفراغ من واجباته المدرسية ، ليقضى مع صديقته بقية اليوم . وقلما كان يقبل أن يبقى لكى يشارك الطبيب طعامه ، فما ان كان يتذكر أن الخادم «ارما» هى التى طهت الطعام ، حتى تتلاشى رغبته فى الطعام ، فيعافه !

على انه قبل ـ فى تلك الامسية ـ ان يتناول عشاءه مع الطبيب وابنته . فقد كانت تلك آخر ليلة يقضيها بالقرب من

«كاميل» ، بعد أن نقل ابوه الى منصب أرفع، فى مدينة بعيدة فى الشمال .. وكانت الاسرة تعتزم ان تبرح (تونيان) فى قطار التاسعة والربع من المساء ذاته .

وكان الليل قد شرع يرخى سدوله .. وأخذت عينا الدكتور « جوفر » تتنقلان بين المنظر الطبيعى الرائع ، الذى اعتاد أن يراه كل مساء ، وبين الصبيين .. وراح يحلم بأن يقضى شيخوخته فى تلك البقعة البديعة ، بين ابنته «كاميل» وزوجها « لويس » .. أفلم يصبح زواجهما أمرا مقررا ؟

***

ورنت دقات الساعة فى الحديقة ، معلنة الثامنة ، فعكر رنينها ذلك السكون الشامل . وهب الطبيب جوفر من مكانه ، فسار الى البيت ، وأحضر عصاه وقبعته ، ثم اقترب من الصبى قائلا :

ـ هيا يالويس ! .. تعال قبلنى يا صديقى ، فلن أراك ثانية قبل رحيلك !

ـ اذن فأنت خارج ياسيدى الطبيب ؟ !

ـ نعم يا بنى ، فسأذهب لعيادة بعض المرضى ، وسأحقن بعضهم بالمورفين ، ولن أتمكن من الرجوع قبل منتصف الساعة الحادية عشرة .. وستكون أنت ـ اذ ذاك ـ فى القطار ، فى طريقك الى (بوردو) . ولكن فلتبق وقتا آخر مع كاميل يابنى ، لكى تودعها قبل سفرك !

وأشعل الطبيب سيجارة ، بينما تساءل لويس : « أترى من الصواب يادكتور أن تحقن المرضى بالمورفين ؟ .. لقد قرأت رأيا يناقض هذا . »

ـ اذن فأنت تشتغل بالطب منذ الآن يابنى ! حسنايازميلى العزيز ، اليك رأيى ما دمت تسألنى ..

وأمسك بيده ، وأردف قائلا : « صحيح ان المورفين دواء

ستاك .. وصحيح انه سيقضي على جزء من النشاط الحى لثلاثة الذين سأحقنهم به الليلة ، ولكنه ـ فى ذلك ـ سيخفف ن آلامهم ، ويسلمهم الى أحلام اجمل من الحياة الحقيقية ، دلا من ان يقضوا ليلهم فرائس للاوجاع .. وكذلك الامر النسبة لى ، فسأنام ـ أنا الآخر ـ مطمئنا مرتاحا ، لاننى بعدت الالم عن ثلاثة مخلوقات .. وهذا هو الواجب لحقيقى للطب ، يازميلى العزيز ! »

ثم نزع السيجارة من فمه ، وقبل وجنتى الصبى ، وهو يقول : « وداعا ياعزيزى لويس ! .. يجب أن تظل دائما كما انت ، فان اجمل مافى الحياة هو العلم والحب ! .. ثق من أن الرجل لا يساوى شيئا دون قوة شخصيته وارادته ، وانت كما اعلم قوى الارادة ، ولكن لك من اعصابك وقلبك ما يسبب لك ضعفا يجب أن تتقيه دائما ! »

وكانت « كاميل » تستمع الى نصائح والدها للصبى فى سأم ، لانها كثيرا ما استمعت الى هذه النظريات دون أن تفهم اكثر من نصفها . وتمتم لويس قائلا : « لكم اريد أن اصبح رجلا مثلك ياسيدى الطبيب ! » . فهز الطبيب رأسه قائلا :

ـ بل ستغدو أحسن منى يابنى ! .. ولسوف تمر بك ساعات قاسية ، صعبة الاحتمال ، تتحلل خلالها العاطفة الدينية القوية التى تتملكك ، واذ ذاك يجب أن تذكرنصائحى .. اذكرها وقت التردد ووقت الالم ! .. اذكر الطبيب جوفر يابنى ، واذكر انه عاش حتى صرت رجلا ، وانه سيكون سعيدا بأن يقدم لك كل ما تطلب من نصيحة أو خدمة ! .. لا تنس هذا المنزل المنعزل ، ولا تنس صديقة طفولتك ، وعد لرؤيتنا فى اول فرصة وستستقبل هنا دائما كأخ لكاميل !

وبكى الصبى وهو يستمع الى هذه الكلمات ، فقبله الطبيب للمرة الاخيرة ، وابتسم له ، ثم انصرف . واذ ذاك

دخل الصبيان الى المنزل ، فأجلست « كاميل » صاحبها الى جانبها ، وراحت تتحدث اليه بسرعة ، وتطالبه ـ فى كل لحظة ـ بأن يعدها بالعودة :

ـ ستعود لرؤيتى ، أليس كذلك ؟ .. عدنى أن تعود الى هنا بعد .. بعد شهرين !

ـ لا ، لا ! .. كيف لى أن أعدك بذلك .. ان مدينة (مرفيل) بعيدة جدا ، وسيرفض والدى أن يعطينى النقود الكافية لهذه الرحلة الطويلة !

وسكتت « كاميل » مستغرقة فى التفكير لحظة ، اذ ان مسألة النقود لم تخطر لها ببال من قبل ، ثم سألته : « أوالدك غنى ؟ »

ـ لا ، ولكنى سأكون غنيا بعد مدة .. غنى الى حد ما ، على أى حال ؟ !

فقالت كاميل : « بسبب تلك الفقاقيع التى ظهرت فى قدح القهوة ؟ »

ـ يالك من فتاة صغيرة !

ولكى يقطع لويس حبل السكون، أمسك باحدى يدى الفتاة ووضعها على خده ، ثم قال مستأنفا جوابه : « لا .. وانما بسبب أخ لوالدتى ، ليس له ولد .. رجل غنى ، جمع مالا وفيرا . »

وسكتا .. وكان الظلام قد ساد الغرفة . وأخذت كاميل تمر بيدها الصغيرة على خد لويس ، فى حين ظلت يدها الاخرى حبيسة فى يده . وتمتم الصبى بصوت مضطرب : « كاميل ! .. اننى أحبك حبا عظيما .. ولكن مامن شك فى انك ستنسيننى تماما بعد سفرى ! » .. فصاحت وهى تنزع يدها من يده : « آه ، ما أفظع ماتقول .. لا أحب أن تقول ذلك ! »

وقامت غاضبة من جانبه ، وذهبت لتجلس بعيدا عنه ،

على الحافة الاخرى من الاريكة ، وقالت : « انني غضبى ! » .. ولكنها لم تلبث ان قامت بعد برهة ، فركعت عند قدمى لويس ، وطوقت جسمه بذراعيها .. فأحنى الصبي الصغير رأسه حتى لامست شفتاه شعرها .. وقالت له فى تدلل : « اعتذر لى ! »

فغمغم بصوت خفيض : « بربك لا تتكلمي ، وابقى كما انت ! »

وأطاعت أمره فلم تتكلم ، وان اشتد وجيب قلبها ــ قلب الانثى ــ لهذا الرجاء .. ثم فاض الحب فى هذا القلب الصغير ، بكل ما لعاطفة المرأة من قوة ! .. وكان رأسها يستند الى صدر لويس ، فسمعت دقات قلبه عالية ، ولم تتمالك ان وضعت فمها على مكان القلب ، وقبلته ..

وفجأة ، ندت عن لويس صرخة خافتة ، وأسرع يبتعد عن الفتاة .. فقد دوت ضحكة «ارما» ــ الخادمة ــ بالقرب من الغرفة ، وكانت تنقل الخضر من الحديقة الى المنزل .. وفى تلك اللحظة ، انساب ضوء الطريق الى الحجرة ، اذ كانت المصابيح قد أضيئت فى الخارج ، فتأمل لويس ساعته ــ وهو يقترب من النافذة ــ وقال : « لقد بلغت الساعة التاسعة .. يجب أن أذهب لالحق بوالدى ! » .. فهتفت كاميل : «أبهذه السرعة ؟ .. دعنى أرافقك الى المحطة ! »

ــ لا ، ليس من المناسب أن تخرجى معى .. ان والدك سيغضب لذلك ، وكذلك والدتى .. ثم ، أفلن نفترق هناك على أية حال ؟

وذهب الصبى ليأخذ قبعته وعصاه الصغيرة ، فتبعته كاميل .. وفتح الباب ، وكان الشارع خاليا من المارة ، والضوء ضعيفا . وأخيرا قال لويس وهو يمد يده الى صديقته : « وداعا ! » .. فتطلعت كاميل الى عينيه ، وقالت

له : « الا تقبلنى ؟ » .. وأجابها ، فى شىء من الارتبـــاك : « لا بأس ! »

ولم تتقدم اليه لتساعده على تقبيلها ، فقد سرها ارتباكه. ولما كان أقصر منها ، فقـــد اضطر الى أن يقف على أطراف أصابع قدميه ، ليصل الى خدها . والصق فمه ببشرة الخد وهو مضطرب ، ولكن « كاميل » أمسكت به من ذراعيــه ، وقالت له : « ايها الغبى ! ليس التقبيل هكذا ! » .. ثم ضمته اليها بقوة ، وطبعت على فمه قبلة ، دفعته بعدها الى الخارج فى قسوة ، وأقفلت الباب فى الحال !

.. وأسرعت بعد ذلك الى النـــافذة ، فأزاحت ســـتائرها ، واخذت تنظر خلالها .. ورأت لويس يستند الى الجدار ، وقد نكس رأسه ، وراح يبكى .. وابتسمت كاميل لذلك ، ولكن الحزن مالبث أن ظهر فى عينيها ، وهى تتـــابع الصبى بنظراتها ، اذ انطلق ــ بعد لحظات ــ دون ان يدير نظره الى الخلف مرة واحدة ، ثم ما لبث أن اختفى عن نظرها ..

(٢)

كان الطبيب « جان جاك جوفر » ابنا لبدال يدعى « جوفر »، وامرأة تدعى « مادلين باتو » . وقد ولد فى ذلك المنزل المنعزل، الذى كان سكنا لجديه لامه ، اذ آثرته امه على منزل زوجها، الذى كان يطل على الكنيسة ، فكان قرع الاجراس يزعجها فى اواخر أيام الحمل ..

وكان والد الطبيب خفيف الروح ، لا يهوى شيئا سوى الصيد ... ولكن عمله كان يمنعه من التمتع بهذه الرياضة ، كما ان المنطقة ــ التى كان يقيم فيها ــ لم تكن من منـــاطق الصيد .. حتى اذا اعتزل العمل ، الفى انه قد هرم واصبح عاجزا عما يتطلبه الصيد من حركة ونشاط .. وكانت زوجته

شديدة التمسك بالدين ، فما كادت ترزق بجان جاك حتى اتخذته سلواها الوحيدة ، واحبته لانها حققت فيه ما كانت تريد من دنياها ، ولانهـا وجـدت فيه عقلا اسرع فهما من عقلها . فما كاد الصغير يبلغ رشده ، حتى اصبحت الام تطيع اوامره وهي التي اعتادت فى الماضى الا يعارض لها أحد أمرا !

والحق أن جان جاك كان عاقلا ، محبا للدراسة ، عنيدا ورقيقا فى آن واحد !.. ولما بلغ العاشرة ، أرسل الى المدرسة الداخلية .. وقدر لاحد مدرسيه أن يعثر معه ـ ذات يوم ـ على كتاب طبى، فظن فيه مختلف الظنون ، وبدأ يستجوبه . وإذا الصبى يعترف بأنه كان يقرأ الكتاب الطبى لكى يتعلم ، وانه لا يجد مبررا لادانته لقراءته مثل هذا الكتاب ، ان من الخير للمدرسـين أن ينصرفوا الى زجر من لا يسـتذكر دروسه من التلاميذ ، بدلا من مضـايقته هو لانه يستذكر مايروق فى نظره ! .. وثار ناظر المدرسة ـ اذ سمع هـذه الاجابة ـ ولكن « جان جاك » أضـاف اليها أنه لاداعى لان يجشم الناظر نفسه عناء طرده من المدرسة ، لانه اعتزم تركها من تلقاء نفسـه ! .. وسرعان ماجمع كتبه ـ ومن بينهـا الـكتاب الطبى الذى ضبط متلبسـا بقراءته ـ وعاد الى منزله، وأخبر أهله بما اعتزم صنعه .. وتبين الوالدان أن من العبث اعتراض رغبتـه ، فوافقا على أن يدرس وحـده فى البيت ، معتمدا على نفسه ، منذ ذلك الوقت . ولما كان دوى أجراس الكنيسة يزعجه ـ كما كان يزعج والدته عندما كانت تحمله فى أحشائها ـ فقد رؤى ان ينتقل « جان جاك » الى المنزل المنعزل ، حيث كان يعيش جداه ، وقـد أشرفا على نهاية حياتهما ..

ولا ريب أن ذكرى الاعوام التى قضاها « جوفر » فى ذلك المنزل المنعزل ـ بين الدراسة والتفكير ـ لن تنمحى من ذهنه

.. كان شخصا غريبا ، يجد فى عزلته سرورا ، وفى استذكاره -دون رقابة أو اشراف - ما يثير زهوه .. واستطاع ان يدرس الانجليزية والالمانية وحده بمساعدة الموسوعات والقواميس .. وتصادف ان كان يسكن - فى المنزل المجاور له كاهن مريض كانوا يحملونه الى الحديقة كل صباح ، عسى أن تبعث الشمس بالدم حارا فى عروقه . فما كاد « جان جاك » يراه ، حتى قفز عبر الحاجز الذى كان يفصل بين المنزلين ، وتودد الى الكاهن ، واخذ يجاذبه الحديث ..وقدر لهذا الكاهن أن يؤدى لجوفر خدمة جليلة ، اذ فتح له أبواب مكتبته الخاصة ، فبدأ الفتى يقرأ كل ماكان يروق له ، حتى وقع فى يده - ذات يوم - أحد مؤلفات شوبنهور فأعجب به ، وأصبح أساسا لدراسته المستفيضة فيما بعد .. ومن ذلك اليوم اخذ يتعمق فى البحث والاستذكار ، حتى تبين - فى النهاية - أنه جاهل ، وان ماحصله من العلم لم يكن يستحق الذكر !

وكان جده وجدته قد توفيا - فى تلك الاثناء - وانتقل والداه الى المنزل المنعزل ليكونا على مقربة منه . ولكنه ما لبث أن طلب منهما أن يسمحا له بالانتقال الى باريس ليتمم دراسته هناك . وسألته أمه ، وكانت بخيلة : « وكم تتكلف الحياة هناك ؟ » . فأجابها بعد أن أعد حسابا دقيقا : « مائة وعشرين فرنكا فى الشهر » . ولم تجد بدا من أن تجيبه الى رغبته .

وقضى فى باريس ثمانية أعوام ، كان ينفق فى كل شهر منها هذا المبلغ الضئيل . ولم تبهره باريس - تلك المدينة التى تجذب اليها الشباب - ولم يغره جمالها ، فلم تكن - فى نظره - أكثر من مكتبة هائلة ملأى بالكتب التى يمكن أن ينهل منها كل راغب فى العلم .. والتحق بكلية الطب ، واجتاز امتحاناتها بنجاح ، ثم التحق بأحد المستشفيات لكى يقضى

مدة التمرين ، وهو سعيد بأن شق طريقه، وبأن اصبح يمارس واجبا يتلاءم مع حبه للانسانية .

***

وكان – حتى ذلك الوقت – يعيش كراهب متنسك ، باستثناء هفوات بسيطة كانت تتغلب عليه فيها عاطفته الجنسية. الا أن حادثا بسيطا ، وقع فى حياته الخاصة ، فوضع فى عنقه ذلك القيد الذى لم يكن يفكر فيه ابدا .. اذ لمح ذات مساء ، وهو يطوف بالمرضى فى المستشفى ، وجها لم يكن قد رآه من قبل . وكانت صاحبته امرأة صغيرة السن ، فى حوالى العشرين من عمرها ، تشكو من حمى مصحوبة بآلام فى راسها .

ولحظ جوفر جمالها غير العادى .. ولاول مرة فى حياته ، استغل وظيفته كطبيب ، ففحص المريضة فحصا دقيقا لم يكن ثمة داع له ، لان أعراض الحمى كانت واضحة على وجهها . وازداد اعجابا بالشابة بعد أن فحصها ، فقد كانت مثالا حيا للجمال المجسد . وجاذبها حديثا قصيرا ، كما اعتاد أن يفعل مع كل المرضى ، ايمانا منه بأن لهذه المباسطة من الطبيب للمريض أثرا فى الشفاء .. وأخبرته المريضة – بلغة فرنسية كثيرة الاخطاء – بأنها ايطالية تدعى « ياسمينه فاكيو » ، وانها كانت تعمل كنموذج حى للمصورين (موديل) ، وان سنها واحد وعشرون عاما .. وفى اليوم التالى ، أطال الطبيب جوفر الوقوف أمام فراش الايطالية الحسناء ، وأراد أن يكرر فحصها ، زاعما أن الفحص الأول لم يكن كافيا ! .. ولكن «ياسمينه» عارضت ذلك ووجهها مضرج بحمرة الحياء. فخجل جوفر من نفسه ، ولم يلح فى ضرورة الفحص . وكما اعترف الاثنان لبعضهما – فيما بعد – أخذ كل منهما يفكر فى الآخر منذ تلك الليلة !

ونمت بينهما المودة ، فأصبحت المريضة تبتسم للطبيب ، وأصبح الطبيب يكثر من الحديث الى المريضة فى عطف ورقة. وفى الساعات التى كانت الحمى تشتد فيها على الفتاة ، بات الطبيب يلازمها ولا يبرح فراشها .. وكان – فى تلك الساعات – يقرأ فى عينيها اللتين تزيدهما الحمى اتقادا ، رغبة شديدة فى مبارحة المستشفى والتخلص من الاوجاع .

وكانت على استعداد لحبه .. وقد استغرب « جوفر » ذلك، اذ كان يعلم أنه ليس مليحا، وكان شكل رأسه يثير تقزز كثير من النساء . ولذا أثر فيه الحب الذى أظهرته له « ياسمينه » .. والحق أن الشابة كانت تتعجل الشفاء لتتفرغ الى حبه . وشاء – من ناحيته – أن يختصر الايام التى تفصلهما عن هذه الغاية السعيدة ، فراح يحرض المريضة على الاسراع بمغادرة المستشفى ، ليتمتع بلقائها !.. ولكم ندم – فيما بعد – على ذلك !

وفى صباح ذات يوم ، وقع اذن خروجها من المستشفى .. وزارته فى حجرته قبل خروجها ، فقال لها بصوت خافت : « سأنتظرك فى الساعة السادسة من مساء اليوم ، فى زاوية ميدان مونبارناس ! »

وكان هذا المساء أشبه بليلة الزواج ! .. فما كادا يتقابلان فى الميدان ، حتى التقت شفاههما ، وكأنها كانت مندفعة بقوة قاهرة .. وبلغ من شوق كل منهما الى الآخر ، أن تبعت « ياسمينه » صديقها الى مسكنه ، دون أن يتناولا الطعام.. ولكم اشتد خجلها – وارتباكها – وهو يساعدها على خلع ملابسها – مع أنها كانت تقف كل يوم عارية أمام المصورين كالتمثال الصامت ! .. وتمتمت تقول : « اخشى أن يموت الحب سريعا بهذه الطريقة ! » .. ولكن حدسها لم يصدق . فقد ازداد حب « جوفر » لها بعد استحواذه عليها ، لاسيما

حين اكتشف ــ لفرط دهشته وذهوله ــ انها لم تكن قد فرطت فى شرفها من قبل !

وأخذ يسألها فى فترات الراحة ــ فى تلك الليلة ــ عن ماضيها وحاضرها ــ كأنه زوجها الشرعى ــ مدفوعا بعاطفة من الحب والعرفان لما اتاحته له من متعة .. وعرف انها تنتسب لأسرة ايطالية ، يتعاون افرادها على كسب المال ، وقد ظلت عامين تشتغل لتعول أهلها ، الى أن توفيت والدتها منذ ستة أشهر ، فأخذ والدها وشقيقها فى شرب الخمر وامتنعا عن العمل ، وشرعا فى الاساءة اليها الى حد ضربها ، والقيا عليها وحدها عبء العمل للحصول على المال .. ولقد مرضت فلم يحفلا بمرضها ، ولكنها أحست يوما بأوجاعها تتفاقم ، فلم تر بدا من أن تتسلل ــ دون علم منهما ــ الى المستشفى !

وقال جوفر : « ولكنهم سيبحثون عنك بلا ريب ! »

فأجابت : « ولكنى بلغت العام الواحد والعشرين من عمرى ، فأنا حرة ! .. وفوق ذلك ، ستحمينى أنت ! »

وكانت تقول هذه الكلمات بلهجتها الايطالية الساحرة ، وتقطعها بالقبلات ، حتى استولت على لب جوفر تماما ، واستلت من نفسه ذلك النفور من المرأة ــ الذى شب معه منذ قرأ للفيلسوف الالمانى « شوبنهور » ــ وبدأ يحلم بنعيم الحب وأثره فى الفكر الانسانى .

***

وبعد خمسة اسابيع من هذه العلاقة ، أسرت « ياسمينه » الى صديقها بأنها تشك فى حالتها الصحية ، فداخل القلق « جوفر » ، اذ ادرك انه قد اوشك أن يصبح ابا ، وان عليه أن يعمل بجد ــ منذ الآن ــ ليكتسب من المال ما يكفى لان يعول الطفل القادم .. فقد كان ــ حتى ذلك اليوم ــ لا يعمل

لكسب ، وانما للاستزادة من الدراسة ... كذلك عرف ان تلك العشيقة - التى ستصبح أما - ستحول بينه وبين العودة الى بلدته وقتا ما ، ولذلك اعتزم الاشتغال بالتدريس ، حتى لا يسأل والديه نقودا .. واستمرت حياتهما هادئة ، تسير على وتيرة واحدة ، الى أن وضعت « ياسمينه » طفلة اطلقا عليها اسم « كاميل » !

وبدا الضعف والهزال على الأم بعد الوضع ، وتغيرت طباعها تغيرا طفيفا ، فلم تعد الفتاة الممتلئة سرورا وبهجة . على أن ذلك لم ينل من حبهما ، بل تضاعف حب « جوفر » لها ،وهو يرعاها بعنايته .. وكانت تلك الشهور الموزعة ، بين الحب والدراسة ، هى أسعد أيام حياته .

ولم تكن « ياسمينة » تشاركه عقليته وافكاره ، اذ كانت أقل منه ذكاء بكثير .. بل أن ذكاءها لم يكن يتعدى ذكاء الاولاد الصغار . بيد أن جوفر لم ير فى ذلك ما ينتقص من قيمتها ، لانه كان ممن يؤمنون بسيادة الرجل على المرأة ، التى كان يعدها مجرد آلة لانجاب الاولاد ، الى ان حملته تجربة الحب على أن يعدل عن رأيه قليلا ، فقد أخذ - منذ ذلك الوقت - يعد المرأة سندا هاما للرجل فى حاجياته الضرورية ، وكانت هـذه الفكرة آخر مرحلـة فى تطور تفكيره ، فلم يبق له من احتقاره السابق للمرأة الا ثورة ضد الغرور الذى أوحى اليه بهذا الاحتقار .. ومن ثم أصبح ينظر بكثيرمن الاحترام والحب الىذلك المخلوق المقدس - الذى ماوجد الا لراحة الانسانية- والى ذلك المتكأ الوثير الذى يستريح عنده المفكرون !

وادى الامتحان الاخير - عند انتهاء مدة المران - وأصبح طبيبا . واذ ذاك وصل اليه نعى والده ، الذى مات فجأة وهو يتنزه فى الحديقة مع زوجته ، رغم أنه كان يتمتع بكامل صحته . وطلبت الام الى ولدها الطبيب أن يعود اليها لحاجتها اليه ، وهي فى تلك السن المتقدمة ، فسافر « جوفر » بعد

أن ترك ابنته فى رعاية « ياسمينه » .. وكان قد قضى ثمانية أعوام لم ير فيها بلدته ، فما كاد يطؤها بقدميه مرة أخرى ـ بعد تلك الاعوام ـ حتى تساءل فى نفسه : كيف امكنه ان يفارق ذلك المنزل المنعزل طوال تلك الاعوام ؟ !

واستقر رايه على البقاء فى تلك البقعة الى نهاية حياته . ولم يهتم بقلة عدد عملائه من المرضى ، ولا بكثرة منافسيه من الاطباء ، فقد كان متواضعا فى غاياته ، ولم يكن يبغى أكثر من أن يعيش فى هدوء ، بين امه وزوجته وابنته ، مكتفيا بالدخل الذى يصل اليه من تجارة والده .

ولما دفن الاب « جوفر » ، وعاد ابنه الطبيب من المقبرة ، امسك بيد أمه واعترف لها بأن له ابنة ، فثارت الام ورفعت يديها الى السماء مستنكرة ، ولكنه استطاع أن يهدىء ثائرتها بجملة واحدة ، اذ قال : « سأتزوجها أمام الله ! » .. واتفقا على أن يعود الى باريس ليبرم موضوع الزواج فى أقصر وقت ، ثم يعود مع « ياسمينه » و « كاميل » الى (تونيان) ، ليقيم فى المنزل المنعزل . وسرعان ما حقق ذلك .

ولم يكن للقوم من تسلية فى الارياف ـ اذ ذاك ـ سوى بعض المراقص والاحتفالات الدينيـة . ولهذا فان عودة الطبيب « جوفر » الى (تونيان) صارت مثارا لكثير من الاقاويل . فظن البعض أن « ياسمينه » لم تكن زوجته ، وذهبوا يستقصون أخبارها ، ولكنهم تأكدوا من انها زوجته الشرعية .. واذ ذاك ، راحوا ينسجون الاقاويل عنها ، فزعموا انها كانت عشيقته قبل أن يتزوجها ، وانها كانت ذات سيرة غير حميدة .. بل ادعى بعضهم انه عرفها فى باريس .. ولا ريب فى أن كل تلك الاقاويل كانت كفيلة بأن تترك أثرا لدى الطبيب « جوفر » ، لو انها وصلت الى مسامعه ، ولكنها لم تصل .. كما أن كاهن القرية تولى الدفاع عن الزوجة الشابة ، لانها كانت تذهب يوميا الى الكنيسة وتعترف ،

وتتنــــاول الاسرار المقدســة ، فأعجب بها وبايمانها ونقاء سريرتها واخلاصها لزوجها وحبها له .. بل لقد بهرته منها شجاعتها وهى تروى له قصة غرامها ، ومن ثم أصبح المدافع عنها ،وأخــذ يعلن للجميــــع أنها اخلص الزوجـــات وانقى الامهات ! .. واذ ذاك فقط ، بدأ أهل (تونيان) يميلــون للطبيب جوفر وزوجته ، فوجدت الشابة من يؤازر الكاهن فى الدفاع عنها ، كما وجد الطبيب عملاء من بين أفراد الطبقة الغنية فى المدينة .. ومع ذلك ، فقــد ظل بعض الناس فى ضلالهم ، واستمروا يهاجمون الايطالية المسكينة ، حتى لقد زعموا أن الكاهن لم يكن يدافع عنها الا لانها خليلته !!

***

ولم تكن المرأة غافلة ـ فى الواقع ـ عما كان يقال عنها ، فأخذت صحتها تضعف يوما بعد يوم وكأن قوة خفية كانت تستل منها الحياة ببطء . وكان « جوفر » يراقب ذبولها بجزع شديد ، فما أحبها فى أى وقت كما احبها اذ ذاك . وأخذ يتهم نفسه ، لانه كان السبب الاول فيما اصـــابها من مرض ، اذ أن الحمى التى ألزمتهـــا البقاء فى المســـتشفى شهورا طويلة ، لم تكن قد رحلت بكل آثازها ، بل انها خلفت لها مرضا فى الاعصاب لا يشفى .. وازاء ظواهر المرض القاتل ، وليقين الطبيب من انه لن يلبث أن يحرم من زوجته، عاودهما اتقاد حبهما الاول ، فأسلمت « ياسمينه » جسمها لزوجها ــ فى جلد وشجاعة ــ بالرغم من مرضها ، حتى لقد شعر « جوفر » بالندم فيما بعد ، واعتبر ما أتاه معها ــ فى هذه الفترة ــ نوعا من الاجرام يستحق عليه أشد العقاب .

ولم تكن « ياسمينه » تدرك خطورة ما بها ــ اذ ذاك ـ فظلت ابتسامتها تضىء المنزل المنعزل . وكانت تأسر كل من

يقترب منها بلطفها ورقتها .. وأقرت تصرف زوجها عندما عاد ـ ذات يوم ـ بعد جولة فى الريف ، ومعه الخادم البلهاء.. حتى الام ـ أم زوجها ـ التى كانت تكره زوجة ابنها فى بادىء الامر ، انساقت أخيرا الى الاعتراف بجمالها ، والى الاعجاب برقة عواطفها ولطفهـا . وكم كان غريبا أن يربط التدين بين المرأتين كما ربط بينهما حبهما للطبيب !.. وبهذا التعاطف والتقـارب وحدتا جهودهمـا فى سبيل النفس الصغيرة التى كانت تعيش فى رعايتهما ، أى « كاميل » ، فنشأت هذه فى ظل تربية دينية ، اذ راحت الجدة العجوز تزودها بالثقافة الدينية العلمية فى المنزل ، بينما كانت أمها تصطحبها الى الكنيسة ، وتقدم لها ـ فى كثير من الاحيان ـ صورا مقدسة ..

على أن الجدة كانت ترغم حفيدتهـا على ارتداء الملابس السوداء البسيطة ، التى لا تكشف عن شىء من محاسنها ، اعتقادا منها بأن الجمـال يرتبط بالاثم والفضيحة ، وان الخطيئة دائما تبحث عن مخبأ لها فى وجه المرأة .. بعكس الام التى كانت ترغب فى أن ترتدى ابنتها الملابس الجميلة ، وأن تتزين . وكانت تنبهها دائما الى جمالها ، وتفخر بها ـ امام والدها «جوفر» ـ كما يفخر المثال بأبدع تماثيله ! .. وقد أثر ذلك فى نفس « كاميل » ، حتى جعلهـا لا تحفـل بالدين .. كانت تعاليم الام وتعاليم الجدة تترك فى نفسها آثارا متعادلة ، فأخذت تنظر الى الكنيسة باعتبارها مكانا منعشا ـ اذا اشتدت الحرارة فى الخارج ـ أو مكانا تحظى فيـه بنظرات الاعجـاب من المحيطين بها .. كما كان من نتائج مسلك المرأتين مع الفتاة ، أن فطنت الى جمالها ، وأن رأت من حقها أن تزهو بجسمها البديع !

وكثيرا ما كانت « كاميل » تتنزه مع امها ، عند ما كان ابوها يتغيب فى الريف .. وكان السير على القدمين من أحب الرياضات اليها ، لا سيما حين كانت تقصد مع أمها الى الجسر المعلق فوق نهر الجارون .. اذ كانت لا تكاد تخطو عليه خطوات قليلة ، حتى تتراءى لها (تونيان) بمنازلها وكنائسها .. وكانت الام تسمح لابنتها - فى بعض الاحيان - بالسباحة فى النهر ، بينما تجلس هى على الضفة تراقبها بنظرات الاعجاب ، ثم لا تلبث أن تجد نفسها مسوقة الى أن تخلع حذاءها ، وتخوض فى الماء حتى يصل الى مقربة من ركبتيها .. واذ ذاك كان جسمها يظهر فى أتم صور جماله وابهاها ! .. فاذا انتهت كاميل من الاستحمام ، خرجت لتجفف جسمها فى ضوء الشمس ، مستلقية فوق الحشائش وهى تضحك ، فتمسك بها « ياسمينه » وتغمر جسمها بسيل من القبلات .. فوق ظهرها ، وعنقها ، وكل مكان من جسمها تصل اليه شفتاها !

***

وشغل الطبيب جوفر بزبائنه المرضى ، فترك فتاته فى عناية المراتين : أمه وزوجته .. ولم يكن يهمه على أى دين تنشأ ، فما كان للدين اعتبار قوى لديه .. بل كان يعتقد أن المرأة هى خير مرب للمرأة ، وكثيرا ما كرر كلمة مونتين : « اننى اتركهن وشأنهن ، حتى لا اغير من خططهن ، واعترض تنفيذ شىء مما يحسن تنفيذه .. ان للبوليس النسائى طرقا سرية فى تحقيق أهدافه ، فمن الخير أن نسلمها له » !

على أن القلق لم يلبث أن خيم على ذلك المنزل المنعزل الهادىء ، اذ ظهرت اعراض المرض ضارية ملحة على

« ياسمينه » ، وبدأت مرحلة الالم .. وكان مرضا لا أمل فى البرء منه ، فأخذ الطبيب جوفر يعنى بتخفيف الاوجاع التى كانت تملأ عينى زوجته الجميلتين بالدموع ، وتضعف من ذراعيها الممتلئتين ، وتزحم صدرها بتهدجات الالم !.. وكان يعالجها بالادوية المسكنة المخدرة ، ويضاعف لها المقدار الذى تتعاطاه منها فى كل يوم .. وكان يدرك انه بذلك يعجل بنهايتها ، ولكنه لم يتردد لحظة واحدة ، وابى أن يتركها تتألم لكى يحتفظ بها لنفسه مدة أطول ...

وظل المرض عاما كاملا ، ينتزع من المرأة — فى كل يوم — جزءا من حياتها .. وفى نهاية ذلك العام كانت « ياسمينه » قد اوشكت أن تنهار تماما ، واستعدت للموت كما يستعد المؤمن . وفى ذات يوم ، امسكت بيد زوجها وقبلتها تقديرا له ، ثم .. أسلمت الروح !

ويقول مثل عربى : « الموت يدخل الى المنزل ليحتمى من الامطار ، ولكنه فى الواقع ضيف ثقيل .. اذ لا تلبث أن تطلع الشمس ، ولكنه يأبى أن يرحل عن المنزل » ! .. وهذا ما حدث ، فما أن قضت « ياسمينه » نحبها ، حتى تبعتها « مادلين باتو » ، أم زوجها .. اذ ماتت فجأة كما مات زوجها من قبل .. وهكذا وجد الطبيب نفسه وحيدا فى المنزل المنعزل ، الى جانب ابنة لم تتجاوز العاشرة من العمر ، عليه واجب تعهدها بالرعاية والاشراف على تربيتها .

وابى أن يلقى بها الى مدرسة داخلية ، اذ كان يخشى عواقب تجمع الفتيات فى مكان واحد ، كما كان يخشى تجمع الفتيان .. فصمم على ابقاء كاميل الى جانبه ، وتعهد تربيتها بنفسه .. ولما كانت له فلسفته الخاصة فى النساء ، فقد رأى أن أول واجب عليه هو العناية بنمو الفتاة الجسمى وخاصة فى

دور البلوغ . وكان هدفه يتلخص فى جملة واحدة ، هى : « اعداد الفتاة لكى تكون زوجة وأما » .. أما النمو العقلى ، فقد رأى أن من الكفاية لها أن تتلقى شيئا من مبادىء العلوم البسيطة ، اذ كان مقياس العلم لديه هو الفائدة التى سيجنيها المتعلم منه . أما الفضائل النسوية ، فكان الطبيب « جوفر » يعتقد انها تتلخص فى كراهية الكذب والابتعاد عنه ، والرغبة فى الزواج وتكوين الاسرة .. فهذا ما كان يتمثل له فى زوجته وأمه . ولكنه أغفل العقيدة الدينية التى آمنت بها هذه الام وتلك الزوجة طوال حياتهما ، وأوحت اليه فلسفته بأن فساد المرأة ليس الا نتيجة عدم اهتمام زوجها بها ، وعدم اخلاصه لها ، فاذا وجدت الزوج الذى يوليها الاهتمام والاخلاص ، كان فى هذا غنى عن كل ما قد يرتقب من التعليم والتربية الدينية !

ونظرا لان « كاميل » كانت سلسة القياد ، فقد سهلت له مهمة القيام بوظيفة المربى .. وكان كبير الامل فى انه لن يلبث ـ بعد امد وجيز ـ ان يرتاح من عبء الاهتمام بها مادامت فى صحة جيدة .. وفعلا ، كان كثيرا ما يتركها وحيدة فى المنزل المنعزل ، تحت رعاية الخادمة « ارما » الغبية ، التى كانت تسهر على العناية بها باخلاص الكلب الأمين . وكانت الفتاة تسر بوحدتها هذه وتنشرح لها ، فاذا عاد ابوها الى المنزل بعد انتهاء عمله ، وجدها باسمة كما تركها قبل مغادرته . وكان اذا اصطحبها فى زيارة أو عيادة ، وجدها رقيقة ، مسلية ، موفورة البشر ، لاتضايقه فى شىء .

واخذت « كاميل » تنمو ـ على مر الايام ـ حتى أصبحت شابة .. وكان جوفر يلاحظ كيف يهتم الرجال بالنظر اليها ، وكيف تسترعى اهتمامهم اذا خرجت معه متابطة ذراعه كانها

زوجته .. ومع ذلك ، فقد ظل قلبها ساذجا ، بريئا ، كقلوب الاطفال .. كانت تعلم انها جميلة ، وكانت تشعر بالفخر اذا سمعت كلمات الاعجاب تقال عنها ، ولكنها كانت تجهل فائدة الجمال وفيم يستخدم ! .. بل انها لم تكن شديدة الرغبة فى معرفة فائدة الجمال أو فى وسائل استخدامه !

ولكن الصبى « لويس لوت » كشف لها عن ذلك السر العظيم !

(٣)

كانت « كاميل » قد رأت لويس للمرة الاولى فى حديقة منزله ، عندما تماثل والده للشفاء ، اذ اصطحبها الطبيب « جوفر » يوما الى منزل لوت ، وتركها تنتظره فى الحديقة . وتصادف أن كان لويس عائدا من المدينة ، فالتقى بالفتاة حيث تركها أبوها .. ولم يتبادلا أى حديث ، وان رمقت كاميل الفتى بنظرة الفتاة الخجول التى بدأ الشعور الجنسى يدب فيها . أما هو فقد خانته عواطفه ، وأخذت ارادته تحارب الخجل الذى خامره اذ رآها ، فحياها فى نهاية الامر برفع قبعته ، وأسرع بالدخول الى المنزل .

ولم يتحدثا قط فى الايام التالية .. الى أن كان اليوم الذى تمكن فيه « لوت » المريض من النزول الى الحديقة ، وهو مستند الى ذراعى زوجته وطبيبه جوفر .. وهناك ، أخذ يتأمل ـ من مقعده ـ المنزل والحديقة ومزروعاتها ، وقد أدرك أن الموت سيحرمه من كل ذلك عما قريب .. وكان لويس ينظر الى والده المريض نظرة حب وعطف ، بينما تقدمت كاميل من والدها الطبيب جوفر ، ليقدمها الى « لوت » .. ولسوف يظل العالم ـ الى الابد ـ محكوما بقوة الجمال ،

اذ لم يكد أهل المريض يرون « كاميل » حتى بهرهم جمالها ، وأحسوا بعاطفة نحوها تدب فى قلوبهم .

أما هى ، فكانت قد بدأت تدرك قوة جمالها وتأثيره .. لذلك دارت عليهم بنظرها ، حتى استقرت عيناها أخيرا على لويس ، فاحمر وجهه خجلا ، واخذ يحاول استعادة سكونه بمحادثة الطبيب ، بينما سأله أبوه : « لويس ! .. هل رأت الآنسة كاميل حديقة منزلنا ؟ »» . فهز لويس رأسه ، وقال لكاميل : « هل تسمحين باصطحابى ، أيتها الآنسة ، حتى أريك الحديقة ؟ .. اظنك لم تسيرى فيها كلها ؟ »

وسارا جنبا الى جنب . وما لبث الصبا أن الف بينهما ، فلعبا معا ببساطة ، حتى أن الطبيب اضطر الى مناداة «كاميل» عدة مرات ، عندما أراد الانصراف الى منزله . وعادت اليه الصبية أخيرا ، وقد احمر وجهها ، وتفصد منه العرق .. وما ان غادرت المنزل حتى شعر لويس بحاجته الى الانفراد والوحدة ، مما دفعه الى الخروج ليتريض فى أبعد الطرق الخالية من المارة .. وهناك ، استعرض دخيلة نفسه ، ولاحظ ـ باستغراب ـ ذلك الاثر الذى تركته مقابلة « كاميل » وملامستها ، وراح يسائل نفسه : أهذا هو الحب ؟ .. لقد سمع عن هذه العاطفة فى الكتب ، وفهم أنها مبعث النشاط الذى يتحكم فى الانسانية كلها .. وكان يتطلع الى قدومها وهو متقد الروح ، كأنها الشىء الذى سيجعل منه رجلا ، وينمى قلبه حتى يجعله موازيا لعقله !

وظل بقية اليوم يحلل تلك العاطفة الجديدة التى بدأ يشعر بها . وكان تأثره بالغا ، فقد امتلأ قلبه وعقله بالامل ، وبالحياة البهيجة .. وخيل اليه ان كل شىء قد تغير بسبب التطور الذى حل به .. حتى تلك البقعة من الارض التى

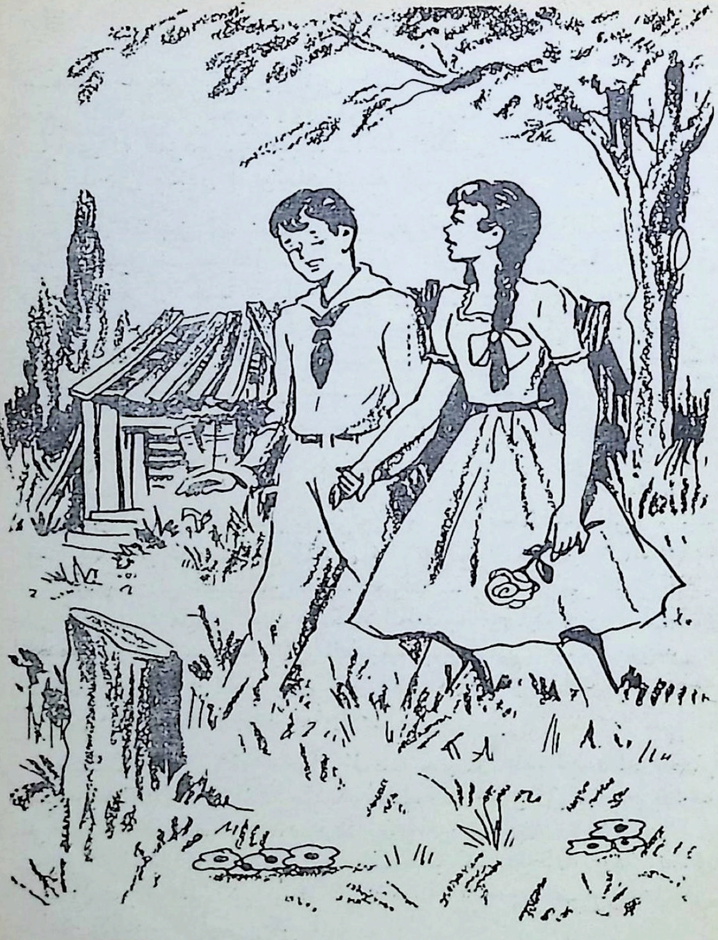

.. وسارا جنبا الى جنب وما لبث صباهما أن ألف بينهما فلعبا معا ببساطة .. (انظر صفحة ٣٤)

تشغلها حديقة الدار ، والتى طالما ألفها .. لقد بدت له - اذ خفق قلبه فيها بالحب لاول مرة - فى شكل جديد ، وأصبحت تتراءى له كفردوس حبيب ، أخذ الحنين اليه يعاوده ، عندما قدر له أن يغادر (تونيان) مع اسرته .

وقدر لكاميل أن تستحوذ بسهولة على ذلك القلب الممتلىء نقاء وطهرا استحواذا تاما . وما كان ذلك راجعا الى جهل لويس بأسرار الحب ، فانه كان قد قرأ عنه كثيرا .. ولكن نشأته وحيدا فى المنزل ، دون زميل أو رفيق ، كانت قد نأت به عن المؤثرات الخلقية السيئة . لذلك لم تكد صورة هذه الفتاة الجميلة تصل الى نفسه ، حتى وجدت روحا نقية بيضاء ، تسكن اليها فى غير عناء ..

***

ورأى لويس « كاميل » مرتين أو ثلاثا بعد هذه المرة . ولما بدأ يستذكر دروسه فى المنزل ، وتطوع « جوفر » بمساعدته فى العلوم الرياضية ، أخذ يتردد - بعد ظهر كل يوم - على المنزل المنعزل الذى يسكنه الطبيب مع ابنته و « ارما » الخادمة .. وكثيرا ما كان الطبيب يستدعى لعيادة مريض ، فيبقى لويس مع كاميل .. ومع تكرر الزيارات ، ارتفعت الكلفة بينهما ، واصبحا صديقين .

وكانت ابنة جوفر تجهل الحب جهلا تاما ، وتكاد تجهل اسمه كذلك ! .. وكانت صبية مطيعة ، تفعل كل ما يأمرها به لويس ، واعتادت أن تناديه بما يعبر عن رغبتها : « يازوجى ! » .. وكثيرا ما كانت تضج بالضحك اذا فاجأته وهو يطيل اليها النظر ، فلم يكن يرتد الى نفسه الا حين تضع يدها على ذراعه قائلة : « فيم تفكر ؟ »

واخيرا ، سئما اللعب فى حديقة المنزل المنعزل - فى كل

يوم ـ فشرعا ينظمان رحلات الى الغابة الصغيرة الممتدة وراء الحديقة ، والتى أطلق عليها لويس اسم « الغابة العذراء » . وقد ظلا أياما يحاولان اختراق الحاجز المتين الذى كونته النباتات والحشائش . وما كادا يصلان الى جوف الغابة ، حتى عجزا عن اكتشاف دروبها ، اذ كانت مهجورة منذ زمن بعيد .. على انهما لم يلبثا ـ بعد قليل من البحث ـ ان عثرا على الطريق الرئيسى ـ وكان عرضه مترين ـ وان مضيا فيه بحذر ، وهما فى أقصى حالات الفضول ، مشوقين الى الاكتشافات التى توقعا أن يعثرا عليها . وكانت أصوات الطيور والحشرات تصل الى مسامعهما ، مختلطة بأصوات أخرى بعيدة .. وشعرا بالخوف ، فاستندت « كاميل » الى ذراع صديقها . ولكن الطريق مالبث أن اتسع أمامهما ، وبدا لهما الافق عن بعد ، كما ظهرت الارض تغطيها الحشائش والازهار البرية ، وتتوسطها بركة صغيرة من الماء الراكد ، نمت على سطحها بعض الاعشاب . وعند حافة البركة وجدا مقعدا حجريا واسعا .

ووقف لويس وكاميل فى هذا المكان وقد اشتبكت أيديهما ! .. أبدا لم يشعرا بانفرادهما وتقاربهما كما شعرا فى تلك الساعة ! .. وكان ما يحيط بهما من مناظر غريبة ، برية ، يدفعهما الى الاعتقاد بأن العالم أصبح بعيدا عنهما كل البعد .. وما لبثت أصوات الطيور أن تجاوبت مرة أخرى ، بعد ان كانت قد سكنت مدة قصيرة ، اثر وصول الغريبين الى ذلك المكان .. كما عادت الحشرات والضفادع تعبث تحت اقدامهما .. وكان ضوء النهار ضاربا الى الخضرة ، بسبب الاشجار التى كانت تظلل المكان وقد تعانقت فروعها فى جوه .. وما كاد كل من الصبيين ينظر الى وجه الآخر ، حتى بدا

الاستغراب عليهما .. وتمتمت كاميل بصوت يغاير صوتها العادى :

ــ ما اغرب هذا المكان ! .. لنجلس على هذا المقعد !

وبعد أن نظفا المكان ، جلسا جنبا الى جنب ، وظلا برهة لا يتحادثان ، وقد أثار السكون المحيط بهما شيئا من الاضطراب فى قلبيهما . وكان لويس يشعر بسرور خفى لهذا الاضطراب .. وحاولت « كاميل » أن تضحك ، وقالت تخاطبه :

ــ لماذا تنظر الى هكذا ؟ .. كأنك لم ترنى قبل هذه المرة !!

وتمتم لويس قائلا : « لقد رأيتك من قبل حقا ، ولكنك اليوم جميلة جدا ! »

وكانت هذه هى المرة الاولى التى يقول لويس فيها لكاميل هذه الكلمة ، فكان لها فى نفس الفتاة وقع اثار زهوها واعتزازها بجمالها، ورفعت عينيها الى عينى «لويس»، وراحت تحدق فيهما ، وقالت مدفوعة بقوة تلك الفريزة التى تملى على بنت حواء من الكلمات مايصل الى قلوب الشبان فيثيرها : « وهل تحبنى ؟! »

وهكذا انتهت مرحلة الاسئلة التمهيدية .. وظل لويس برهة لايتكلم ، ثم قال : « كاميل ! اننى احبك حبا لا يمكنك تصوره !.. احبك الى درجة اننى لا أفكر فى شىء غيرك ! » .. وحمدت له هذا التصريح ، برغم انها لم تكن قد كونت بعد فكرة عن معنى كلمة « الحب » . وما لبثت أن قالت له متمادية : « اذن ، هل لك ان تقبلنى ؟ ! »

ومالت ــ وهى تقول ذلك ــ حتى أسندت راسها الى صدر صاحبها . وشعر بحرارة جسمها ، واشتم رائحة معطرة لطيفة تهب من اعطافها، وكأنما الازهار الجميلة التى تحيط بهما

قد خلعت اريجها على الحسناء .. وذاب جمود الصبى ، فانحنى على الوجه المليح ووضع فمه على الجبهة ، ثم انحدر الى العينين .. وكانت « كاميل » قد أغلقتهما ، فأخذت الجفون تختلج اثر كل قبلة .. وما لبثت الصبية ان رفعت رأسها ، وأرادت أن تقبل صاحبها بدورها ، ولكنه حاول ان يتخلص منها ، فقفزت الى ركبتيه ، وطوقته بذراعيها ، والتصق خداهما .. وفقد « لويس » وعيه تحت ضغط ذلك الجسم النسوى الناعم ، الذى ارتمى عليه .. وفكر فى الموت وهو فى هذا الوضع ! .. وتمتم : « كاميل ! .. كاميل ! » .. وأحس فى تلك اللحظة بشعور غامض ، عرف منه أن مايكون بين المتحابين لايقتصر على الاعجاب والعطف فقط .. بل ان هناك شيئا آخر أقل نقاء من هذين .. وأروع منهما !

ولم يكن يجهل ذلك الشعور ، ولكنه لم يكن قد تذوقه . لذلك ثار عليه حياؤه ، وتملكته الرغبة فى نقاء الحب الذى يكنه لكاميل ، فأراد أن يدفع عنه ذلك السرور الغامض ، وأن يتخلص من الذراعين اللتين طوقتاه ، وأن يستعيد سيطرته على نفسه . بيد انه لم يجد القوة ولا الشجاعة لتنفيذ ذلك، اذ تغلبت عليه قوة اليقظة الاولى للحس ! .. وكانت «كاميل» تراقب اضطراب صديقها باهتمام ، وتثبت عليه عينين باسمتين ، وكأنها تحاول ان تقرأ فى نظرته المضيئة سر ذلك الاضطراب الذى كان يزعجها .. وتملكتها الرغبة فى أن يضمها اليه . وخطر ببالها أن الحجاب الذى كان يمنعها من رؤية الحقيقة خليق بأن يتمزق ، لو ان قبلتهما طالت لحظة أخرى!

***

وقطع عليهما حبل السكون طائر يغرد فى أعلى الاغصان ، فما كاد صوته يصل اليهما حتى عادت اليهما غريزتهما الاولى

.. غريزة الاطفال . وتمثل لهما فى تغريد الطائر نداء الحب والالم ، فجمدا فى مكانهما ينصتان الى ذلك الصوت المنبعث من الغابة العذراء ، وقد خيل اليهما أنه ليس سوى حديث سرى يصل الى قلبيهما فيفهمانه . وسكن الصوت فرفعا انظارهما الى أعلى الاغصان يبحثان عن صاحبه .. واذا به بلبل !

واختفى الطائر كما لو كان قد شعر بأنه عكرعليهما خلوتهما .. ونهضا فتابعا السير دون أن ينبسا ببنت شفة ، مبتعدين عن البركة ، مستأنفين السعى لاكتشاف دروب الغابة . ولم ينقض النهار حتى كانا قد عثرا على ثلاثة منها ، وازاحا عنها الحشائش والنباتات .. ومن ذلك اليوم أصبحت الغابة العذراء مكانا مختارا لنزهاتهما ، واخذ اهتمامهما بارتيادها يزداد فى كل يوم ، فما لبثا أن عثرا على الدروب القديمةالتى أفضت بهما الى المنزل الذى كان متواريا بين الاشجار !

كان المنزل قديما متداعيا ، له باب مغلق ذهبت الشمس والامطار بلونه . وحاول لويس عبثا أن يفتحه ، فلما استعصى عليه، احضر قطعةمن الحديد ــ من منزل الطبيب ــ وعالج بها فتح نافذة من نوافذ الطابق الاول . وكان المنزل قد هجر منذ زمان طويل ، فكأنما لم يكن له من مالك ، ولذا اقدما على فتحه باطمئنان ، دون ان يساورهما احساس بأن فى عملهما اى خطأ .. ووفقا ــ بعد مجهود بسيط ــ الى فتح النافذة ، فدخلا الدار خلالها ، وهما يشعران بفرح المكتشف اذا عثر على شىء جديد !

واخذت كاميل تضحك وتصفق بيديها ، وتسرع الى فتح الصوانات (الدواليب) والخزانات . وعثرا على تلك الاشياء التى لا توجد الا فى المنازل المهجورة ، كزجاجات الشراب

الفارغة ، والآنية المهشمة .. وكانت الغرف ــ عدا غرف الطابق الاعلى ــ خالية من الاثاث ، ورائحة التراب والعطن تنبعث من كل مكان . وانطلق الصبيان يتجولان فى ذلك المنزل المهجور وقد اشتبكت يداهما .. وكانا يفاجآن ــ فى بعض الاحيان ــ بأصوات غريبة تزعجهما ، كصوت الخشب القديم وهو يئن تحت اقدامهما ، أو صوت فار يخرج من أحد الاركان ويجرى فى الغرف الخالية من الاثاث .. واذ ذاك ، كانت « كاميل » تلتصق بصديقها تنشد حماه !

ذلك المنزل العتيق الخاوى ، وتلك الغابة العذراء الصغيرة ، صبحا ملكا خاصا لهما .. وقد حدث فيما بعد ــ عند ما اخذا يذكران الماضى ــ أن اعترفا بأن المنزل وغابته كانا ، بالنسبة لهما ، أول جنة حافلة بالشعر والخيال ، حيث تبادلا الضمات الاولى .. وكثيرا ما كانت « كاميل » تفاجىء « لويس » بالارتماء على صدره ــ اثناء لعبهما ــ وهى مبللة بالعرق لكى تسأله فى بساطة :

ــ هل تحبنى ؟

فكان يجيبها فى أناة وجد : « نعم يا كاميل ! .. كل الحب ! »

وبلغ من سحر كلمة « الحب » وطعمها المعسول ، أن اخذا يكررانها بلا انقطاع ، دون ان يسأما ذكرها أو سماعها !

وبعد ان مر عليهما بعض الوقت وهما يتقابلان كل يوم بلا انقطاع ، فى تلك الجنة المهجورة ، أخذا يتذوقان نوعا آخر من النعيم ، غير اللعب والاختباء ومطاردة كل منهما الآخر .. فقد اهتديا الى متعة النزهة جنبا الى جنب وقد تشابكت اصابعهما ، ثم الجلوس على الحشائش أو على جذع شجرة مقطوعة . واذ ذاك ، كان صوت البلبل ينطلق أحيانا من أعلى

الاشجار .. ولا بد انه كان نفس البلبل الذى سمعا تفريده عند ما تعانقا لاول مرة عندالبركة. وكانا يحاولان دائما رؤية ذلك الصديق ـ صديق وحدتهما ـ دون أن يوفقا .. كانا يتوقان الى رؤية ذلك الصديق الذى كان يقص عليهما أشياء عجيبة فى تفريده .. وبالرغم من انهما لم يكونا يفهمان لغته، الا أن انغامه كانت بالغة التأثير فى نفسيهما .. وفى قلبيهما!

***

وفى يوم من الايام ، اقبل لويس على كاميل فى حزن ، وقال : « لقد وصل الى والدى خطاب من باريس ، يحمل نبأ ترقيته الى منصب أعلى ، وساضطر الى السفر الى الشمال .. الى مدينة (مرفيل) ، حيث موطن والدتى وخالى » . فسألته الصبية فى لهفة : « أولابد من أن تسافر؟»

ـ نعم ، لابد من ذلك .. افتريدين أن يتركونى هنا ؟ .. سوف نفترق وقتا طويلا !

وما ان تبينت « كاميل » أن لويس سيفارقها ، حتى أحست بحزن شديد ، وأخذت تبكى .. واذ جفت دموعها ، أخذت تسأله عن مدينة (مرفيل) ، فذكر لويس أنه مر بها ـ ذات مرة ـ فى صغره ، وكانت عبارة عن منطقة منبسطة ، تكسوها المزروعات الخضراء، وعلى مبانيها مسحة من القدم. وأسرع الاثنان يبحثان فى أطلس جغرافى ـ وجداه بمكتبة الطبيب ـ عن موقع (مرفيل) فلم يعثرا عليها ، ولكنهما عثرا على مدينة (ارمنتيير) الملاصقة لها ، وأخذا يقيسان بأنظارهما المسافة الشاسعة التى تفصل هذه المدينة عن (تونيان) ، وهى تعادل طول فرنسا كلها .. وما لبثت « كاميل » ان تساءلت « ومتى تسافر ؟ ».

ـ عند ما يحـــال الموظف الموجود هناك الى المعـــاش ، واحسب أن هذا لن يتم قبل ثلاثة أشهر .

وفى خلال تلك الاشهر الثلاثة الباقية ، ازداد حبهما واتخذ مظهرا جديا يختلف عن المظاهر السابقة .. فامتنعا عن اللعب تماما ، واخذا يقضيان النهار كله معا ، وكل منهما لا يـكف عن تأمل وجه الآخر .. واخذ لويس يبحث بكل الطرق عن كل مايبقى فى ذاكرته .. فكان يقبل « كاميل » ـ وهو يسير الى جانبها فى الغابة العذراء ـ ويقول لها : « اذكرى ـ بعـد سفرى ـ انى قبلتك هنا ، بالقرب من هذه الشجرة المرتفعة ! »

وكذلك هى ـ الفتاة التى لم تكن تكترث لشىء ـ بدأت تشعر بذلك الحزن العميق الذى يخامر الانسان عند اقتراب ساعة الفراق . وكانت ـ كلما دنا اليوم المحدد ـ تفطن الى تولد شعور جديد فى نفسها ، لم يسبق لها أن أحست بمثله .. بدأت تفطن الى عاطفة جامحـــة ، أقوى من ذلك الحب الذى كانت تكنه لوالدها . فكانت تسرع الى الصبى وتستند الى كتفه . ويظل الاثنان على هذا الوضع ساعات طويلة دون ان ينبسا ببنت شفة .. ورأت « كاميل » يوما صورة رجل يقبل امرأة فى فمها ، فشغل بالها بالتفكير فى وقع هذه القبلة ، وارادت أن تطلب الى « لويس » ان يقبل فمها ، لولا ان شيئا من الخجل صدها ! .. وأخذت فى بعض الاحيان تمثل امامه دور الحسناء التى لا تهتم بالرجل ، ولا تحفل بحديث غرامه ، وتتظاهر أمامه بالبرود .. ذلك لانهـــا كانت كلما تعمقت فى الحب ازدادت علما بفن استغلال جمالها ، وشعورا بقيمة ذلك الجمال .. فكانت تسحب يدها ـ أحيـانا ـ من قبضتى « لويس » ، وتعرض عنه ، وترفض أن يقبلها ، وتمثل معه ـ فى نفس الوقت ـ مواقف الاغراء المتعددة ، التى لا يعرف

أحد أى شيطان رجيم يوحى بها الى أطهر الفتيات واصغرهن سنا !

وكان لويس يبدى شيئا من الجلد ، اذ كان يريد أن يحتفظ بقوة ارادته حتى لا يظهر بمظهر الضعف ، ولكنه كان – عندما تجول فكرة الفراق بفكره – يشعر باضطراب قلبه ، فيذكر حبيبته بالبعـاد المرتقب ، ويقول لها : « هل آلمتك ؟ .. سامحينى ، وارجعى الى ! .. لن أستمتع بصحبتك بعد الآن الا مدة قصيرة ! »

وكانت كاميل أقرب الى المرأة سنها الى الفتاة ، فاذا الحب يمتزج فى فؤادها بالالم والاسى ، ويقودها – أخيرا ، وبكل سرعة – الى الحس المرهف .. كانت كالزهرة اذ تتفتح أكمامها . ففى الايام الاخيرة التى قضياها معا ، بدأت هى الاخرى تشعر بأنها أصبحت ذات مزاج سريع الانفعال ، فكانت ترتمى أحيانا على عنق « لويس » وقد ملأت الدموع عينيها ، أو تأخذ بيديه وتقبلهما بلهفة – وفى اخلاص الحب النقى وطهره – وهو يحاول انتزاعهما .. ولكنها لم تكن تفعل ذلك الا نادرا ، وانزعج لويس اذ رأى تصرفاتها تتعدى أعمال الفتاة البسيطة الصغيرة ، واخذ ينظر الى الامر بعين الجد !

وفى مساء اليوم السابق للسفر ، كان الاثنان يتنزهان جنبا الى جنب ، وقد استولت عليهما نوبة من الوجوم .. ودخلا الى الغابة العذراء ، التى كان الصيف قد بدأ يجفف من أغصان أشجارها .. وكان شهر يونيو قد أوشك على الانتهاء ، والشمس قد بدأت تجنح للمغيب ، فران السكون على الكون .. وما لبثا ان رأيا – فى ضوء الشمس الضعيف المتخلف على فروع الاشجار – طائرا صغيرا داكن اللون ، يتنقل على فروع شجرة ، ويقفز بشكل يدل على الحزن ،

ويفتح جناحيه احيانا ، ثم يلقى بجسمه الى الامام وكأنه لم يؤت مقدرة على الطيران . وأمسك لويس بكاميل وقال لها بصوت ضعيف : « انظرى .. هذا هو البلبل ! »

وكان هو البلبل فعلا .. ذلك الطائر الضعيف الذى أطرب الغابة العذراء حينا من الزمن ، وكان يهم بالطيران ، وكأنه — هو الآخر — يريد أن يهجر تلك البقعة من الارض التى أحب فيها وغنى ! .. وأخذ الصبى والفتاة يتبعانه بنظراتهما ، وقد ضغط كل منهما على يد الآخر برفق وعطف ، فقدذكرهما البلبل باحدى الساعات المضطربة الجميلة فى حياة حبهما .. وامتلأت عيونهما بالدموع ، كما استفاض شعورهما وهما ينظران الى ذلك الطائر الصغير ، الذى ظل متواريا عن انظارهما حتى ذلك الوقت وكأنه روح خفية غامضة ، ثم ظهر لهما فى تلك اللحظة دون أن يهابهما أو يحفل بهما .. وسمح لهما بالنظر اليه ، لانه كان قد كف عن التغريد !

***

واذ سافر لويس ، شعرت كاميل بالاسف على فراقه مدة من الزمن .. كانت تدرك أنه أسدى اليها صنيعا ، لا لأنه أحبها، وانما لانه كان أول من صارحها — بعد أمها ياسمينه — بأنها جميلة جدا ! .. فقد أدخل بذلك على قلبها السرور الذى تشعر به المرأة حين تقف أمام المرآة وقد تملكها الاغتباط لذلك الضياء الذى يشع من عينيها ، وتروح تقترب من المرآة — تارة — وهى تنعم النظر فى الطيف المنعكس على صفحتها، وتبتعد — تارة أخرى — لترى شكلها من بعيد ، ثم تعود وتمسح المرآة بأصابعها ، لتزيح عنها ماقد يغشى صفحتهامن بخار انفاسها ، لتجلو صورتها التى تتغزل فيها !

على ان ذكرى ذلك الصديق الصغير لم تلبث ان اخذت

تتلاشى بسرعة من قلب الفتاة ، كما تتلاشى تلك الاشكال التى ترسم على الرمال فلا تلبث الريح أن تذروها شيئا فشيئا..

ولقد تلقت من لويس رسالة ـ بعد سفره ببضعة أيام ـ فابتسمت لرقة أسلوبه ، ولما امتاز به من تحفظ وهو يروى لها نبأ وصوله الى (مرفيل) ، وما أحس به حين رأى مناظر الشمال المتماثلة التى تبعث السأم الى النفس ، وما تملكه من حزن اذ افترق عن حبيبته الساحرة الجمال . وأخبرها انه استأنف حياة الدرس ، ثم استطرد قائلا : « وقد انست الى زميل هو أول الفصل ترتيبا ، ولكنه أكبر منى سنا وحجما ، واسمه روبير كلاييس . ونحن لا نكاد نفترق طيلة النهار ، وكثيرا ما أحدثه عنك ، حتى أصبح شديد الشوق الى أن يرى صورتك . فمتى تنتهين من صنعها وارسالها الى ؟ »

ولم يكن لكاميل ـ اذ ذاك ـ من العلم مايساعدها على كتابة جملتين صحيحتين ، فضمنت ردها بضع كلمات عديمة المعنى ، وكأنها تؤدى واجبا مدرسيا .. وأرسل اليها لويس خطابا ثانيا ، عتب عليها فيه اقتضاب ردها ، فلم تعن بالرد عليه سريعا . وانتهى الامر بأن نسيت هذا الواجب !.. ومنذ ذلك الوقت ، صدم قلب الصبى وانتابه شىء من الالم الحاد لهذا الاهمال والاعراض ، فلم يعد يكتب لها ..

وهكذا أثر الفراق ومرور الايام فى ذلك الحب الذى غرسه لويس فى قلب الفتاة الصغيرة .. ولا ريب أن ذلك القلب لم يكن قد استكمل نضجه ، والا لاحتفظ بعهد الحب الاول القوى .. ولكن كاميل احتفظت بايمانها بجمالها .. الايمان الذى نما منذ بدأ ذلك الحب الصبيانى . فقد راح اعجابها بحسن وجهها وجمال جسمها يزداد يوما بعد يوم ، حتى أنها صارت تقضى الساعات الطوال وهى تنعم النظر فى يديها وبهاء

بشرتها ، او تمر بأصابعها فى شعرها الذى كانت تجده أشد لمعانا ونعومة من الحرير .. وفى ليالى الصيف ، كانت تنسى نفسها أحيانا ــ حين تخلع ثيابها وتستلقى فى الفراش ــ فتنظر الى ساقيها العاريتين حتى الركبتين ، وتطل من طوق قميصها على بدنها العارى تحته ، وتتأمل ــ بنظرات مدلهة ــ مفاتن ذلك البدن البض . الذى كان يتضوع بعبير عاطر أشبه بشذى الازهار الجميلة فى حديقة صغيرة .. وكانت تستنشق ذلك العبير فى نهم ونشوة غريبين ، وقد أخفى شعرها ــ المنسدل على الوسادة ــ معالم وجهها .

ولقد فاجأها والدها ــ عدة مرات ــ وهى تتأمل صورتها أمام النافذة ، أو تضحك ــ من كل قلبها ــ لطيفها المرتسم على صفحة المرآة ، فكان يؤنبها ، ويهددها بقسوة العقاب اذا عادت الى ذلك العمل .. ولكنه كان ــ اذا فكر فى الامر بعد ذلك ــ يشعر بالندم على قسوته ، ويعتبر نفسه متجنيا على ابنته .. فأى جرم ترتكب « كاميل » اذا هى أعجبت بنفسها وتغزلت فى جمالها ؟ ! .. انه ــ هو نفسه ــ ما كان يحجم عن الاعجاب بذكائه الشخصى ونبوغه ! .. ان كل جنس يعجب بنفسه ، وكما تعجب المرأة بجمالها ، يعجب الرجل بنبوغه .. والطبيعة ذاتها تساعد ــ اذ تبعث الى قلوب العذارى بالرغبة فى الجمال ــ على التعجيل بأسباب الحب . لذلك انتهى « جوفر » الى أن يترك للفتاة حريتها حتى فى التزين ، وحقها فى الاعجاب بجمالها ما شاء لها الاعجاب .. ولكن « كاميل » كانت تخاف والدها كثيرا ، على الرغم من انه لم يسىء اليها فى اى يوم ، فأخذت تحرص على الا يفاجئها فى تلك الاوضاع ، وأحست كأن فى جمالها شيئا محرما !

وكانت قد اعتادت أن ترافق الطبيب فى غدواته وروحاته فى الريف ، فحرصت على أن يراها الناس كثيرا الى جانبه ، وراحت تلاحظ ـ بانتباه ـ الاثر الذى تخلفه فى المارة الذين كانوا يقابلونها وهى الى جانب والدها .. ولم تكن تسر لشىء أكثر من سرورها لتلك الكلمات التى كانت تصل الى مسامعها وهما فى الطريق ، اذ يهمس من يمر بها بعد ان يتمعن فى وجهها : « يا للفتاة الجميلة ! » .. أو بالاحرى ، لم تكن تسر لشىء قدر سرورها بذلك الوميض المتألق الذى كانت تلمحه فى عيون الرجال ، حين ينظرون اليها فى الطريق .. اما جوفر فلم يكن يرى شيئا من ذلك ، اذ كان من عادته ان يسير فى الطريق وقد أحنى رأسه مفكرا ، مسلسا قياده لابنته ، فكانت تتعمد أن تمر معه أمام المشارب .. وهناك ، كان الجالسون ـ من روادها ـ يكفون عن الحديث ، ليتابعوا الفتاة بنظراتهم ، وقد عقد الاعجاب ألسنتهم .

وكذلك كانت تحرص على السير فى الشارع الرئيسى من المدينة ، وهى تتكىء على ذراع والدها لتقلل من سرعة سيره ، دون أن يفطن !.. وكان من عادة سكان ذلك الشارع أن يجلسوا فى الامسيات أمام أبواب المنازل ، كما كان الباعة يتجمهرون ، وتتعالى نداءاتهم فى الجو .. ولكنهم كانوا جميعا يكفون عن الصياح والجلبة عند مرور الطبيب وابنته .. وكانت « كاميل » تؤوب الى المنزل المنعزل ـ مع والدها ـ وهى على يقين بأن جميع سكان الشارع الرئيسى وتجاره يتحدثون عنها معجبين بجمالها !

***

وكان فى المدينة متجر للأقمشة يدعى « لارتيج » ، اكتسب صيتا ذائعا عندما كانت المركبات هى وسيلة النقل بين الريف

والمدن . أما بعد انتشار السكك الحديدية ، فقد خبت شهرة المتجر ، وبدأ يصاب بخسارة مالية ، وان لم يغلق أبوابه ، لاعتزاز صاحبه وزوجته به .. وكانا قد أثريا من تجارتهما فى العهد السابق ، فلم يحفلا بتحمل خسارة بسيطة فى كل شهر . وهكذا ظل المتجر موضعا لاحترام الاهالى وثقتهم . ولم يكن لصاحبه ولد يخلفه . بيد أن العملاء فوجئوا – ذات يوم – بوجه جديد فى « لارتيج » .. وجه صبى لا يتعدى الخامسة عشرة من عمره، تبدوعليه أعراض المرض والضعف . وكان هذا الصبى ابنا لاخ مدام « لارتيج » – زوجة صاحب المتجر – وقد ارسله والداه الى (تونيان) كى يتدرب على التجارة، ومنذ ذلك الوقت، اعتاد الناس أن يروا الصبى واقفا أمام باب المتجر كالتمثال ، وهو يحملق فى الفراغ .. على أن « كاميل » فطنت عدة مرات – وهى تمر فى الشارع – الى ان الصبى كان يكاد يلتهمها بنظراته .. وفى ذات مرة ، خففت من مشيتها ، وثبتت عليه فجأة نظرتها القوية الاثر ، فسرها أن رأت وجهه يتضرج خجلا .. ثم حولت نظرها عنه وتركته حائرا بين حيائه ورغبته !

ولاحظ الجميع أن الصبى قد ازداد ضعفا بعد ذلك،وظهرت هالات زرقاء حول عينيه ، وبدأ يسعل . واستدعى الطبيب « جوفر » لمعالجته ، فأخذ يستجوبه لعله يعرف أسباب مرضه .. وانتهى الامر بأن اعترف الصبى بغرامه ، ولكنه حافظ بكل قوة على اسم « كاميل » فلم يبح به . وأشار الطبيب باعادة الصبى الى والديه ، حتى لا يزداد عذابا بوجوده على مقربة من حبيبة لا أمل له فى الظفر بها .

وسمعت « كاميل » هذه القصة من والدها ، فامتلأ قلبها زهوا وفخرا ، لانها كانت تعرف اسم الفتاة التى احبها

الصبى ! .. وأخذت تقول لنفسها فى غرور المراة الساذجة : « لقد اصيب بالمرض لانه يحبنى ! » . ولما نظرت الى المرآة ، اخذت تلتمس العذر للصبى ، وبدأت تضطرب لذلك اللهب الذى يشع من عينيها ، وازدادت بنفسها افتتانا ، حتى لقد كانت تميل الى أن تقترب من المرآة لتقبل شفتى الصورة المنعكسة على صفحتها .. وأخذت ـ منذ اطمأنت الى قوة فتنتها ـ تحاول تجربة أثرها فى كل مناسبة ، وكان من عادة الطبيب ـ اذا جاءه احد عملائه وقت تناول الطعام ـ ان يأمر بادخاله الى غرفة المائدة ، ويجلسه بالقرب منه . فاصبحت « كاميل » تتعمد ان تضع ساقا على الاخرى امام الضيف حتى يقع بصره على جزء من جسمها البض .. ولم تكن تسعد بشىء قدر سعادتها بأن ترى نظرة الضيف ـ شابا كان او كهلا ـ وقد تركزت على ذلك الجزء العارى من جسمها . وكثيرا ما كانت تأتى بحركة أخرى لتكشف له عن جزء آخر من جسمها . . وما كان ذلك كله الا تسلية ساذجة ، اذ ظلت ـ على الرغم من ذلك ـ بعيدة عن أى شعور جنسى أو رغبة جامحة ، وكانت تقنع فى حياتها بتذوق مقدار جمالها . وقد قال بلزاك يوما : « تمر فى الحياة فترة يشعر فيها الانسان بالاكتفاء ، فلا يعود راغبا فى اكثر مما يملك ! »

وكانت تميل الى ليالى الصيف ، والى الاشتراك فى المهرجانات الريفية التى كانت تقام على مقربة من (تونيان) ، فيقصدها جميع اهالى المدينة .. وكانت تلح على ابيها فى طلب الذهاب ، وتتفانى فى استذكار دروسها واداء واجباتها المدرسية حتى يقبل اصطحابها الى تلك المهرجانات ، التى كانت بالنسبة لها بمثابة المسرح الذى تعرض عليه جمالها .. وكان كل شىء فى تلك الاحتفالات والمهرجانات يبعث بالسرور

الى النفس ، فمن الشـــمس المشرقة ـ نهارا ـ الى المناظر الطبيعية الجميلة .. وكانت الفتيات يسرن فى جماعات وهن يختلن فى ملابسهن الحريرية ، فكانت « كاميل » تنظر اليهن فى تعال ، وهى مســتندة الى ذراع والــدها ، وتزدهى اذ تلاحظ انها استأثرت بأنظار الجميلات منهن .. كانت تحس ـ اذ ذاك ـ بأنها أميرة رفيعة القدر ، تنظر الى من هن دونها منزلة. وكلما شعرت بالاعجاب نحو فتاة منهن، كانت تخاطب نفســها قائلة : « هذه الفتاة جميلــة .. ولكنى أجمل منها بكثير ! »

وكانت تقود والدها أمام المشــارب التى تملؤها انغــام الموسيقى وتزدحم أمامها جماهير الناس ، وقد تراكمت على وجوههم آثار العرق والتراب ، وهم يتنقلون من مكان الى آخر حتى يصيبهم التعب ، فيجلســوا على المقاعد العامة المثبتة فى الجدران .. وكانت وجوه الفتيان تبدو شــاحبة سمراء ، على العكس من وجوه الفتيات المتوردة ، وعيونهن اللامعة . فكانت كاميل تتمعن فيهم جميعــا ، وهى اشــد اهتماما بوجوه الفتيات منها بوجوه الفتيان ! .. وعندما كان المســاء يرخى سدوله ، كانت تعود مع ابيها الى (تونيان) اما فى العربة ، واما ســيرا على الاقدام ـ فى أكثر الاحيان ـ فى الطرق الزراعية العــديدة . فكانا يســبقان غيرهما من العــائدين الذين كانوا يسيرون على مهل ، وقــد أعياهم أن قضوا النهارفى الرقص..وكان القوم يسيرون وقد اتكأت كل واحدة الى ذراع صديقها ، وبدت فى أصوات النســاء نبرات خاصة ، وكأنهن تحت تأثير نشوة خفية . ولم يكن « جوفر » يلقى بالا الى تلك الظاهرة ، أما « كاميل » فكانت تراقبها باهتمام ، وتحتفظ بها فى ذاكرتها . ولم تكن تشعر بالحسد

نحو أولئك الفلاحات والرجال يطوقون خصورهن ويطبعون القبلات على شفاههن ، اذ كانت توقن فى قرارة نفسها ، بأن اليوم ـ الذى تشترك فيه هى الاخرى فى مظاهر ذلك الحب العاطفى القوى ـ لن يلبث أن يحين ، ولم تكن تشك فى ان المستقبل يحفظ لاجمل النساء اجمل المباهج والمسرات !

ولم تكن لها تسلية غير هذه الحفلات وغير اصطحاب والدها .. وكانت تعيش فى المنزل المنعزل راضية بصحبة « ارما » ـ الخادمة البلهاء ـ وان كانت الضحكة الجوفاء التى اعتادت الخادم أن تطلقها ، ذات اثر سيىء كان يثير انفعال الفتاة .. أما الوحـدة والعزلة ، فلم تكونا تثيرانهـا كثيرا ، اذ كانت بطبيعتها محدودة الفكر والمطامع !

***

وعلى الرغم من ذلك ، بدأت تشعر ـ وهى تكبر يوما بعد يوم ـ بحاجتها الى رفيق يسليها ، حتى صادفت فتاة تدعى « جان بوريس » ، تصغرها سنا ، وكانت ابنة ثرى من عملاء الطبيب « جوفر » ، وقـد اتصفت بالافراط فى الخجل ، وتجلى على وجهها وجسمها آثار ما كانت تلقاه من عناء فى حياتها المنزلية . وأخذت « كاميل » تغمر هذه الفتاة بعطف أشبه بذلك الذى تغمر به الفتيـات دماهن الصغيرة . ولم تهتم كاميل كثيرا بشكل صديقتها .. وأخذتا تتقابلان كل يوم ، لعدة أشهر متتالية ، الى ان كان ذات مساء ، اذ جاءت « جان » الى المتنزه العام، فسمعت احدى صديقات والدتها تحدث شخصا آخر ، دون أن تفطن الى وجودها على مرمى السمع منها .. وكانت المراة تقول فى عجب : « لماذا اتصلت جان هذا الاتصال المتين بالآنسة جوفر ؟ .. كأنى بالاخرى قد اتخذتها نديمة لها ! »

وتألمت جان مما سمعت ، وأحست بجرح فى كبريائها ، فأخذت ـ منذ ذلك الوقت ـ تتجنب مقابلة كاميل .. وعجبت هذه لما أصبحت تلقاه من اعراض صديقتها ، وحاولت أن تجدد الصلات ، ولكنها فشلت. حتى اذا أدركها اليأس اخيرا ، كفت عن المحاولة ، وعادت الى استقلالها ..

وكانت « كاميل » قد بلغت السادسة عشرة من عمرها ، فامتنعت عن المرور فى الشارع الرئيسى ـ وهى تستند الى ذراع والدها الطبيب ـ وأصبح اهل المدينة لايرونها الا نادرا . وأحست كما لو انها كانت مريضة .. وظلت على تلك الحال أسابيع عديدة ، تبكى لغير ما سبب ، وتتعرض لنوبات عصبية فجائية ، وتميل الى الكسل ، الى درجة انها أصبحت تكره الحركة . وكان « جوفر » يراقبها بعناية ويتتبع أطوار المرض باهتمام .. ولكن دون قلق ، فما كانت هذه أول مرة يصادف فيها مثل هذه الحال . وقد عللها بأنها بداية الشعور الجنسى الذى ينتاب كل الفتيات اذا ماوصلن الى سن معينة ، فيثير فى نفوسهن الرغبة فى الحب .

وعندما شفيت « كاميل » ، بدا عليها كأنها أكبر سنا مما كانت قبل المرض ، وشحب وجهها .. وكانت الاسابيع الخمسة كافية لان تمحو عن وجهها آثار الجمال الصبيانى السالف ، لكى ترسم عليه معالم جديدة لجمال هادىء ، وكأنها زهرة كبيرة قد اكتمل تفتح أكمامها .. كذلك تغير صوتها ، فأصبحت له رنة تدل على الثقة والجد ، وأصبحت أقل الامور ـ مثل نظرة أو كلمة ـ تسترعى انتباهها .. وبات كل ما اعتادت ـ فى الماضى ـ أن تتجاوز عنه فى غير احتفال ، يثير فى نفسها الشعور بالخجل ، ويبعث فى وجهها

حمرة تكشف عما كانت تشـــعر به من اضطراب فى داخل قلبها النقى .

ولكنها كانت تجد نفسها دائما جميلة ، فاستمرت تعبـد جسمها البديع ! .. على انها لم تعد تجرؤ على ان تجـرب تأثير جمالها فى الرجال، كما كانت تفعل من قبل . وأصبحت هى التى تضـطرب ، وهى التى تخجـل ، اذا ما فطنت الى اهتمام الرجال بها .. وبدأت تمتنع عن مرافقة الطبيب فى جولاته ، الا فيما ندر ، فصارت تفضل قضاء أيامها بالمنزل المنعزل ، فى صحبة أفكارها الحائرة المضطربة .. وجال فى خاطرها ــ وهى تشفق على نفسها ــ انها لن تخرج قط من وحدتها المثقلة بالهموم ، وان شعلة جمالها ستخمد دون أن يراها أحد .. فليس هناك من يعرفها ، وليس هنـــاك من يحبها .. وأوحى اليها هذا بأنها لن تحظى بالزواج ، فبات هذا الخاطر يبعث بالحزن الى قلبها !

ولكنه ــ الى جانب الحزن ــ كان يبعث بشىء من العذوبة والرقة . فقد أخذت تستعرض حياتها الماضية ، وأصبحت تميل الى التفكير فى صديق الماضى .. فى لويس ، الذى سافر دون أن يكون هناك أى أمل فى عودته !.. ترى اين هو الآن ؟ ..بل هل تراه لايزال حيا ؟.. انه ولا بد قد نسيها !..ومع ذلك فانه أحبها فى الماضى ، على الرغم من صغر سنه .. لكم هى الآن فى حاجة الى من يحبها ! .. ولقد أصبحت تشعر ــ نحو لويس ــ بعـاطفة قوية ، كانت تثير فى نفســها اضـــطرابا كلما فطنت اليها .. ان اهمـــالها التفكير فى تلك الصداقة الصبيانية قد أسدل عليها ســتارا من النسيان . وكم أسفت كاميل لما بدا منها فى الماضى من عدم اهتمـام أو تقدير لهذا الغرام !.. وما أعظم السرور الذى كانت تتوقع

أن يداخلها لو انها عرفت ان لويس لايزال حيا ، فقد كان فى وسعها ــ اذ ذاك ــ ان تقول لنفسها ان هناك فى الحياة من يحبها !

واخذت تنقب فى اوراقها القديمة ، حتى عثرت على الخطاب الاول الذى أرسلته اليها . واستقرت نظراتها ــ وهى فريسة الانفعال ــ على تلك السطور التى كاد مرور الزمن يمحوها ، وفيها يقول لويس : « لقد وجدت صديقا ، يدعى روبير كلاييس ... ونحن لانكاد نفترق طيلة النهار ، وما اكثر ما أحدثه عنك ... »

وتساقطت عبراتها على الخطاب البالى لحظة قصيرة ، اذ تفجرت عاطفة الحب دافقة نحو الحبيب الغائب ، وما درت ان كل ماكانت تشعر به ليس سوى ذلك التأثر الذى يحس به كل شخص عندما يستعيد ذكرى ماضيه ويذكر من اتصل بهم فى الماضى ! .. وأخذت ــ فى النهاية ــ تحس بالألم من جراء ذلك الشعور الذى كانت تستسيغه فى بادىء الامر .. وحاولت أن تغير مجرى أفكارها ، فاتجهت نحو القراءة ، ذلك الغذاء الصناعى الذى أعد لخداع قلوب الاناث وعواطفهن .. واخذت تنقب فى مكتبة والدها ، دون أن تبحث عن كتاب معين .. وكانت تتضايق من الكتب الجدية ، أما الخيالية فكانت ــ الى جانب انها كتبت بلغة لم تألف سماعها ــ تكشف عن نوع من الحب لم تكن كاميل تستسيغه البتة ، اذ انها لم تكن قط من أولئك الفتيات المغرمات بالمغامرة .. كانت قد خلقت للزواج ، فلا يرضيها شىء غيره .. وكان تأخره كفيلا بأن يذبلها ويقضى عليها .. مثل الارض التى لا تأخذ نصيبها من ماء الرى . وكانت تحس فى غمار احزانها بذلك الحقد الذى ينتاب قلوب العذارى وهن يبكين أسى اذا ما تأخرت الفرصة التى تتيح لهن اداء وظيفتهن الطبيعية فى الحياة !

وكان والدها « جوفر » يدرك كل ذلك ، وقد راقب كل ما انتابها من تطورات مختلفة بعين الفيلسوف وعين الأب .. كان يراقب عينيها الناعستين فيقرأ فيهما كل ما يتعلق بالشعور الجنسى .. وكان شعوره وهو يدرك ماينتاب ابنته شعورا غريبا ، فقد كانت « كاميل » المتألمة المضطربة أحب لديه وأعز الف مرة من تلك الفتاة الجميلة الصغيرة التى عرفها فى الماضى .. وأدرك ان الوقت قد أزف لتزويجها ، ولكن الظروف كانت سيئة معاكسة ! .. فلقد تعرضت (تونيان) ـ فى ذلك العهد ـ لكثير من المحن : فمن فيضان الانهار ، ومن نكبات ، ومن ضعف المحصول ، حتى عم الفقر أهلها ، واضطر أكثر سكانها الى ان يهجروها ، وبات لزاما على كل فرد بقى فيها ، ان يقتصد فى الانفاق قدر الامكان .. وأصبح المنظر الخارجى للقصور الفخمة ، أبعد ما يكون عن حقيقة ماكان يشعر به اهلها من العسر ، وما صار عليه أثاثها من البلى حتى استحق أن يستبدل بغيره .. وأصبح عملاء الطبيب ـ وكلهم من ملاك الاراضى الذين عانوا من الفاقة أكثر من غيرهم ـ يضنون بأجر الطبيب ولاينتظمون فى الدفع ..

ومن ناحية أخرى ، قل ايراد الارض التى كان الطبيب يمتلكها فى مدينة (مأو) ، وكانت هذه الأرض جزءا من الصداق الذى اعده «جوفر» لابنته .. وبعد ان كانت قيمتها تقدر بثلاثين الفا من الفرنكات ، اذا بها تهبط الى ثمانية عشر ألفا .. وما كان مثل هذا المبلغ ليغرى الشبان القلائل الذين كانوا يفكرون فى الزواج من أهل المدينة .. اذ كان هؤلاء الشبان يفكرون فى الزواج وهم يحلمون بأن ينالهم من ورائه شىء من الثراء ، ليرفع من قيمة أملاكهم ، ويساعدهم على

اصلاح أراضيهم الزراعية التى كادت تصبح عديمة القيمة ! .. وفوق ذلك ، كان هناك شىء يجهله الطبيب « جان جاك جوفر » ، ذلك هو ان جمـــال ابنته الرائع كان يزعج اهل المدينة ، بقدر ماكان يزعجهم التعليم الغريب الذى تلقته . وكان الطبيب ــ من جانبه ــ يعلل عدم تقدم أحد لطلب يد ابنته ، بعدم ترددهما ــ هو وهى ــ على الكنيسة ، فكان يقول فى نفسه : « ان الزواج بفتاة جميلة لا دين لها ، ينطوى على مغامرة خطيرة لا يجسر أحد على القيام بها ! »

وهكذا بدا كما لو أن «كاميل» قد حكم عليها بعدم الزواج الى الابد ، مالم يحدث ماليس فى الحسبان .. وقد أدركت هى ذلك ، وقنعت بأن تظل وحيدة تزهو بجمالها ، وتتحسر على اهمالها الشخص الذى أحبها . .بل لقد صممت عل الا تستثير ــ بعد اليوم ــ تلك الذكريات الباسمة الماضية ، وذلك المـــاضى المضىء الذى أخذ يختفى عن عينيها بسرعة البرق ، فمـــا كان من وراء تذكره ســـوى اظهار حياتها الحاضرة أشد سوءا وشقاء مما هى .

وما لبثت أن اصبحت توقن من ان لويس لم يحبها حقـــا فى الماضى ، مادام لم يعد اليها على الرغم من وعوده .. ولم يداخلها ريب فى أن الزمن قد أسدل ستار النسيان على قلب الصبى ، كما كان قد أوشك ان يطمس تلك الاســـماء التى نقشت على الاشجار فى « الغابة العذراء » ، بعد أن أخـــذت تنمو عليها طبقة جديدة جعلت قراءتها وتتبع خطوطها أمرا متعذرا !

القسم الثانى

- ١ -

وبدأت « كاميل » تعشق تلك الحياة الهادئة الصامتة ، وذلك السكون الذى كان يشمل المنزل المنعزل . وكم قضت من أيام كانت لا تنبس فيها ببنت شفة . وكانت ــ اذا سافر الطبيب جوفر لعيادة مريض فى مدينة بعيدة ــ تخرج الى الشرفه ، وتجلس هناك مسرحة بصرها فى الفضاء ، لا تكاد تفكر فى شىء ، وقد راقت لها تلك الوحدة واستمرأت فيها سعاده مجهولة ليس من السهل التعبير عنها .

كان الهدوء يسود المنزل ، فما كان يتردد فيه غير صرخة « ارما » ــ الخادم البلهاء ــ تنبعث بين وقت وآخر ، وهى تتمشى بين أشجار الحديقة ، أو تطل من احدى النوافذ .. ولقد مالت « مدموازيل جوفر » الى الوحدة والسكون ، حتى أصبحت تكره رنين جرس الباب مؤذنا بحضور أحد عملاء والدها الطبيب ، فقد كان هذا يجشمها عناء محادثة القادم واستقباله .. وهكذا الوحدة ، يخشاها المرء فى بادىء الامر ، ولكنها لا تلبث أن تستولى على النفس ، فلا يكاد الانسان بعد ذلك يملها أو يميل الى غيرها !

وفى ذات يوم ، قال الطبيب « جان جاك » يخاطب ابنته : « هل بلغك أن بعض الجيران الجدد سيسكنون بجانبنا ، يا كاميل ؟ » .. وأجفلت الفتاة، وكأنها سمعت خبرا مزعجا، وسألت والدها : « أى جيران ؟ .. ومن هم ؟ »

ــ انها أسرة الكاهن الجديد الذى سيخلف كاهن المدينة مدة مرضه .. هل يضايقك هذا الامر ؟

ولم تجب، وانما أخذت تفكر وعلامات الامتعاض على وجهها .. وكان «جوفر» يراقبها ويقرأ أفكارها ، فتمتم قائلا لنفسه: «الواقع انني أنا الآخر سأضيق بوجود بعض الاحياء الى جانبنا، في هذا المكان الهادىء ! » .. وأخذ يستعيد ذكريات الماضى ، حين كان يقضى أكثر أوقاته وهو يطالع فى مكتبة الكاهن — فى المنزل المجاور لمنزله — فلا يكاد يشعر بمرور الزمن . ..

وفى صباح اليوم التالى ، نزلت « كاميل » الى الحديقة — بعد أن تناولت طعامها — فأزعجها أن سمعت صوت غنـاء العمال ، وضجيج آلاتهم المختلفة ، وهم يعملون بجد واجتهاد فى اصلاح المنزل المجاور واعداده للسكنى . وشـاهدت فى نفس اليوم ماقاموا به من أعمـال لتمهيد الدروب بالغـابة العذراء المتكاثفة الاشجار .. فما هى الا ساعات قليلة، حتى كانت الغابة المتكاثفة قد ظهرت للعيان واضحة جلية . وما أن رأتها الفتاة على تلك الحال، حتى أسرعت الى المنزل المنعزل وقد امتلأت عيناها بالدموع ، فقد خيل اليها ان تلك البقعة الفريدة المجهولة ، التى شهدت حلقة لا تنساها من حلقات صباها ، قد تدنست وانتهكت حرمتها .

وبعد بضعة أيام ، لم يبق من أثر للغابة العذراء — كمـا عرفتها كاميل وارتادتها مع لويس — اذ تحولت الى حديقة صغيرة من الطراز الحديث ، تشتغل فيها بعد ظهر كل يوم « مدام هوك » وبنـاتها الثـلاث ، مارت وبرت ومارى .. وكانت الفتيات على درجة محدودة من الجمال . أما أمهن ، فان مظهرها لم يكن يوحى بأنها تزيد عنهن سنا ، حتى أن الكاهن — وكان رجلا لطيفـا لا يـكره الدعابة — كان يقول عنهن ، كلما ذكرهن : « زوجاتى الاربع » !

وما ان رأت كاميل وجوه النسـاء الاربع فى الحديقة ، حتى

امتنعت عن النزول اليهـا ، ولزمت المنزل المنعزل ، وهى غضـبى تشعر بحقد ضـد هؤلاء اللائى اجترأن على ازعاج وحدتها المحبوبة . ولكنها خرجت ــ بعد ذلك ــ الى الشرفة بجـانب والدها ، فلاحظت أن الاناث الاربع ينظـرن اليهـا باهتمام .. والواقع ان جمـالها غير المألوف ــ الذى ورث الطابع الايطالى عن جمـال أمهـا ــ بهـر أعينهن ، وجعلهن تواقات الى التعرف بهذه الايطالية الباهرة الحسن ، ذات الشعر الفـاحم المنسـدل على كتفيهـا البـديعتين . لكن الشقيقـات الثـلاث ــ مارت وبرت وماري ــ لم يفلحن فى تبادل الابتسام مع كاميل .. والابتسام هو رسول الصداقة بين النساء ! .. فقد ظلت « كاميل » مدة لا تأبه بهن ، ولا تهتم لابتساماتهن ، بل كانت تظهر لهن الصد والاعراض !..

الى أن اضطرت « مدام هوك » ــ يوما ــ الى أن ترسل فى طلب الطبيب جوفر لاستشارته ، وقـد ألم بها مرض ، أو تظاهرت بذلك . وعند ما ذهب الطبيب لعيادتها ، سـألته أن يصطحب ابنته فى زيارته التالية ، فبادر الى الموافقة ، اذ وجد فى جيرانه الجدد سلوى لوحدة كاميل ، فضلا عن انه كان قد مال الى الكاهن ، بعد أن تبادل معه بضع كلمات فى موضوعات فلسفية ، وهى الموضوعات التى يميل اليها دائما .

وبدأت العلاقات بين الاسرتين منـذ ذلك الوقت ــ أسرة الطبيب جوفر من ناحية ، وأسرة الكاهن من ناحية أخرى ــ على الرغم مما لاقت « مدام هوك » وبناتها الثلاث من الصد والاعراض من جانب « كاميل » فى بادىء الامر . ولكن الفتاة لم تلبث ان مالت اليهن والى حديثهن ، فزالت الكلفة بينها وبينهن ، واخذن يتبادلن الحـديث كل يوم .. واعتـادت الفتيات أن يجتزن الحاجز الفاصل بين الحديقتين ، لزيارة

كاميل ، كما أصبحت هـذه تذهب اليهن . وهكذا توطدت بينهن الصداقة النسوية ، وهى تختلف عن صداقة الرجال ، فى اهتمامها بـكل شىء : من اللهو الى العمل ، ومن أتفـه الفكاهات الى أدق فنون التطريز . وبدأت كاميل ترتاح الى تلك الصداقة الجديدة بقدر ماكانت تستسيغ الوحدةفى الماضى، اذ كانت ــ كلما جلست بين الأم وفتياتها الثلاث ــ شعرت بالزهو والفخر وهن يتحدثن عن جمال جسمها ، ويسرفن فى اطرائه . وكانت الفتيات الثلاث يظهرن لها اخلاصا عظيما ، كما كانت أمهن لا تكف عن التفـرس فيهـا ، وهى تهتف : « يالله ! لكم أنت جميلة يا ابنتى ! .. ان جمالك يفوق الحد المعتـاد .. ومع أن فتيـاتى على شىء من الجمـال ، الا أنهن يظهرن دميمات اذا جلسن الى جانبك ! »

واعتادت الفتيات الثلاث ــ مارت وبرت ومارى ــ ان يلعبن مع «كاميل» ، كما يلعبن بدمية كبيرة صنعها مثال بارع وقدمها اليهن .. ووجدنها تجهل الكثير مماتهتم به معظم النساء، ولكنها لم تكن سقيمة الفهم أبدا، وكثيرا ما كانت تذكر أشياء صحيحة بلغتها البسيطة الطبيعية غير المتكلفة . واذ ذاك كن يحطن بها ــ وهن يضحكن اعجابا بحديثها ــ وتحـاول كل منهن تقبيلها .. ورأت الام وبناتها أنه مما لايناسب جمال «كاميل» أن يظل شعرها منسدلا على كتفيها ، فقررن فيما بينهن أن من اللائق رفعه معقوصا الى رأسها، كما كن يفعلن ، اذ كان هذا أدعى الى اظهار محاسن وجهها ، فتركتهن « كاميل » يفعلن بها ما يروق لهن ، وهى مسرورة ، وقد ازدادت تيها وعجبا بنفسها .. وما لبثن ــ بعد ذلك ــ أن أخذن يحثثنها على مرافقتهن الى الكنيسة ، التى لم تكن قد دخلتها منـذ وفاة جدتها ، والدة الطبيب .. وعادت الفتاة الى الكنيسة

دون اهتمام ، فمـا كانت تأبه للدين . وكان والدها يعرف ذلك فيها، فترك الجارات الاربع يتصرفن معها كما كن يرتأين، وقد أرضاه أن تعود علامات البشر والسرور الى وجه ابنته، وداخله الامل فى أن تجد لها « مدام هوك » زوجا ، لما كان لها من معارف واتصالات .

***

وحدث الصلة تتوطد بين الطبيب والكاهن ، اذ وجـ الاول فى الثانى زميلا عالما ، يتفق معه فى كثير من آرائه .. وكثيرا ما قضى الطبيب ساعات متوالية ، يتحدث مع الكاهن وهما جالسـان فى ركن من شرفة المنزل المنعزل يدخنان ، بينما كانت مدام هوك وفتيـاتها يجلسن مع « كاميل » فى جانب آخر ، يتبـادلن حديثا يتخلله الـكثير من القبـلات والضحك والعبث .. وكانوا ــ فى بعض الاحيان ــ يخرجون جميعا الى المتنزه العـام ، فكانت « مارت » و « كاميل ». تجلسان بجانب مدام هوك على أحد المقاعد ــ وكانت مارت أكبر الفتيات سنا ــ بينما كانت برت ومارى تجوسان خلال الحديقة ، مغتبطتين لملاحقة بعض الشبان لخطواتهما ، ثم تعودان الى مقعد مدام هوك .

ولكن كاميل لم تكن لتقنع بأن تجد لنفسها بعض الصديقات اللاتى يظهرن اعجابهن بجمالها أو يغمرنها بعطفهن ، بل كان كل همها متجها الى البحث عن وسيلة ترضى بها رغبـات قلبها فى الحياة .. وتمثلت هذه الوسيلة فى طرق موضوع واحد للحديث ، تهتم به كل امراة .. ذلك الموضـوع هو : « الحب » . فـكن كثـيرا مايتحـدثن عن الحب .. الحب الشرعى الذى يعترف به القانون وتقره الكنيسة .. وكثيرا

ما تحدثن عن الخطوبة، والامومة ، والزواج . وكانت «مدام هوك » تروى قصة حيـاتها ، وزواجها ، وحبها ! .. تلك القصة التي ماكان لها أن تنتهى طالما بقيت هى وزوجها على قيد الحياة ! .. ولقد سمعت كاميل مرارا صوت الكاهن وهـو يقبل زوجته قبلات رنانة ، وراء الباب .. بل انها رأتهما ـ فى ليال متعددة ـ والهواء يهب عليلا من الحديقة ، وكل منهما يبحث عن يد الآخر ، فاذا وجدها أمسك بها فى يده وأخذ يضغط عليها فى عطف وحب !

وبين هذين الوالدين نشـأت بناتهن الثـلاث .. فألفت مارت وبرت ومارى ـ من صغرهن ـ الحديث عن قداسـة الحب الزوجى ، وعن مهمة المرأة فى الحيـاة وكيف أرسلها الله لتكون شمس سعادة تضىء المنازل .. فنشأن على التطلع الى الزواج بدافع من الدين وبدافع من الفريزة النسـوية على السواء ، وبدرجة واحدة .. ولم يكن الزواج بعيـدا على « مارت » ، اذ وعـدها أحـد طلاب الدين فى مدينـة (باليف) بالزواج ، عندما كان فى ضيافة الكاهن « هوك » لبضعة أيام .. وكان اسم هذا الشاب « بول دلكومب » . وقد وافق الأب على أن يتم هـذا الزواج بعـد أن يصـبح « دلكومب » كاهنا بزمن قصير ، وقـد راوده الامل فى أن تعيش ابنته مع زوجها فى (تونيان) ، اذ كان كاهن المدينة فى صحة لم تعد تساعده على القيام بأعباء الكنيسة .

واعتادت «مارت» ان تحدث كاميل عن « بول دلكومب » ، وتقص عليهـا كيف أحبته لاتفـاق مشـاربهما فى كثير من النواحى . وأخبرتها انهمـا ظلا فترة يكتمـان كل شىء فى قلبيهما ، الى ان اعترف كل منهما للآخر على الرغم منه ، اثنـاء انفرادهما فى الحـديقة .. بل انها وصفت لها القبلة

الاولى التى طبعها الشاب على جبينها، وكيف أنهما أسرعا ـ بعد ذلك ـ الى «مدام هوك» يقصان عليها كل شىء .. آه ! يا لتلك اللحظات السعيدة !.. وأخذت مارت تحاول أن تصف الشاب لكاميل، فذكرت عنه انه جميل الشكل، أبيض الوجه، جم اللطف، يكاد يكون أصلح انسان للقيام بوظيفة الكاهن ! .. بل انها راحت تحاول أن تصف لكاميل فصاحته وقوة بيانه وتأثيره على الجماهير اذا وقف واعظا بينهم ! .. وكانت تشرك « كاميل » فى أحلامها بالمستقبل الزاهر الذى ينتظر خطيبها .. قد يكون مستقبله فى عالم السياسة باهرا !.. ولم لا يكون مستقبله باهرا فى عالم السياسة ، بعد أن يصبح الكاهن الفذ البليغ ، مادام البرلمان يضم خمسة أو ستة من الكهنة ؟ !

وفى مناسبات أخرى ، كانت مارت تطلع كاميل على الخطابات التى تتلقاها من خطيبها ، فاذا بها جميلة الخط ، تتألف من عبارات صريحة المعنى ، تتخللها كثير من آيات الانجيل ، وتنضح بالحب البرىء، الذى ينم عن رغبة الرجل فى المحافظة على طهارة الفتاة التى ستكون زوجته فى المستقبل .. فكانت « كاميل » تسرع الى غرفتها ، لتخفى العبرات ـ التى تطفر من عينيها ـ عن صديقتها « مارت » ، وتروح تتطلع الى المرآة وهى تقول لنفسها : « كم أنا جميلة ! .. اننى أجمل من مارت بكل تأكيد ، ومع ذلك فليس هناك من يحبنى ! » .. وكانت تراودها خواطر شريرة أحيانا، فتقول لنفسها : « لابد من أن أسرق بول دلكومب من مارت عند حضوره الى تونيان قرب نهاية الصيف ! »

ولكن حدث ـ عند ما حان ذلك الوقت ـ ماحول مجرى أفكارها وغيرها تغييرا كليا .. ففى أحد أيام الاحد ، بينما كانت مدام هوك عائدة بصحبة الفتيات من الكنيسة ـ خلال

الطرق الملأى بالاتربة ـ اذا بها تجذب « كاميل » من ذراعها، وتبتعد بها عن الجميع لتقول لها : « نبئينى يا جميلتى .. ألم تلاحظى شيئا فى الكنيسة منذ أسابيع ؟ » . فارتبكت كاميـل ، وأجابت بالنفى . واذ ذاك قالت زوجة الـكاهن : « حسنا ، لقـد أدركت أن كل شىء قـد غاب عنك .. انه شاب مرغوب جدا ! »

واضطربت الفتاة اضطرابا خفيفـا ، بينمـا تابعت المرأة حديثها :

ـ آه ، مرغوب جدا ! .. وقد تحريت عنه ، فاذا به غنى، وله قصر يحمل اسمه ، بالقرب من (كليراك) .. انه يدعى « روكبيكيه » ، ولا بد أنك تعرفينه مادمت قد نشأت فى هذه المنطقة ، فان والدته تملك الملايين .. وهو يعبدك فوق ذلك !

فسألتها كاميل : « وكيف عرفت هذا ؟ »

ـ كيف ؟ ! .. انه يكاد يلتهمك بنظراته .. لقـد حضر الى هنا ليزور أقاربه فرآك ، وما لبث أن احبك من النظرة الاولى ، وأخذ يواظب على الحضور الى الكنيسة برغم انه لم يعتد التردد عليها قبل ذلك .. وتلك النظرات التى يوجهها اليك ! .. آه ياصغيرتى المسكينة ، لكم يبدو وكأنه يود أن يفوز بك بسرعة ! .. افلا يهمك ذلك ؟

وأطرقت « كاميـل » ولم تجب ، فالواقع انها لم تـكن تشعر بميل قوى نحو « روكبيكيه » ، أو « السيد » ، كماكان أهل المقاطعة يلقبونه ، لانتسابه الى أسرة نبيلة .

***

وكان « السيد » فى الخامسة والعشرين من عمـره .. والحق انه لم يكن يتفق كثيرا مع الفكرة التى كونتها «كاميل»

عن الزوج أو الحبيب ، فقد كانت تحلم برجل مليح الشكل كوالدها ، كثير النباهة ، أنيق الملبس ، فى امكانه أن يكتب لها خطابات غرامية مثل التى كان « بول دلكومب » يكتبها لخطيبته .. اما « روكبيكيه » فكان قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، لا يرتدى غير الملابس القروية الأنيقة ، ولم يتجاوز عقله وذكاؤه انه رسب فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية خمس مرات ! .. وكان سيىء السمعة بين الامهات والاسر، اذ اشتهر بملاحقة الفتيات ، ولقى فى ذلك بعض النجاح بسبب اسمه ومركزه ، وبالنظر الى طيش الفتيات فى القرى، وميلهن الى المغامرة .

وما كان كل ذلك مما يشجع على اغراء كاميل ، فراحت « مدام هوك » تردد على مسامعها ــ فى كل لحظة ــ ان « روكبيكيه » يكاد يجن غراما بها .. بيد أنها ظلت على نفورها منه ، لولا أن الفتاتين « مارت » و « مارى » اخذتا تسفهان اعراضها عن زوج يكاد يكون سيد المقاطعة كلها . أما « برت » فكانت فى ريب من عواطف « روكبيكيه » .. فهل كان مغرما بكاميل الى ذلك الحد حقا ؟ .. وكيف يمكن التأكد من ذلك ؟ .. واذا بهذه الاسئلة تزيد اهتمام كاميل بالرجل ، حتى انها أخذت توجه نظراتها الى ذلك المسكين من حين لآخر ، كلما ذهب الى الكنيسة فى يوم الاحد !

والواقع ان مدام هوك كانت محقة فيما قالت ، فقد كان « السيد » متأثرا بحسن « مدموازيل جوفر » ، اذ كانت تفوق كل فتيات (تونيان) جمالا ، وما عرف يوما ــ على كثرة عشيقاته ــ من كانت تدانيها بهاء وفتنة .. وأخذ يطيل النظر اليها منذ رآها للمرة الاولى ، وراح يجمع المعلومات عنها فى المدينة ، فعلم بحياة العزلة التى تحياها .. وأخذ

شــوقه اليها يزداد ، كلمــا تكاثرت العراقيل فى طريقه . وأصبحت صــورة الحسناء لا تفارق ذهنــه ، وكأنه يحس بنفس الشعور الذى أثارته فيه حين وقع عليها نظره لاول مرة ، ومضى الاعجاب بكاميل ينمو فى قلبه ، فأطال اقامته فى (تونيان) ، وطاب له المقام فى منزل والدته الواسع، القريب من الكنيسة ، بالرغم من ان الاسرة لم تكن تقيم فيه ، ولم يكن يضم غير بعض الخدم الذين وكل اليهم أمر العناية به .. ومن نوافذ ذلك المنزل ، كان يطل ــ أحيــانا ــ فيرى كاميل وهى تجتاز الشارع الرئيسى ، فى طريقها الى المتنزه العام أو السوق ...

وكان أهل (تونيان) ينقسمون ــ اذ ذاك ــ الى حزبين : الحزب الجمهورى ، والحزب المعارض . وكان «روكبيكيه» ــ مذ غادر المدرسة ــ قد انضم الى الحزب الاخير ، الذى لم يكن يضم الا بعض الشيوخ . ولم يكن للعبث سن يقف عندها فى (تونيان) ، فما كان الشــعر الابيض على رؤوس زملاء « روكبيكيه » ليقلل من ظرفهم واستطابتهم صحبــة الشباب .. وكان أكثر أصدقاء « روكبيكيه » ملازمة له ــ من بينهم ــ « بوريس » ، و « دسبيرو » مسجل العقود ، و « اسكادافال » تاجر الرخام .. فكان الشــاب يجلس معهم فى شرفة أحد المشارب ، حيث يشربون ، ويلعبون ، ويلاحقون الفتيات بأنظارهم فى الطريق ، من وقت لآخر .. أما « بوريس » فــكان هائل الجسم ، بعكس « دسبيرو » الذى كان ضئيل الجسم ، قليل الــكلام ، كثير الدهاء .. بينما كان « اسكادافال » رجلا طيب القلب .. وكان ثلاثتهم ممن تقدمت بهم السن ، فكان « روكبيكيه » هو الشــاب الوحيد بينهم . واعتاد ــ اذا ماجلس بينهم ــ ان يقص عليهم

مفامراته وغرامياته واخبار نسـائه ، فيستمعون اليـه فى سكون ، وقد ظهر التأثر على وجوههم ، وكأنهم يتحسرون على أيام شبابهم الماضية ! .. وكانوا اذا رأوه مقبلا عليهم ، هللوا له ، وصاح به « بوريس » وهو لايزال بعيداً عنهم :

ــ هيه أيها السيد .. كم بلغ عدد مغامراتك الليلة ؟

وما يـكاد « روكبيـكيه » يجلس ، حتى يبـدأ فى سرد غرامياته .. على انه ــ مذ راى كاميل ــ اعتاد أن يقول :

ــ لقد وقعت وانتهى الامر ! .. يجب أن أحصل على تلك الفتاة .. يجب !

فيقول بوريس : « لـكن ياعزيزى .. اذا كنت تحبهـا فتزوجها ! »

ويبدأ اسـكادافال فى الكلام ، فلا يميز الثلاثة من كلامه غير كلمتين أو ثلاث : « بكل تأكيد .. تزوجها ! »

ــ أتزوجها ؟ ! أتهزل فى حديثك ؟ ! .. اتزوجهـا ؟ : .. كيف تتصـور حال والدتى وأنا أقدم اليها هـذه الطبيبة الصغيرة ؟ !

كذا كان « السيد » يتحدث فى النادى ، على مسمع من أصـدقائه ، بين سحب الدخان المتكاثف ، وبين الاصـوات المختلفة ، كما لو كان يتناسى ــ اذ ذاك ــ انه قبل لحظات كان واقفـا بالقرب من نافذته ، يتـرقب مرور كاميـل فى الطريق .. وكأنه كان يتجاهل دقات قلبه وسرعتها عند ما كان يلمح رداء الفتاة عن بعد .

ويبدأ الناس فى الانصراف من النادى وهم يحيون «السيد» .. ويرحل أصدقاؤه واحدا اثر الآخر ، حتى يجد نفسـه وحيداً ــ فى نهاية الأمر ــ فيتأمل ما حوله ، وتسترعى نظره قذارة المكان الى درجة تثير تقززه ، فيخرج مسرعا ، ويجتاز

الميدان ميمما ناحية الحديقة التى يتصاعد اريج ازهارها الجميلة فى جو الليل .. ولا يلبث أن يتجه صوب النهر ، فيجلس تحت الجسر يراقب الماء وهو ينساب بهدوء . وكان سكون الليل وما يتخلله من خرير يهفو بالاعصاب ، وتلك الطبيعة الجميلة التى يتسم بها الريف ، ترهف أحاسيس فؤاده، فيشعر بالندم لتلك الكلمات القاسية ــ التى ذكرها فى المشرب منذ لحظات ــ عن الفتاة التى أسرت قلبه .

***

وفى ذات ليلة ، تربع فيها القمر فى كبد السماء ، بلغ بروكبيكيه التأثر أقصاه ، وهو فى جلسته تلك ، فهتف محدثا نفسه بصوت شق سكون الليل : « لأكونن جبانا اذا لم أتزوجها ، مادمت أشعر برغبة فى الزواج منها ! » .. ونهض فانطلق حتى بلغ منزل الطبيب « جوفر » ، فوقف أمام بابه يتطلع الى نوافذه .. ولمح بصيصا من نور ينبعث من احدى الغرف .. واذ كان يجهل ان كاميل تبكر بالنوم، فقد راح يرسل قبلات فى الهواء ، الى تلك الغرفة التى جلس الدكتور « جوفر » وراء جدرانها يطالع كتابا فلسفيا !

ثم عاد الى منزله ليحاول النوم ، ولكنه ظل ساعات مسهدا ، يتقلب فى فراشه . اذ ذاك شعر بالثورة ضد كاميل وضد نفسه ، خشية الا يكون من وراء هذه الانفعالات التى انتابته الا ما يتلف صحته . وأحس برضاء لانه لم يتقدم خطوة الى الامام فى مشروع زواجه .. فقد كان من الكفاية ان يرى « كاميل » يوم الاحد فى الكنيسة، وان يلمحها مصادفة ، فى أيام الاسبوع الاخرى ــ فى الطريق او فى المتنزه وهى تسير مع صديقاتها الاربع : مدام هوك وبناتها . وكلما

ذهب الى النادى وابتدره بوريس متسائلا : « هيه ؟ . . ألم يحدث تقدم فى غرامك ؟ .. هل تحدثت اليها ؟ » .. أصبح يهز رأسه قائلا : « آه لو تمكنت من محادثتها فقط ! .. لو ان هذا تم ، لتيسر الوصول الى قلبها ، فهى تكثر من النظر الى .. لابد أن تكون لعوبا ! »

وكان أصدقاؤه يقرون رأيه ، ويزيد أحدهم قائلا :

ـ هذا حقيقى .. لا بد أن تكون الفتاة شيطانا صغيرا !

وما لبثت الفرصة التى كان يتمناها أن وافته ، بفضل « مدام هوك » . فبينما كان «روكبيكيه» يتناول طعام الافطار وحده ـ ذات صباح ـ اذ دخلت عليه مدام هوك ، وقالت له ببساطة : « سيدى ، أعرف انك غنى ، ونحن فى حاجة الى النقود لمساعدة الفقراء ، ولذا جئت أسألك أن تتبرع لهم بشىء ! » .. ولم يكن « روكبيكيه » يكره شيئا قدر كراهيته للتبرع لمشروعات البر . ولكنه فى تلك المرة فكر فى اكتساب ود مدام هوك ، فبواسطتها يمكنه الوصول الى كاميل . لذلك أسرع فأسلمها مبلغا من المال .. وجلست هنيهة تتحدث اليه عن بعض أقاربه الذين كانت تعرفهم ، فراح يستدرجها فى الحديث حتى قالت :

ـ ان لدى ثلاث فتيات يملن الى المجتمعات ، ولا يخفن من الشبان ، فهل لك أن تتفضل بزيارتنا ؟

ولم يجسر على الذهاب اليها غداة ذلك اليوم ، على الرغم من رغبته فى ذلك . ولكنه ذهب ـ بعد يومين ـ لزيارة « مدام هوك » ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، وقد ارتدى أجمل ملابسه . وما لبثت « مارت » أن أقبلت ، ففتحت له الباب . وما رأته حتى ابتسمت له ، ومدت اليه يدها تصافحه دون كلفة . وكم اضطرب الشاب المسكين

عنـــدما أحاطت به « مدام هوك » وبناتها الثـــلاث ، ومعهن كاميل التى راحت تحدق فى وجهه فتزيده ارتباكا .. على ان ذلك الارتباك كان ذا نفع له . فلو أنه بدا أمامهن بالصورة التى كان يبـــدو بها فى النـــادى أمام الجميع ، لما وافقت « كاميل » البتة على رؤيته ثانية . ولكنها تأثرت لما رأته من ارتباكه واضطرابه تحت تأثير نظرتها ، كما هفا بمشـــاعرها أن هناك رجلا يريدها ويرغب فيها الى درجة عظيمة ، فأبدت له ذلك العطف الذى تحتفظ به كل فتاة للمعجب الاول بها .. عطف يخلقه شىء من الاعتراف بالجميـــل ، وقليـــل من الحرارة العاطفية ، وكثير من الرغبة فى الزواج والامومة !

وواصـــل « روكبيكيه » زياراته ، بين آن وآخر ، ثم لم تلبث هذه الزيارات ان أصبحت يوميـــة . وكانت به نزعة عبث ومرح لا تكرهها الفتيات ، على أن خوفه من ان لا يروق لدى « كاميل » جعـــله يحرص على أن لا يتجـــاوز حدود اللياقة .. كذلك أخذ يرافقهن فى نزهاتهن .. فاذا ما انصرف الكاهن والطبيب الى أعمـــالهما ، خـــرج « روكبيكيه » مع الاناث الخمس ، وظهر بينهن كما يظهر الديك بين دجاجات تباينت ألوان ريشها ! .. وكانت زوجة الكاهن قـــد أسرت بخلتها الى الدكتور « جوفر » ، وصارحته بأملها فى تحقيق الزواج ، فلم يجرؤ « جوفر » على الاعتراض .. ذلك لانه ــ وان لم يكن عظيم الثقة فى خطط مدام هوك ــ كان يعرف أنها أكثر خبرة منه فى مسائل الزواج . ولم يكن له من هم سوى زواج كاميل !

والواقع أن الطبيب لم يرض عن الشاب ، لاول وهلة .. ولكنه راح يعلل نفسه : اذا كان شـــكله قبيحا ، فالثيـــاب الانيقة كفيلة باصلاح منظره .. واذا كان ضحل العقل، فان

« كاميل » لم تكن مفرطة الذكاء، ولن يضيرها كثيرا انيكون زوجها دونها فى المستوى الفكرى .. ولكن ، هل كان « السيد » صادقا فى رغبته فى الزواج حقا ؟ .. هذا هو السؤال الذى أقلق بال « جوفر » . فلقد شعر بصدق عاطفة الشاب ، ولكنه كان يرتاب فى ثباته على رايه، ويوجس من أن ينصاع لراى أمه اذا هى ابدت عدم موافقتها علىذلك الزواج . لذلك سر « جوفر » لان ابنته كاميل لم تكن شديدة الاعجاب بالشاب ، فقد طمأنه ذلك الى ان انقطاع الصلة بينهما ــ اذا قدر لها أن تنقطع ــ لن يسبب لها حزنا عظيما !

***

وكانت الشهور تمر أثناء ذلك .. وقد جاء « بول دلكومب » ثم سافر . ثم رحلت أسرة « هوك » ــ فى آخر شهر أغسطس ــ لتقضى شهر فى مدينة (أراشون) .. وشعرت كاميل أن مدة الشهر طويلة جدا .. واخذ « روكبيكيه » يتردد على المنزل المنعزل لزيارتها ، فكان « جوفر » يتركهما يتحادثان دون أن يشغل نفسه بمراقبتهما . وكثيرا مانام فى مقعده دون أن يشعرا به . ففى كثير من تلك الاوقات كان الاثنان فى خلوة وحرية اشبه بخلوة الازواج ، لا يزعجهما وجود الطبيب النائم و « ارما » البلهاء . ولكن تلك الحرية كانت تزيد « السيد » اضطرابا ، كما كانت تطيل فترات الصمت والتفكير خلال محادثاتهما !

وشعرت كاميل ــ وان لم تصارح نفسها ــ بالرغبة فى ان يقدم لها « روكبيكيه » دليلا ماديا من ادلة الحب ، كأن يمسك بيديها ، أو يقبلها . ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، وكأنه كان يفقد كل شجاعته اذا ماجلس فى حضرة «مدموازيل

جوفر » ! .. فاذا ماغادرها ، عاد اليه الحماس والحرارة ، وأسرع يطفىء وقدتهما فى صحبة احدى صديقاته السابقات !

وما ان انتشر نبأ الصداقة التى نشأت بين الطبيب و « السيد » ، حتى بدأ أصدقاء هذا الاخير يهنئونه على توفيقه وهم يتغامزون . وقال له صديقه اسكادافال : « لقد وقعت ياهنرى ، وهاأنتذا قد وصلت الى ما تشتهى !» .. أما دسبيرو فلم يقل شيئا ، واكتفى بأن يلقى نظرة ذات معنى على صديقه .. وكان « روكبيكيه » يكتفى بأن يبتسم للاصدقاء ، وهو يشعر بالغرور من جراء ظنونهم ، دون أن يتكلم أو يصحح هذه الظنون، حتى قال دسبيرو مرة يخاطب اسكادافال : « دعه أيها الاحمق ، ولا تسأله شيئا ، فأنت ترى انه لن يجيبك عن أسئلتك ! »

وبدأت زيارات « روكبيكيه » تؤثر على « كاميل » ، حتى اصبحت تنتظرها وتحسب مواعيدها .. كانت تعيش حياة من تخلصت من الاسر ، لاسيما بعد أن عادت « مدام هوك » وبناتها الى (تونيان) ، وحل فصل الشتاء .. وعندما بدأ شهر اكتوبر ، اضطر « روكبيكيه » الى أن يلحق بوالدته فى مدينة (كليراك) فسافر اليها على جواده ، برغم وعورة الطريق وخطورته . وكان البرد قد بدأ يشتد الى درجة حالت دون الجلوس فى الحدائق ، مما حمله على أن يقلل من زياراته لكاميل . فأخذ يعتذر اليها بخطابات قصيرة ، كانت ترد عليها ـ هى الاخرى ـ بخطابات أقصر .. فقد كانا يشتركان فى النفور من الكتابة . واخذ القلق يراود « مدام هوك » ، فحاولت أن تذكى من حماس « السيد » ، قائلة له :

ـ هيا ايها السيد .. تقدم الى الطبيب واطلب يد ابنته ! .. ماذا تنتظر ؟

فأجاب « روكبيكيه » ، بعد أن فكر قليلا : « أجل ، بكل تأكيد .. اننى على استعداد لان أطلب يدها ، ولكن هناك والدتى ، وقد ترفض أن توافق على طلبى .. وهى الثرية لا أنا ! » .. وقالت زوجة رجل الدين : « ولكن ، ألا يمكنك الاستغنـاء عن مالهـا ؟ .. كم يبلغ ايرادك ؟ » . فأجاب : « عشرة آلاف فرانك » .

وكان « روكبيكيه » يكذب فى هذا الجواب ، فان والده لم يترك له غير ديون متراكمة ! .. وقالت مدام هوك :

ـ عشرة آلاف فرنك ؟ ! .. انه مبلغ كبير يابنى ، واذا أضفت اليه الثـلاثين ألف فرنك التى تملكها « كاميـل » ، أمكنكما أن تعيشاسعيدين .. لو كانت ابنتى مارت وخطيبها يملكان مثل هذا المبلغ لتزوجا منذ عام مضى !

واضطرب روكبيكيه عند ما سمع ذلك ، وطلب امهـاله بضعة أيام ليتمكن من تسوية الامور .. وانقضى الشتـاء ، وتبعه الربيع ، ثم عاد الصيف .. وفى الايام الاخيرة من شهر يونيو ، انهمكت الاناث الاربع ـ فى دار آل هوك ـ فى اتمام ملابس « مارت » ، التى أعلن خبر زواجها رسميا .. وكانت كاميل تتألم وتحزن كلما اقترب موعد زواج صديقتها ، مع التسويف فى زواجها هى .. ولاحظ والدها الطبيب ـ ذات صباح ـ انها كانت محتقنـة العينين لفرط البكاء . وكان ـ هو أيضا ـ قد بدأ يسأم كل هذا التسويف .. وفى نفس اليوم حضر « زوكبيكيه » الى منزل هوك ، فجذبه «جوفر» من ذراعه ، وسار به الى مكتبه الخـاص ، حيث قال له : « سيدى ! .. لقد سمحت لك بالدخول الى منزلى ، لانك كنت تظهر رغبة فى الزواج من ابنتى .. ومنذ عام أخذت ترجىء الامر من شهر الى آخر ، وتعتذر عن ذلك بخوفك

من عدم موافقـة والدتك .. ومن الطبيعى ان والدتك لن تصدر موافقتها ، مالم تفاتحها أنت ، فأرجو أن تذهب اليها، وتستـأذنها فى الزواج ، وتخبرنى بجوابها غـدا ، والا كان عليك أن تكف عن دخول هذا المنزل ! »

وتمتم « روكبيكيه » فى ارتباك : « بكل تأكيد ! .. اننى أريد الزواج بكاميل ، ولكن مدام روكبيكيه ــ أمى ــ امرأة صلبة الارادة .. » . على انه انتهى بأن وعد بأن يخـاطب امه فى الموضوع فى نفس اليوم . وخرج وهو يشعر بالخجل، وقد نكس راسه ، وغض بصره . وبادر فامتطى جواده ، ميمما شطر النادى ، حيث كان أصدقاؤه الثلاثة جلوسا أمام الباب يشربون ويستمتعون بشمس الاصيل . ولحظ بوريس أسى « السيد » وحزنه ، فقال له : « ماذا بك أيها المسكين ؟ .. انك غريب الشكل حقا ، هذا المساء ! »

وترجل روكبيكيه عن جواده ، وأمسك بيد صديقه، وقال له بصوت خافت : « أتحب أن تعرف مابى حقا ؟ .. اذن ، فاستمع ! » .. وأخذ يقص على صديقه ماحدث له منـذ لحظة مع الطبيب جوفر ، وبوريس يهز راسه ، واسكادافال يسعل من آن لآخر ، فقد كانت المسألة خطيرة حقا .. ولم يلبث بوريس ان قال ، بعـد أن انتهى السـيد من سرد كل التفاصيل : « ولكن .. أتحبها حقا ؟ »

وكان روكبيكيه قـد بدأ يشعل لفـافة من التبغ فأجاب صـديقه بحركة تدل على الغضب وقال : « أحبهـا ؟ ! .. أحبها ! .. لقد قاسيت الـكثير من العناء فى هـذا الحب ، حتى بدأت أشعر باليأس ! »

واقترب بوريس بمقعـده من « السـيد » ، وكذا فعل اسكادافال ، ثم قال الاول بصوت منخفض : « انك لست

طفلا ياروكبيكيه ، وأحسبك كنت عاقلا لانك لم ترزق بولد من هذه الصغيرة .. » . فصاح روكبيكيه مقاطعا : « لا ، لا ! .. لم يحدث شيء من هذا ! » . فقال صاحبه : « اذن، ففى وسعك أن تبادر بالانسحاب ياعزيزى .. اما هى ، فقد كانت تدرك مسلكها معك تمام الادراك ، واذا لم تكن قد عبثت معك، فهى خليقة بأن تعبث معسواك .. أليس هذاصحيحا ؟» .. واكتفى اسكادافال بأن راح يحرك يديه، وكأنه يقول : «هذا هو الحل الصائب ، وليس من الممكن ان يدلى احد برأىاكثر صوابا من راى بوريس ! »

ويلاحظ على هذه المناقشة ان الاصدقاء الثلاثة ــ وان كانوا قد عرفوا ان « روكبيكيه » كان يعامل « كاميل » بكل احترام ــ حرصوا على التظاهر بغير ماعرفوه ، حتى يظهروا امام الشاب بمظهر ذوى الخبرة والتجربة ، وحتى يتملقوا مشاعره .. على انه لم يلبث ان امتطى جواده ، وانطلق نحو (كليراك) ، دون أن تثنيه وعورة الطريق . وما ان اقترب من قصر والدته ، حتى شعر بالاضطراب وعرف انه مقبل على معركة حاسمة .. فقد اعتاد أن يخشى أمه الى أقصى حد . وفى الحق انها لم تكن رقيقة ، ولا حسنة المعاملة .. وقد أدرك الشاب انه يقف بين نارين .. فهو ــ من ناحية ــ قد يثير سخط أمه عليه ، ومن ناحية أخرى ، قد يضطر الى عدم رؤية كاميل بعد ذلك .. فهل كان هذا فى مقدوره ؟ .. لقد كان يشعر بأنه لن يقوى البتة على ان ينساها !

***

وأوقف الشاب جواده على ربوة مرتفعة ، وهو يلهث تعبا، ونظر خلفه فراى مدينة (تونيان) وقد تناثرت منازلها وكنيستها ومبانيها .. وتملك الفتى الاضطراب والتأثر ،

حين ذكر تلك الفتاة المعبودة ، التى يضمها منزل من تلك المنازل الصغيرة الممتدة أمام نظره ، وتذكر انه قد لا يراها بعد ذلك قط !.. وغمغم : « انها تحبنى ، وستموت حزنا لفراقى بكل تأكيد ! »

وما لبث ان استأنف سيره ببطء ، وهو يقول لنفسه : « هيا بنا ! .. سأتقدم بطلبى الى والدتى ، ولعلها توافق فى النهاية على الزواج ! »

(٢)

كان بين الواجبات التى يجب أن تؤديها مدام هوك — بوصفها زوجة لاحد رجال الدين — واجب تلقين الفتاة يوم زواجها مايسمونه « النصائح الاخيرة » . وكانت لها فيما يتعلق بتلك النصائح ، آراء غريبة . فهى لم تكن تؤمن بأن من الخير الفتاة أن تظل جاهلة بهذه الاسرار او النصائح حتى يوم زواجها .. اذ ان ذلك خليق بأن يجعل الفتاة — فى يوم الزواج — مضطربة ، عصبية المزاج يتنازعها خطيبها وصديقاتها وصانعة الملابس فلا يتسع وقتها لكى تستمع تلك النصائح الجليلة الشأن .. بل انها لا تكاد تفهمها اذا جلست والدتها تسر بها اليها وسط الجلبة والضوضاء .. وتكون النتيجة أن تنفرد الفتاة بزوجها عقب حفلة الزواج ، وهى جاهلة بكل شىء .. بل ان المعلومات غير الواضحة ، التى لم تستطع أن تستوعبها او تستجليها ، قد تضاعف من ارتباكها ..

وكانت زوجة الكاهن تقول دائما : « هذا عين ماجرى لى .. فان عمتى — لان والدتى كانت قد ماتت — أسرت الى بكل شىء أثناء الحفلة الراقصة الصاخبة ، التى أقيمت ليلة زفافى ! .. انفردت بى وراء احدى الستائر ، وكان موعد

سفرى بصحبة زوجى قد دنا .. وكان على مقربة من المكان الذى وقفنا فيه بعض رجال يلعبون ، فكنت أسمع أصواتهم - من وقت الى آخر - حتى اننى لم أفهم شيئا مما ذكرته لى عمتى ، أليس كذلك يا زوجى ؟ »

لذلك قررت مدام هوك أن تشرح لابنتها « مارت » كل مايتعلق بالزواج ، قبل حلول موعده بأسبوعين على الاقل . وحدث أن كان اليوم الذى حددته لتشرح لابنتها واجبات الزوجة ، هو عين اليوم الذى أقصى فيه الدكتور جوفر « روكبيكيه » من منزله . وظنت مدام هوك أنه ما دام « السيد » قد سافر ليطلب من والدته الموافقة على زواجه، فلا ريب انه لن يلبث أن يعود فى اليوم التالى ليطلب من الطبيب يد ابنته رسميا .. وسرها ذلك ، وأوحى اليها بأن من الممكن - بشىء من الالحاح على آل روكبيكيه - التعجيل بعقد الزواج ، حتى يتسنى الاحتفال بزفاف « مارت » و « كاميل » معا ! .. وتصادف - عندما سعت الى ابنتها « مارت » ، حتى تلقى عليها النصائح الزوجية الاخيرة - ان وجدت معها كاميل ، فسرعان ماخطرت ببالها فكرة جديدة .. فما الذى يمنع من أن تصارح «كاميل» أيضا بكل أسرار الزواج ؟.. أليست كاميل على وشك الزواج ، فحالتها مثل حالة ابنتها مارت ، مع فارق بسيط فى الزمن ؟ .. وأدركت أن فرصة مثل هذه لن تسنح لها بعد ذلك ، فأمسكت بذراع كاميل ، ودفعت بالفتاتين الى غرفة لم يكن بها أحد ، ودخلت معهما ، ثم أغلقت الباب باحكام .

وهكذا عرفت « كاميل » و « مارت » فى وقت واحد تلك الاسرار الجليلة الشأن .. وكان ذلك أشبه بنسمة من أنفاس المرء، تهب على ذلك الغبار الخفيف المنتشر على الفاكهة،

عند ما يقترب الفم ليقضمها .. ومن حق مدام هوك أن تعترف بما كان لها من خبرة غير عادية بمثل هذه التعاليم ، فقد كانت ماهرة فى اخفاء الناحية الحساسة من الموضوع تحت ستار عدة اعتبارات دينية ووالدية ، وهى تمثل لها بالنبات والحيوان حتى تكاد الفتاة ـ بعد أن تنتهى من سماع كل ما ألقى على مسمعها ـ تعتقد أن الرابطة الزوجية طقوس دينية، وان مخدع الزوجية معبد، وانها ستكون ـ وزوجها ـ من بين الضحايا التى تقدم على مذبح هذا المعبد !

واصغت الفتاتان الى مدام هوك ، وقد جلستا على مقعد طويل ، واشتبكت يداهما .. وكانت « مارت » تبتسم ـ بين وقت وآخر ـ ابتسامة ملؤها البشر والسرور ، فتبتسم أمها كذلك . أما « كاميل » فكانت ـ على العكس من ذلك ـ تزداد تضرجا وخجلا كلما تمادت « مدام هوك » فى حديثها . وقد اضطربت كثيرا لما سمعته عن الامور المجهولة . ولما كانت أقل ذكاء من « مارت » ، وأقل منها تعودا على الاستماع للاحاديث الدينية أو فهما لها ، فقد ظلت هناك أشياء لم تفهمها جيدا .. ومن جهة أخرى ، خيل اليها ـ فى تلك اللحظة ـ انها ترى بعينيها ما كانت تفهمه ، أو تظن أنها تفهمه ، فى الماضى !

وعند النهاية ، كان تأثر « كاميل » ـ مما سمعته من مدام هوك ـ قد وصل الى درجة كبيرة ، حتى لقد أحست بالحرارة تدب الى دمها ، وبدأت الكلمات تتسرب من أذنيها الى عقلها ، فيتردد لها صدى فى أعماقها مكررا : « أريد أن أتزوج ! » .. أما الشعور الآخر ـ الذى داخلها فى الوقت ذاته ـ فتمثل فى عاطفة نسائية خالصة ، اذ اعترفت لنفسها بأنها تتمنى ان يكون فى الوسع أن تسلم نفسها

لخطيبها دون أن يمسها فعلا .. ان تقدم له نفسها ، دون ان تكون مضطرة الى احتمال التصاقه بها أو اقترابه منها !

ولما انتهى درس الزواج ، تركت مدام هوك الفتاتين وحدهما ، وغادرت الفرفة . وما كادت تخرج ، حتى ارتمت «كاميل» على صدر صديقتها ، وأخذت فى البكاء . وابتسمت مارت وهى تقبل شعرها ورقبتها ، وقالت لها : « ماذا دهاك يا عزيزتى ؟ .. ليس هناك ما يزعج الى هذا الحد ، فأنت تعرفين ان كل الفتيات يسلكن هذا الطريق ! .. أؤكد لك أننى أشعر بالسعادة ، لانى سأتمكن من أن أهب بول شيئا فريدا ! .. وأنت ؟ ! .. الا تشعرين بشىء من الحب نحو المسيو هنرى ؟ » .. فأجابت كاميل : « بلى .. ولكن الا يمكن أن يتم زواج بغير هذه الطريقة ؟ »

***

وكان نومها فى تلك الليلة مضطربا ، تتخلله الاحلام التى يختلط فيها الجواب ــ المرتقب فى اليوم التالى ــ بالتفاصيل التى سمعتها من مدام هوك . وتذكرت فى الصباح انها حلمت بأن شخصا جاءها ــ بعد أن تم زواجها بمدة ــ وأخبرها بأن الذى تم لم يكن زواجا فى الحقيقة !.. وجلست ــ طيلة الصباح ــ مع مدام هوك وبناتها ، ينتظرن الجواب ، وقد توترت أعصابهن .. بيد ان الطبيب « جوفر » لم يلبث ان اقبل ، وصارحهن بأنه لم يكن ينتظر شيئا ، وأن المسألة قد انتهت ، وأنه مستريح اذ تخلص من ذلك الاحمق «روكبيكيه» !

وعند الساعة الرابعة ــ من بعد ظهر ذلك اليوم ــ وصل موزع البريد ، يحمل خطابا عليه طابع (كليراك) ، وقد سجل فيه روكبيكيه ــ فى كلمات موجزة متكلفة ــ ان بعض مهام عائلية استدعته الى باريس ، وانه لم يكن يعلم موعد عودته

.. واحتتم اعتذاره بأن سأل كاميل ألا تحمل له حقدا بسبب فراق لم تسببه غير قوة الظروف ! .. والواقع ان أمه ـ مدام روكبيكيه ـ كانت امرأة خبيثة . وكانت قد سمعت ، من قبل ، عن علاقته بكاميل، فاتخذت عدتهالتصده عن هذا الزواج .. وما ان فاتحها ، حتى قطعت عليه حديثه، وخيرته بين أمرين : اما حرمانه من المرتب الذى كانت تمنحه اياه ، واما ان يسافر الى باريس فى الحال ، ليتلقى هناك شيئا من العلم .. وتعهدت بأن ترسل له ألف فرنك فى كل شهر ، لتساعده على نسيان حبيبته .

ولم يكن فى الصفقة اى غبن له .. لذلك لم يلبث أن قبل ماعرضته والدته ، بعد معارضة ضعيفة مصطنعة . ولما كانت « مدام روكبيكيه » تعرف تأثير الاسفار على الحب ، فقد اخذت تتعجل رحيل ابنها ، فلم تكد رسالته تصل الى المنزل المنعزل ، حتى كان هو قد وصل الى باريس فعلا ، وهو مسرور بحظه ، مزهو بوفرة ما كان فى جيبه من مال .. واذا كان قد شعر عند سفره بشىء من الحزن لفراق كاميل، فان هذا الحزن راح يتبدد كلما ازداد عدد الكيلومترات التى تفصله عنها .

وضحك « جوفر » وهو يقرأ الخطاب ، الا انه حين رأى الدموع تملأ عينى « كاميل » ابنته، بادر فحملها بين ذراعيه، وسار بها الى غرفتها ، فأسلمها الى فراشها ، وغمرهابسيل من ضماته وقبلاته الرقيقة .. ولم يكن هناك مايؤثر على نفس « كاميل » قدر هذا العطف الابوى ، لان اباها نادرا ما كان يوليها شيئا منه ، بل انها كانت تشعر نحو أبيها برهبة وخوف ، فى بعض الإحيان . ولما كانت تثق فى والدها ثقة مطلقة ، فقد آمنت بصدق ما سرده على مسامعها عن أخلاق « روكبيكيه » وسيرته ، وما لبثت أن أحست بانقلاب

فى عواطفها ، وبأنها لم تعد تحبه .. وكان هذا الشعور وليد كبريائها قبل أن يكون منبعثا من قلبها .. فقد جربت - فى هذه المغامرة الاخيرة - سحر جمالها ، وعرفت انها لم تكن ضحية مزاحمة بزتها فى الجمال ، وانما كانت ضحية المصلحة المادية !

وعندما أقبلت « مدام هوك » وبناتها الثلاث ليواسين الفتاة ويخففن عنها ، كان الجرح قد اندمل .. ولكنهن لم يقتنعن بالهدوء الذى ظهرت به « كاميل » ، فأحطنها بكل أنواع العطف ، لانهن كن يعرفن حقيقة حزنها . وقالت لها زوجة رجل الدين : « لسوف أعثر لك على زوج آخر .. فى أى يوم شئت .. فمتى كانت المرأة جميلة مثلك ياعزيزتى ، لن يتردد الرجال فى السعى الى طلب يدها ! » .. ولم ينقض أسبوع واحد ، حتى كان كل أثر للصدمة قد زال ، مما أثار دهشة مدام هوك وبناتها ، وكدن يعجزن عن فهم فؤاد «كاميل» .. على انه لم تتح لهن رؤية تلك الحيوية المشبوبة التى كانت تندلع فى نفس الفتاة - عندما كانت تخطر لها فكرة الزواج القريب .. كانت الثورة قد أخذت تشتعل فى ذلك الشباب الذى قضى عليه أن يظل دون زواج ، مضطرا الى المحافظة على طهره ، بعد أن عرف كل شىء عن الحب .. كانت الانفعالات والخواطر التى أثارها اطلاع الفتاة على أسرار الزواج ، تزعجها الى درجة تعجز معها عن الاعتراف بها لنفسها ، فكيف كان يمكنها أن تصارح بها أى شخص آخر ؟ !

وكانت كل هذه المشاعر فى حاجة الى ما يغذيها ، كما يمر الجائع أمام واجهات المطاعم ، ينظر بنهم الى ما تعرضه من أطعمة .. وعلى هذه الحال ، اشتركت كاميل فيما كان يتخذ من استعدادات لزواج « مارت » .. ولم تكن الفتاتان

.. ورأت ((بول)) وقد انحنى الى الارض فى غرفة الاستقبال ، وأمسك بقدم ((مارت)) ـ وكانت جالسة على مقعد قريب ـ ثم خلع حذاءها ، وقبل طرف قدمها .. (انظر صفحة ٨٤)

تفترقان .. أفلم تكن تجمعهما رابطة وثيقة ، هي تصريحات «مدام هوك »وما أدلت به اليهما من أسرار الحياةالزوجية ؟! .. وكانتا - اذا أضناهما العمل - أسرعتا الى الحديقة . وقد طوقت كل واحدة منهما خصر الاخرى بذراعها، وسارتا فى تؤدة ، تقترب رأساهما - أحيانا - فتضحكان ضحكة قصيرة ، وتميل كل منهما على الاخرى - فى أحيان أخرى - وهما تتحدثان عن يوم الزواج ، وليلته .. وكانت كاميل تقول لمارت : « ستحدثينني عن كل شيء ، أليس كذلك ؟.. اقسمى ! » .. ووعدتها « مارت » ، المرة تلو الاخرى . واتفقتا على أن تكتب لها كل شيء ، اذ كانت العروس ستقضى تلك الليلة بالقرب من المنطقة الجبلية ، بعيدة عن مدينة (تونيان) .. وتعهدت « كاميل » - من ناحيتها - بأن تحرق الخطاب بمجرد أن تفرغ من قراءته !

وتحول الحديث - بعد ذلك - الى النظريات المختلفة فى الزواج ، والى واجبات المستقبل .. ومن الصحيح ان كل الناس يهتمون بهذه الموضوعات ، ولكن الفتيات الكبيرات يشعرن بمتعة كبيرة فى معالجتها فيما بينهن ، كما كانت تفعل « مارت » و « كاميل » !

***

ولم يصل « بول دلكومب » الى (تونيان) الا قبل حفلة الزواج ببضعة أيام .. وبمجرد وصوله ، لم تعد « كاميل » تجد رفيقا لها غير « برت » و « مارى » .. وراحت تراقب الخطيبين مراقبة دقيقة ، لاسيما فى تلك اللحظات التى كانا يظنان فيها انهما منفردان بنجوة عن أعين الرقباء ، فيتبادلان قبلات طويلة ! .. وفى ذات مرة ، رأت « بول » وقد انحنى الى الارض فى غرفة الاستقبال ، وأمسك بقدم مارت - وكانت جالسة على مقعد قريب - ثم خلع حذاءها ، وقبل

طرف قدمها .. وما لبثت شفتاه ان راحتا تتحركان الىأعلى الساق رويدا .. أما « مارت » ، فقد احمر وجهها، وأغلقت عينيها وكأنها فى غيبوبة نشوانة فقدت فيها كل قوة على الحركة !

وشعرت كاميل – وهى تشهد هذا المنظر – أن قلبها قد امتلأ بعاطفة قوية ، لم تملك لها تفسيرا ، فابتعدت عن المكان مسرعة ، بعد أن تعمدت أن تحدث حركة بسيطة ، نبهت الخطيبين من نشوتهما !

واتفق الجميع على أن تنتقل الاسرة مع العروسين الى المنطقة الجبلية الجنوبية ، عقب حفلة الزفاف . وتأهبت مدام هوك لمغادرة منزلها – فى هذه المرة – دون أسف ، فقد عثرت على شخص يرغب فى استئجاره طيلة غياب الاسرة عنه . وكان هذا الشخص ضابطا من فرقة المدفعية ، اوفد الى تلك المنطقة فى مهمة عسكرية ، ولم يشأ أن يقضى فى الفندق الا أقل مدة ممكنة ، فلما سمع عن منزل الكاهن ، كتب يعرض أن يستأجره .

واهتمت « برت » و « مارى » بأمر هذا الضابط الغريب، بمجرد سماعهما عنه ، فتساءلت احداهما : « وما اسمه ؟ » .. وأجابت الام : « جيروم جياكوميتى »

– اهو ايطالى الجنس ؟

– لا ، فكيف يتفق ذلك مع كونه ضابطا بالمدفعية ؟ .. يبدو انه كورسيكى الاصل !

وسألت برت : « وهل هو متقدم فى السن ؟ »

فأجابت مدام هوك : « لست أدرى » .. ثم التفتت الى زوجها متسائلة بدورها : « أهو ضابط صغير يا زوجى العزيز ؟ » . فابتسم الكاهن وهو يجيبها : « هناك ضباط من كل سن .. من الخامسة والعشرين حتى الخمسين ! »

وحاولت الفتيات عبثا رؤية الضابط فى الايام التالية . وقبل الزفاف بيوم واحد ، قررت مدام هوك أن من الافضل للعروسين أن يقضيا الليلة فى منزلها ، حتى لا يصيبهما الاعياء الشديد اذا سافرا فى اليوم ذاته ، وبعد حفلة الزفاف وما يتجشمان فيها من متاعب .. بيد ان عقبة قامت فى طريق ذلك ، فان الضابط « جياكوميتى » كان قد أرسل خادمه ، واتفق مع أسرة الكاهن على الانتقال للمنزل فى اليوم ذاته .. لذلك لم يكن ثمة بد من أن يطلبوا السماح لهم بقضاء يوم آخر بالمنزل .. ولم تكن « مدام هوك » راغبة فى اغضاب مستأجر لم تكن تتوقع العثور على بديل له، ومن ثم ذهبت اليه بنفسها ـ فى الفندق ـ لتستأذنه فى الامر !

ولما عادت ، كانت بناتها ينتظرنها بنافذ الصبر ، حتى مارت ! .. وأخذن يسألنها عن الضابط ، فأجابت : « انه لطيف جدا .. وليس متقدما فى السن بالمرة ، بل انه أسود الشعر .. وان لم يكن غزيره ! »

ـ وهل دخلت الى غرفته ؟

ـ لا ، بل طلبت رؤيته فى غرفة الاستقبال ، بالطابق الاول من الفندق . فحضر لرؤيتى بلباسه الرسمى .. وهو أسمر اللون ، ضيق العينين، لامعهما الى درجة كبيرة .. وهو قوى الجسم ، وان كان قلة فى القوام !

وكانت « كاميل » تستمع الى هذه التفاصيل باهتمام .. كما راحت « مارى » و « برت » تصغيان الى كل كلمة ، وقد لاح لهما ـ فى ذلك الضابط الغريب ـ زوجا محتملا لواحدة منهما ، حتى ان مارى لم تتمالك ان تمتمت بصراحة ساذجة : « مما يؤسف له ألا نتمكن من البقاء معه هنا سوى مدة قصيرة ، بسبب سفرنا ! » . فابتسمت مدام هوك ،

وقالت : « هــذا عين ما خطر لى ، فرأيت ان من الخير ان نتعرف اليه ، ولذا دعوته الى حفلة الزفاف ، فى الغد ! »

وصفقت الفتــاتان فرحا حين سمعتا هــذا الخبر ، وصاحت احداهما : « مرحى ! .. وهل قبل الدعوة ؟ » . فأجابت أمهما : « نعم .. لقد اعتذر فى بادىء الامر ـ طبعا ـ ولكننى أخبرته ان الشبان قليلو العدد فى الحفلة ، وان لدينا فتيات كثيرات ، فقبل الدعوة أخيرا ، ووعد بالحضور ! » . وهنا هتفت مارى : « ترى من التى تستأثر به .. اننى أريده بكل قلبى ! » . فقــالت أمها : « بل يجب أن تلازمى شقيق بول ، بوصفك من وصيفات الشرف .. وفى وســع « كاميل » أن تلازم الضــابط ، وسيكونان زينة وبهجــة للحفل ، برغم انه أصغر حجما منها ! »

وانقضى النهار التالى فى اعداد الغرفة التى كانت «مارت» تنام فيها ـ من قبل ـ وتزينها .. وأخذت « كاميل » تفتقد صحبة صديقتها ، وهى بعد لما تفارقها ، وتشعر بشىء من الاسى .كلمــا خطر لها انه كان من المحتمــل أن تنهمك هى الاخرى ـ فى ذلك اليوم ـ فى التأهب للزواج ، لو أن الامور سارت فى مجراها الطبيعى .. وليس هنــاك ماهو أفعل فى نفوس العذارى ، من رؤية الاستعدادات لحفلات الزفاف ، فكثــيرا ما راحت كل من « مارت » و « برت » ترتمى بين ذراعى الاخرى .. وأخذت « برت » تبكى ، وهى تردد : « سأنام وحدى بعد اليوم .. لا ، لا ! .. لن أتمكن من النوم وحدى .. مارى ، هل تنامين الى جانبى ؟ » . فكانت مارى تضحك ببساطة ، وتقول انها تعودت أن تنام وحدها ، وان وجود «برت» الى جوارها كفيل بأن يزعجها ويحرمها النوم !

***

وفى صباح اليوم التالى أخذت كاميل تساعد العروس على ارتداء ملابسها .. ولما رأت « مارت » ـ فى النهاية ـ وقد ارتدت كل ملابسها الناصعة البياض ، وتبدى نحرها وذراعاها عارية ، اضطربت لفكرة مرت برأسها . فقدتذكرت المنظر الذى رأته منذ أيام قلائل ، حين كان « بول » يقبل « مارت » .. وجمح خيالها ، فصور لها مارت فى ذلك المساء ، وقد تجردت من كل ملابسها ، و « بول دلكومب » عند قدميها !

وكان جميع المدعوين قد حضروا ، كما حضر الضابط «جياكوميتى» مرتديا ملابسه العسكرية ، ومتحليابأوسمنه، فأثار مروره فى الشارع الرئيسى من القرية اهتمام الناس ، وتبعه عدد من الغلمان مسافة طويلة وهم يطيلون النظراليه، وقد ألجم ألسنتهم الاحترام الذى داخلهم نحوه .. حتى اذا دخل منزل القس سار متمهلا ، ثم اتجه صوب « مدام هوك » وحياها باحناء رأسه، فصافحته ، وقدمته الىزوجها والى بعض المدعوين ، ثم الى أحد رجال الدين ، والىالطبيب « جوفر » .. وسارت به ـ بعد ذلك ـ الى « كاميل » ، وهى تقول : « سيدى الضابط ، هل لك أن تقدم ذراعك الى « مدموازيل جوفر » ، ابنة الطبيب الذى ستصبح جارا له منذ الغد ؟ »

وحيا جياكوميتى « كاميل » ثم أخذ يطيل النظر اليها ، فتضرج وجهها تحت تأثير نظرته الطويلة ، التى خيل اليها انها كانت تنفذ الى أعماق جسدها ، فترسل رجفة فى أطرافها ، وكأنها عناق خفى .. وكانت هى وحدها ، بين المدعوين ، التى لاحظت تلك الجذوة التى اتقدت فى عينى

الضابط .. وكانتا عينين يمكن للمدقق أن يقرأ فيهما انهما لرجل أحبته كثيرات من النساء ! .. ودون أن يتفوه بكلمة، قدم ذراعه الى « كاميل » ، وقادها الى العربة التى اقلتهما الى الكنيسة . على انهما لم يكادا يبلغانها ، حتى افترقا . فقد جلست السيدات فى الجانب الايمن ، وجلس الرجال فى الجانب الايسر .. ولكن المصادفة وضعت مقعد « كاميل » مواجها لمجلس جياكوميتى ، فكانت كلما رفعت عينيهاوجدته يرمقها بتلك النظرة الحادة، التى تسبب لها اضطرابا نفسيا .

ولما انتهت الحفلة ، عاد الجميع الى منزل آل هوك ، ورفع الحاجز بين الحديقتين ـ حديقة جوفر وحديقة هوك ـ وأقيم الحفل فيهما، بين الازهار . ولم يفترق بول عن مارت طيلة تلك المدة . وبعد أن تبادل « جياكوميتى » بضع كلمات مع « كاميل » ، غادرها ليلحق بالطبيب ، وراح يجاذبه الكلام ، حتى عرف ان أم ابنته الحسناء كانت ايطالية .. وكذلك كانت أمه ، كما قال للطبيب . وأخذ الاثنان يتحدثان عن ايطاليا الجميلة ، حيث قضى الضابط مرحلة طفولته ، وحيث رأى « جوفر » ـ من قبل ـ نور الشمس فى عينى ياسمينه .. حتى اذا مد العشاء ، جلست كاميل الى جانب جياكوميتى . وحاول ـ فى مبدأ الامر ـ ان يتحدث اليها ، فأطرى جمال العروس مارت وبهاء الحفلة .. وارادت ان ترد عليه ، فتمتمت ببضع كلمات ، بصوت مضطرب ، اذ أن كل ماانتابها من عواطف ـ طوال النهار ـ سبب لها انفعالا عصبيا .. وكم تمنت ـ اذ ذاك ـ ان تغادر كل المدعوين وتهرب الى غرفتها ، وتبكى حتى تفرغ كل ما يملأ قلبها من هموم عن طريق عينيها .. ففى تلك الظروف يكون تأثر المرأة بالغا أقصى نهايته ، فتتعرض لاقسى المؤثرات والافكار ، دون أن تجد سندا تعتمد عليه .

وأخذ جياكوميتى يراقبهـا بعين متفحصـة ـ للحظات قصيرة ـ ثم كف عن محادثتها حتى نهاية المأدبة . واذ غادر الجميع المائدة ، انتقلوا الى الفندق ، حيث بدأت الحفـلة الراقصة .. وعند منتصف الساعة الحادية عشرة ، انسحب العروسان من الحفلة ، وتبعتهمـا مدام هوك ، بينما بقيت « كاميل » و « مارى » و « برت » .. وراقصهن الضابط تباعا ، ولكنه آثر « كاميل » بالقسط الاوفر من صحبته .. وكان مسرورا ، منشرحا ، ولكنه لم يتعد حدود اللياقة .. فاذا ما شغلت « كاميل » بالرقص مع غيره ، كان يسعى الى الطبيب ليحـادثه .. وارتاح جوفر الى حديثه ، فكان يود أن يطيل منه ، ولـكن الضـابط كان يتركه ـ عندما تبدأ الموسـيقى فى عزف لحن جديد ـ ليأخذ « كاميـل » بين ذراعيه ، ويرقص معها .. وكانت الفتاة تترك له قيادها ، وتستكين الى ذراعيه وقد شحب وجهها ، واضطربت نفسها .. وكثيرا ما كانت حركاتها ترتبك ، اذ كان يخيل اليها انه يضمها اليه بطريقة تختلف عن طريقة الرجال الآخرين الذين راقصوها من قبل !

وأخيرا ، خلا الفندق من المدعوين ، فسـارت الفتيـات الثلاث ـ كاميل ومارى وبرت ـ فى المقدمة ، وتبعهن الكاهن هوك والطبيب جوفر والضـابط جياكوميتى ، الذين كانوا يسيرون بخطوات بطيئة ، وقد اشتبكوا فى جدل علمى .. وأمام المنزل المنعزل ، تبادلت الفتيات القبلات ، وتفرقن .. الا ان الطبيب دعا الكاهن والضابط الى دخول منزله ريثما يفرغوا من موضـوع النقـاش الذى دار بينهم ، برغم تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

وشـغل الرجال الثـلاثة بالحـديث والشراب ـ داخل الدار ـ فلم يفطنوا الى ان « كاميل » كانت تجلس صامتة ،

شاردة البال ، نافدة الصبر .. وما لبث جياكوميتى ان تهيأ للانصراف ، فنهض القس بدوره ، وتأهب لينفذ الى داره عبر الحديقة .. وشاء الطبيب ان يرافقه ، فوكل أمر جياكوميتى الى ابنته قائلا : « اذهبى يا كاميل ، فافتحى للضابط الباب المؤدى الى الطريق ، فهو لم يألف طريقة فتحه ! » .. وهم الضابط بأن يعترض ، ولكن « كاميل » كانت قد سعت الى الباب ، مضطربة الفؤاد ، وقد جمد الدم فى عروقها ، وكأنما كانت غريزتها توحى اليها بحدث وشيك الوقوع !

وقال « جياكوميتى » بصوت عال ، اذ بلغ الباب الذى فتحته له : « شكرا يا آنستى ، ومعذرة لازعاجك ! »

ثم وقع الحدث المرتقب ، فجأة .. فبحركة سريعة ، مد الضابط ذراعيه ، فاحتواها بينهما ، وضمها اليه بطريقة مثيرة ، لاتنم عن براءة قصده . وطبع على شفتيها قبلة !

٣

أسرعت كاميل الى غرفتها ــ بعد المفاجأة التى حدثت لدى الباب الخارجى ــ تحتمى بها وقد كاد رأسها يشتعل بالحرارة ، واضطربت جوارحها ، وخيل اليها أن مطرقة حادة تنزل على رأسها فتملأه بالحرارة والدم . وخلعت ملابسها ، واستلقت على فراشها دون أن تحاول تهدئة أعصابها وأخذت عيناها تتطلعان ــ فى ذلك الظلام السائد ــ الى رؤى غريبة ، مختلفة ، كأنها اشباح تتحرك فى الظلام .. ثم ، اثقل الوسن العينين المرهقتين ، فانقذ « كاميل » من اضطرابها ، واسلمها الى سبات عميق .

ولما استيقظت ، كان النهار قد تأخر .. وعادت اليها

ذكرى قبلة الامس ، فاختلج جسـمها ، وشعرت كأن تلك القبلة لا تزال تلهب شفتيها وتؤثر فيها .. ثم تلاشى ذلك الاثر، ليحل محله أثر آخر، فداخلها شيء من الالم ، وانبثقت الدموع ــ دموع الضـعف والذلة ــ من عينيها ، وتمتمت تقول : « يااللبائس التعس !..ماذا يحسبني حتى يعاملنى هذه المعاملة ؟ » .. وأخذت تؤنب نفسها بقسوة لانها تركته يفعل بها ما شاء ، دون أن تدافع عن نفسها بحركة أو صيحة .. بل انها لم تسرع لاخبـار والدها بما حدث ، بعـد أن رحل جياكوميتى وغادرها . أية قوة خفية تسلطت عليها فى ذلك الوقت فسلبتها ارادتها !

وكانت قد اعتزمت ــ عند استيقاظها ــ أن تقص كل شيء على والدها ، ولكنها ــ حين فكرت فى العواقب ــ ارتعدت لما قد يترتب على هذا العمل .. أفلم يكن من الواجب عقب ذلك أن يبارز والدها الضابط ؟.. واذا قتله الضابط، فماذا يكون من شـأنها ؟ .. وكيف تكون حالهـا ازاء الضـجة والاشاعات التى تنتشر بعد ذلك فى المدينة ؟ .. ثم ان هذا كله ، لن يمحو عار القبلة التى طبعها ذلك الفم على فمها .. اذن فليظل الامر سرا تحفظه هى وحدها وستنساه بمرور الايام ، بل انها ستحاول دائما الا تسـتعيد ذكراه ! .. ثم قالت لنفسها : «ولن ارتضىأن يعود هذا الضابط جياكوميتى الى زيارتنا مرة أخرى ! »

ولما ارتدت ملابسها ، نزلت الى الحديقة . وكان جوفر قد سبقها اليها ، فسمعته يحادث شخصا ..وما لبثت أن سمرتفى مكانها عند باب المنزل، لفرط ما اعتراها من غيظ ، اذ كان « جياكوميتى » قد نفذ من حديقة المنزل المجاور ، ووقف يحادث الطبيب !

وتقدمت « كاميل » ــ مضطرة ــ وقد امتلأت نظراتها

بالاحتقار ، فقبلها والدها على خديها وهو يقول لها بعطف : « أهكذا أيتها الكسول ؟ .. لقد تركت آل هوك يرحلون عن المدينة دون أن تعنى بوداعهم . الا تعلمين أن الساعة بلغت الثانية عشرة ؟ » . فأجابته متعللة بأنها كانت متعبة ، وردت تحية جياكوميتى فى غير احتفال ، ثم راحت تعبث بورقة من أوراق الشجر ، فواصل الرجل حديثه مع والدها دون أن يعتريه أقل خجل أو حرج . ودهشت « كاميل » لذلك الثبات الغريب ، حتى لقد اوشكت أن تخال ان حادث الامس لم يكن سوى حلم صوره لها التعب ! .. ولكنها استبعدت ذلك، فان القبلة تركت أثرا كانت تجهله فى الماضى، ولم يكن فى امكانها ان توحى به الى نفسها .. ومن ثم فلا بد ان الحادث وقع فعلا ! .. ومع ذلك ، فقد تجرأ الرجل على العودة الى المنزل ،وقد استقبله والدها !

وغادرهما الضابط ليقوم بعمله ، بعد أن اخبرهما انه سيذهب عن طريق النهر .. وعندما جلست « كاميل » وابوها الى المائدة ، تحدث الدكتور جوفر طويلا عن جياكوميتى ، وقال عنه : انه ماهر فى المناقشة والفلسفة ، وله آراء خاصة فى موضوعات كثيرة . فتمتمت : « انه لا يعجبنى ! » .. واذ ذاك رمقها جوفر بنظرة متسائلة . وكم كانت ترغب ــ فى تلك اللحظة ــ ان تصيح باعلى صوتها : « لقد اهاننى ! » .. ولكنها لم تدر ما الذى أوقف هذه العبارة فى حلقها ، واكتفت بأن قالت : « لسوف انسحب كلما جاء ! » . فهز الطبيب كتفيه ، وقال : « هذا عجيب .. فكل مناقشة جدية لا تروق لك وتضايقك ! » . وما ان سمعت كاميل هذا التأنيب حتى اتسعت حدقتاها . ورأى جوفر انها تكاد تبكى ، فقام من مقعده وقبل وجنتيها قائلا : « لا تبكى يا عزيزتى كاميل ، وأرجو الا تظهرى عدم رضائك

لجياكوميتى ، اذ أننى سوف استثقل الليالى بعد رحيل آل هوك ، وفى وسعه أن يسلينى قليلا » .

ولم تعقب كاميل ، ولكنها شعرت بأن تردد جياكوميتى سيضايقها ، وانها يجب أن تحول دون حضوره ، بأن تقص على والدها نبأ الاهانة التى لحقتها ولكنها توقفت عن الاعتراف مرة أخرى ، اذ عرفت ان ارجاءها الاعتراف بما وقع – كل ذلك الوقت – سيظهرها بمظهر الشريك .

ولما انتهى تناول الطعام انسحب جوفر الى غرفته ، وهو يشعر بشىء من الالم .. وكذلك كاميل عادت الى غرفتها ، وامسكت بقطعة من القماش تحاول التطريز ، ولكنها كانت تغفلها من حين الى آخر ، فتكف عن التطريز لتستغرق فى أفكارها .. ونظرت الى النهر من بعيد ثم قالت لنفسها : « لابد انه هناك الآن .. ترى هل يفكر فيما ارتكبه بالامس ؟ ! » . واذ استعرضت فى ذاكرتها ما وقع منه ، بدا لها الحادث فظيعا مرعبا ، لم تكد تصدق أن الضابط الشاب يقدم عليه ، ولم تجد له غير تعليل واحد ، هو تأثير ما شرب من خمر فى حفلة الزواج !

وفكرت لحظة فى هذا التعليل ثم اهملته .. كلا ! ان جياكوميتى لم يكن ثملا ، فهو لم يشرب – أثناء الحفلة – غير القليل من الخمر ، ويكاد يكون هو الوحيد الذى احتفظ بوقاره ، الى جانب الطبيب والكاهن ، اذ أن ثلاثتهم لم يتمادوا فى الشراب . ولذا فكرت كاميل فى نفسها ، قائلة : « لا سبيل الى أن التمس له عذرا ، فهو قد فكر فى الاعتداء سلفا ، والا لما ظل يحدق فىَ طول اليوم . وبأية نظرات ! .. لماذا كان ينظر الىَ بذلك الشكل ؟ .. انه لم يكن يوجه الى « مارت » أو « برت » مثل تلك النظرات التى وجهها الى ..! »

***

وما لبثت هذه الفكرة ـ وهى انها وحدها التى تمكنت من ان تجتذب نظر الضابط الغريب ـ أن ادخلت شيئا من الزهو الى قلبها .. ومر بخاطرها ان جمالها غير العادى كان خمرا قوى الاثر ، يشربه كل من ينظر اليها بعينيه فلا يلبث أن يفقد صوابه وعقله ، وان ذلك هو السر فى العمل الجنونى الذى ارتكبه جياكوميتى فى اليوم السابق ، عندما اتيح له الاختلاء بها ، فهو ـ برغم قوة ارادته ـ قد فقد شعوره للحظة .. وقالت كاميل تحدث نفسها ، وهى تشعر بفخر لم تشأ أن تعترف به لنفسها : « ومع ذلك فان جياكوميتى ليس رجلا من السوقة ، وانما هو رجل عاش فى بلدان كثيرة غير (تونيان) ، ورأى كثيرات من النساء ! »

واستعرضت ـ فى تلك اللحظة ـ حياة الضباط الملأى بالحوادث الغرامية والوقائع الحربية ، كما تتصورها فتيات الريف دائما .. ثم ساءلت نفسها ، ولما تستقر افكارها بعد الى شىء معين : « أتراه يحبنى ؟ »

وهنا تعن للكاتب ملاحظة جديرة بالذكر ، فان الفتيات الصغيرات ، قليلات التجربة ، يخلطن دائما بين من يرغب فيهن ومن يحبهن ، فالرغبة والحب ليسا ـ لدى قلوبهن ـ الا شيئا واحدا .. وليس يهمهن من الامر سوى أن يحببن وأن يكن محبوبات .. وهن يعتقدن أن ذلك هو مبدأ الرجال أيضا .. ولابد للفتاة منهن من ان تمر بتجربة قاسية ، حتى تنزع من عقلها هذه الفكرة الخاطئة ، وتثوب الى رشدها !

وخلصت « كاميل » ، بعد طول التفكير ، الى النتيجة الآتية : « انه يحبنى ! .. لقد احبنى منذ رآنى ! .. والآن ماذا ينتوى ان يفعل ؟ .. أيطلب الزواج منى ؟ »

هاتان الفكرتان ـ الحب والزواج ـ تمتزجان معا فى خيال الفتاة الطاهرة الساذجة فلا تكاد تفكر فى احداهما ، وهكذا انتهى حلم «مدموازيل جوفر» الى الزواج من الضابط جياكوميتى . ولكن كبرياءها ثارت عندما مرت بخاطرها ذكرى الاهانة التى لحقتها منه بالامس ، وصاحت فى نفسها : « يتزوجنى ؟ !.. كلا ، ابدا ! .. لن اراه مرة ثانية ، واذا عاد الى هذا المنزل فسوف ألجأ الى غرفتى ، حتى لا التقى به ! »

وأخذت تذكى فى نفسها ذلك الغضب الذى كانت تشعر به فى الصباح .. ولو انها استطاعت البكاء ، لاعانها ذلك على أن تسترد شيئا من هدوئها . ولكنها لم تتمكن ، فأدركت ـ دون ان تعترف لنفسها بذلك ـ أن الجرح الدامى فى قلبها ، الذى خلفه تصرف جياكوميتى بالامس ، قد خف المه ، واصبح أقل احساسا مما كان . وخرجت من غرفتها وهى غير راضية عن نفسها ، ودخلت غرفة والدها الطبيب .. وكان يقرأ ، وقد أسند قدميه الى مقعد آخر فقبلت جبينه عند مفرق شعره .. وابتسم « جوفر » دون أن تفارق عيناه الكتاب الذى كان يقراه .. ثم ذهبت « كاميل » الى الحديقة ، وقد شعرت بالسرور والابتهاج بعد هذه القبلة ، واحست أن احزانها قد انكمشت .. وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، فداخلت الفتاة راحة وهناءة ، وهى تجول بنظراتها فيما حولها ، وتسرح بصرها عبر حديقة الضابط « جياكوميتى » الى الإفق ، الذى لاحت عنده غابات الصنوبر ..

وتأملت الفتاة جمال الطبيعة ، ثم رفعت عينيها فرأت نقطة بيضاء بعيدة ، عرفت أنها بعض الثلوج التى تغطى قمم حتى تخطر لها الاخرى ، فليست تملك أن تفصل بينهما ! ..

الجبال. وذكرتها الثلوج والجبال بصديقتها «مارت» التي غابت عن بالها طيلة ذلك اليوم .. كانت « مارت » هناك ، في تلك المنطقة الجبلية في الجنوب .. ولابد انها لم تعد عذراء .. اصبحت امرأة ! .. ولا ريب في ان بول دلكومب قد تمكن من ارضائها ، واشبعها قبلات مثل تلك القبلة التي تلقتها بالامس من جياكوميتي ، اللهم الا اذا كانت مثل هذه القبلة محرمة .. حتى على الازواج !

واذ بلغت أفكارها هذا الحد ، شعرت الفتاة بشيء من الانفعال والقلق ، واحمر وجهها .. ثم غشيها شعور مبهم ، وكأنها تنتظر وقوع ما يكمل حوادث الامس .. ولو انها تمكنت من قراءة ما خالج نفسها ـ في ذلك الوقت ـ لأدركت انها ما كانت تود أن تقف التطورات عند المرحلة التي وصلت اليها .. حتى لقد بات عليها أن تفكر في سبب تعلل به لنفسها بقاءها في الحديقة ـ بعد العشاء ـ وقد كانت تعلم أن جياكوميتي سيحضر لزيارة والدها .. وقالت لنفسها في النهاية : « لست أود أن يظن انني أخشاه ! »

***

وكان الدكتور جوفر يجلس بجانب ابنته في الشرفة المطلة على الحديقة ، وقد مد احدى قدميه ، حين ظهر الضابط من الجانب الآخر من حديقته ، فناداه الطبيب : « تفضل يا سيدي الضابط لتقص علينا نبأ ما قمت به في مهمتك الصباحية ؟ »

وكان الضوء كافيا لكي تميز « كاميل » ملامح الضابط .. فلما اقترب منهما ، احست بأن كل الثقة التي كانت تملأ نفسها قد تبددت ، وانها كما كانت بالامس تماما .. تشعر بنظرات الضابط كما لو انها كانت تنفذ الى أعماق

جسمها ! .. على أنه لم ينظر اليها الا لحظة قصيرة ، ووجه اليها بعض عبارات الاحترام المناسبة ، ثم اخذ يتحدث الى والدها .

وكانت كاميل قد تقهقرت بمقعدها ، وأخذت تستجمع ارادتها تدريجا ، حتى استطاعت ان ترفع بصرها الى الضابط ، وكانت قد سمعت القوم يتحدثون عنه بالامس ، فيطنبون فى ذكر جماله .. ولكنها حاولت ـ طوال ذلك اليوم الذى اوشك على الانتهاء ـ أن تتذكر ملامحه ، فلم تتمكن ! .. اما الآن ، فقد راحت تتأمل باهتمام ملامح ذلك الوجه النشيط ، الذى كان من الصعب على الانسان ان يدرك شيئا عن صاحبه ، مهما أطال النظر اليه .. وعندما انحدرت نظرات كاميل الى شفتيه ، شعرت برعدة تسرى فى جسمها !.. فقد كانتا رفيعتين ، دقيقتين ، لا تحركهما الكلمات الا حركة بسيطة ! .. لقد وضع شفتيه هاتين على فمها ! .. وتساءلت مرة أخرى : « ترى هل كان هذا صحيحا ؟ .. ولماذا يبدو لها هذا الحادث الآن فظيعا ؟ »

وما لبث الظلام أن ساد المكان . ولم تكن الليلة قمرية ، فأصبح من الصعب تمييز الاشياء ، ولو عن قرب .. وحوالى الساعة العاشرة ، استأذن الضابط فى العودة قائلا : « اسمح لى يا سيدى الطبيب بأن أغادرك مبكرا ، فانني مضطر الى ان أستأنف مهمتى فى الغد ، مما يستدعى أن ابكر فى الاستيقاظ » ، فمد اليه الطبيب يده ، وهو يقول : « وأرجو أن تلتمس لى العذر بدورك ، اذا لم أتمكن السير معك حتى باب الحديقة ، لألم فى ساقى » .... ثم نظر الى ابنته وقال لها : « هلا فتحت الباب للضابط يا كاميل ؟ ! »
ونهضت كاميل وتقدمت الضابط وهى تفكر فى نفسها

قائلة : « لسوف يكرر ما فعله بالامس .. اننى واثقة من ذلك ، واثقة ! .. ومع ذلك فانى أذهب معه ! » .. واشتد اضطرابها الى درجة عظيمة ، حتى انها لم تتمكن من فتح الباب .. كانت تنتظر ـ بل كانت توقن تماما مما سيفعله ذلك الرجل الواقف الى جانبها ، فى الممر المؤدى الى الباب .. بيد ان جياكوميتى لم يتحرك من مكانه ، بل وقف ينتظر ، حتى اذا ما تمكنت من فتح الباب ، حياها بصوت منخفض ، وخرج لتوه .

ووقفت كاميل بضع لحظات عند عتبة الباب، وقد عجزت عن كل حركة ، فقد كان اضطرابها اشد مما لو كان الضابط قد كرر معها ما صنعه بالامس ! .. وتبينت انها لم تفهم ذلك الرجل ، ولا مقصده مما فعل ! .. وتملكها الخجل بسبب ما اظهرت من اضطراب فى اللحظة السابقة ، بينما رأته هو على عكسها ، اذ عرف كيف يتمالك نفسه وشعوره .. وأخذت الافكار المضطربة تتصارع فى راسها ، وهى تعود على مهل من الحديقة .. ثم قبلت والدها ، وعادت الى غرفتها .

وظلت بضع لحظات تطل من النافذة ، وقد اصابها الارق بسبب شعورها بالفراغ واليأس . وكان اليأس يختلط بشعور غامض يدل على عدم رضائها عن نفسها . وما لبثت أن سمعت صوت حركة خفيفة فى الحديقة ، وحفيفا بين اغصان الاشجار ، فأرهفت اذنيها وهى تحملق متفرسة ، الا أن الظلام السائد منعها من رؤية أى شىء .. وتملكها الخوف فأغلقت النافذة .. وعندما استغرقت فى النوم ، حلمت أن جياكوميتى يطوف حول فراشها .. واستيقظت فى تلك الليلة عدة مرات ، وهى شديدة الاضطراب وكان يخيل اليها ـ فى كل مرة ـ انها سمعت حركة قطعت عليها حبل نومها !

ولم تر الضابط فى اليوم التالى الا عند الساعة الخامسة مساء ، وكان يتنزه فى الحديقة . وما ان ابصرته حتى اشتد اضطرابها الى درجة انها لم تتمكن من الهرب . أما هو فقد تقدم من الباب ــ الذى يفصل بين الحديقتين ــ وقال لها فى بشاشة : « مساء الخير يا آنستى ! » .. واضطرت الى ان ترد عليه التحية ، فسألها عن صحة والدها .. ولم تجد ماتجيب به غير هذه الكلمات : «انه بخير!» . فقال الضابط : « اذن فقد شفى بسرعة ؟ » .. وفكرت الفتاة فى والدها الجالس على مقعده ، وهو لا يقوى على الحركة ، ثم قالت وهى تعرف ما قد يترتب على جوابها : « كلا ! انه لم يشف بعد! »

وشعرت بحمرة الخجل تعلو وجهها ، والدموع تكاد تطفر من عينيها .. ونظر اليها جياكوميتى لحظة وهو يبتسم ، ثم مد اليها يده من وراء الحاجز ، وصافحها واعدا بأن يزور والدها بعد قليل .. وفعلا ، اقبل عندما هبط الليل ، فوجدها جالسة الى جانب والدها الطبيب ، تحت شجرة التين فى الحديقة .. وتركت له مقعدها عند حضوره ، واسرعت الى غرفتها دون أن تدرى سببا لذهابها اليها ، فأخذت تذرعها هنيهة ، وهى لا تستبين كنه أفكارها ، ثم ما لبثت أن عادت الى الحديقة ، وجلست بجانب الضابط .. وكانت ليلة حالكة الظلام ، غاب عنها ضوء القمر ، حتى ان كاميل لم تكن ترى والدها ولا الضابط الضيف .. وبعث الظلام الى نفسها ثقة وطمأنينة .

وكان جياكوميتى يناقش والدها فى موضوع فلسفى ، فحاولت ان تستمع اليه ، ولكنها ما لبثت أن شعرت بأنه اخذ يتزحزح فى مجلسه ليقترب منها .. واستمر جياكوميتى يتكلم فى الظلام ، ووالدها يحاوره فى الموضوع الفلسفى .

واذا بها تشعر بيد تقبض على يدها .. وافلتت من فمها آهة ضعيفة ، ولكنها تركت يدها فى يد الضابط لحظة ، وكأنها كانت ترتقب منه هذا المسلك .. ثم بدأ حياؤها يثور ويتغلب عليها ، فحاولت أن تخلص يدها ، ولكن اصابع الضابط القوية كانت تقبض عليها بشدة ، بينما كان ماضيا فى المناقشة الفلسفية مع والدها ، وهو لا ينفك يجذب اليه الفتاة ــ كلما اطال الحديث ــ بقوة واستمرار، حتى شعرت بأنفاسه الحارة تهب على وجهها .. وما لبثت ان أحست بعد ذلك بشفتين على خدها تبحثان عن شفتيها ! .. وتقابلت شفاههما فى ذلك الظلام ، فاضطربت « كاميل » لتلك القبلة اضطرابا شديدا ، حتى لقد افلتت من فمها ــ على الرغم منها ــ صيحة صغيرة !

وفى تلك اللحظة عينها ، دوت ضحكة « ارما » الحيوانية ، فترددت فى ارجاء المنزل .. وسمع « جوفر » ــ الذى كان يستمع الى آراء الضابط ــ فى صمت ــ صرخة كاميل ، فقال : « هل تكلمت يا كاميل ؟ » .. وافلتها الضابط ، اذ ذاك ، فاستجمعت جأشها لتقول : « لا يا ابت .. ليس هذا سوى ضحكة ارما ! »

وتبع ذلك سكون لم تسمع فيه غير هبات الهواء وهو يحرك اغصان الاشجار .. ثم استأنف الطبيب والضابط نقاشهما .. وكان الضابط محتفظا بسكونه الى درجة ان صوته لم يختلج بأقل اضطراب .. وما لبث ان نهض الضابط قائلا للطبيب : « قد لاتجد آرائى ذات قيمة يا سيدى الطبيب ، وأرى أن الوقت قد تأخر .. فأرجو لك ليلة سعيدة ! » .. واجاب الطبيب : « الى اللقاء يا سيدى الضابط .. خير لك ان تنصرف خلال باب الحديقة ، بدلا

من أن تتحمل مشقة الخروج من باب المنزل .. ولعل كاميل ترافقك حتى السياج ! »

وتقدمت كاميل حتى طرف الحديقة . وكان هناك بعض الضوء .. وأخذت الفتاة تشرح للضابط كيف يفتح باب الحديقة ويغلقه .. وفى هذه المرة ، كانت شريكة له فى كل تصرفاته ، اذ تركته يصنع بها ما يشاء .. تركته يضمها بين ذراعيه اللتين كانتا تبحثان عنها فى الظلام .. وتذوقت فى تلك الليلة لذة القبلة الطويلة الصامتة ، وان لم تعرف كيف تردها !

***

والحق ان الصدفة تلعب دورا أهم من الدور الذى تلعبه الارادة ، فى حوادث التغرير بالفتيات ، كما تصورها تقاليد العصر .. فقد كان فى وسع « كاميل » ان تجد فى ماضى حياتها وتربيتها وادبها قوة كبرى تقاوم بها الشر .. حتى بعد ما بدا من ضعفها أمام الضابط وما ارتكبه معها ، لولا أن الظروف تواطأت دون تمكينها من ذلك .. فلقد راحت — سحابة نهارها التالى — ترتقب المساء وما قد يأتى به من أحداث جديدة .. ولكنها لم تكن تتوقع قط المفاجأة التى أقبل بها « جياكوميتى » فى المساء .. فقد قال للطبيب انه راحل — فى مهمة عسكرية — الى بلدة بعيدة ، قد يضطر الى التغيب فيها اسبوعا ..

وهكذا قدر لكاميل ان تبقى وحيدة ، لا تؤنسها سوى ذكرى ذلك العناق الذى فاجأها به الضابط فى ظلال سياج الحديقة ، والذى لم تملك سوى أن تستلين له بعد أن طوقها الشاب بحركة سريعة ، والصق شفتيه بشفتيها عدة مرات .. على انها كانت ذكريات تستطيع استعادتها مرارا دون

مضض ، ودون ان ينتابها ذلك الشعور القاسى .. الشعور بالزلة !

وراحت تفكر فيما حدث ، وتستعيد فى ذاكرتها حلقات تلك السلسلة من قصة غرامها .. الحلقات التى لم يمض عليها زمن يذكر .. واذا تأملت دخيلة نفسها ، لاحظت حالة جديدة ، بعثت فيها نشوة ممتعة .. ذلك أن ما كانت تتمناه ـ منذ أمد بعيد ـ قد تحقق الآن ، وخرج من طور الاحلام الى الواقع، فأصبح هناك من يحبها !.. ولم يراودها فى ذلك أقل شك ، فصممت ـ مدفوعة بالفطرة ـ على أن تحب هى الاخرى .. ولم تلق صعوبة فى اقناع نفسها بأن الضابط أجدر بحبها من أى شخص آخر !

واخذت تثير فى نفسها شعور الاعجاب به ، متوسلة الى ذلك ببضع حوادث صغيرة ، مما وقع لها فى الايام القليلة الماضية . فكانت تقول لنفسها : « انه جميل الشكل ، وقد صرحت مدام هوك بذلك بمجرد رؤيته ، وهى ذات خبرة فى هذه الشئون .. كما أن برت و مارى لم تحاولا أن تخفيا اعجابهما بالضابط الغريب ، ولا ميلهما اليه .. ثم انه ذكى كذلك ! » .. وقد شهد بهذا الذكاء والدها «جوفر» ، الذى صادف فى حياته كثيرين من أمثال هذا الضابط .. وهو شجاع ـ فوق ذلك ـ فهذه شيمة الضباط ، وقد حارب فى تونس ، وابدى رغبة فى السفر للاشتراك فى المعارك التى كانت تدور فى (تونكين) بالصين .

وعلى اى حال ، لم يكن فى وسع « كاميل » ان ترى رجلا يختلف عمن اعتادت رؤيتهم من أهل (تونيان) ، اكثر مما كان الضابط جياكوميتى يختلف .. وراحت تقارنه بـ « روكبيكيه » مثلا و بـ « بول دلكومب » ـ الذى كانت تعتقد انه مثال للزوج المنشود ـ فكانت لا تتمالك أن تشعر

بالفرق الكبير، لاسيما بين رجل الدين ـ فى ملابسه السوداء ، ولغته المنتقاه ، المتكلفة ، وكأنه يقرأها من كتاب مفتوح ـ وبين رجل الحرب النشيط ، الذى لم يكن يرتدى غير الضرورى من ثياب أنيقة تبرز شكله فى أكمل مظهر ! .. وكل هذا كان خليقا بأن يؤثر على شخصية متوسطة الذكاء مثل كاميل . فلم تنقض على غيابه ـ وعلى وحدتها ـ ثلاثة ايام ، حتى وجدت فى نفسها الجرأة على أن تعترف لنفسها قائلة : « اننى احبه ! »

وراحت تكرر هذا الاعتراف ، فيغمرها سيل من الطرب الداخلى ، لا يلبث أن يستبد بها حتى يجعلها تنطق بعبارة : « اننى احبه ! » بصوت عال ، وهى منفردة فى غرفتها الساكتة الهادئة .. واذ ذاك ، كانت تسمع صوتا آخر ، تكاد لا تميزه وان كانت تشعر بأنه مألوف لديها ، فيحتج عليها باسم ذكريات الطفولة الطاهرة ، ويدعوها الى المقارنة بين ماتشعر به اليوم وما كانت تشعر به فى الماضى نحو «لويس» .. ولكن ، ما اغرب ذلك ! .. كيف لم تسمع هذا الصوت ـ الذى كان يؤنبها ، وهو يذكرها بالماضى ـ عندما بدات تتصل بروكبيكيه وتفكر بالزواج به ؟ .. وقالت لنفسها ، وهى تحاول أن تعلل ذلك بدقة لم تعهدها من قبل : «لعل السبب فى ذلك هو اننى امنحه من نفسى أكثر مما كنت امنح المسيو هنرى روكبيكيه ! »

وصممت على ان تحتمل تأنيب ضميرها فى صبر واذعان ؛ لانها كانت تتمنى أن تزول كل عقبة من طريق هذه المغامرة الجديدة التى بداتها .

ولو ان الطبيب «جوفر» عنى ـ اذ ذاك ـ بدراسة حالة ابنته النفسية ، لقدر له ان يقرأ على وجهها ـ خلال تلك الايام التى قضتها وحيدة فريدة ـ ما يدل على اضطرابها

الداخلى .. فما ان اجتازت « كاميل » مرحلة الانفعال المحموم ، حتى انتقلت الى مرحلة الاحلام الجدية ، الملحة .. ثم بدأت تشعر بالضيق ، والقلق ، ونفاذ الصبر ، لغياب الضابط .. وراحت تسائل نفسها : « ترى ماذا يكون .. اذا لم يعد اطلاقا ؟ ! »

وكانت تحاول أن تستعيد ثقتها وطمأنينتها ، وتعلل نفسها بان غيابه كان متوقعا من قبل ، وان فى وسعها أن تعرف فى الغد المدى الذى سيطول اليه غيابه. الا ان قلقا حقيقيا تملك قلبها، فجعلها ترى دليلا اقوى على انها كانت تحب الضابط. والواقع أن ما أزعجها هو خوفها من أن تنتهى هذه المغامرة كما انتهت غيرها ــ من قبل ــ دون أن تفلح فى تحقيق هدفها الاوحد .. الزواج !

وهكذا صممت على الا تترك فرصة الزواج تفلت من يدها فى هذه المرة .. والميل الى الزواج ــ فى بلاد الريف ــ يتخذ مظهرا قويا ، يخالف ما يظنه الانسان ميلا جنسيا . فالزواج ــ بالنسبة للفتاة الريفية ــ حدث من أهم احداث الحياة .. وقد أدركت « كاميل » تمام الادراك أن « جياكوميتى » هو فرصتها الوحيدة للحب والزواج ، فراحت تتمنى عودة الضابط بنفس السرعة التى كانت تتمنى بها الزواج منه .. ومع هذا الامل ، الذى سبق أن زين لها الزواج من روكبيكيه منذ شهور قليلة ، انتابها شعور آخر أذكاه اعجابها بجمالها .. ومرت عليها خمسة أيام وهى فى تلك العواصف المتقلبة ، حتى وجدت نفسها فى النهاية وقد بلغت ذروة الاهتمام والارهاق العصبى .. فان طول الانتظار وقلة الثقة أوهنا ارادتها تماما . ولاول مرة ، بدأ ينتابها الارق والاختناق بفصص البكاء . وكانت اذا عادت الى غرفتها ــ بعد أن ينتهى اليوم ــ اتكأت طويلا الى حافة نافذتها وهى

تطل منها ، وتسرح بصرها نحو السياج الذى حجبت الاشجار المتعانقة بعض اجزائه ، وتتأمل الاركان التى تبادلت فيها الضمات الاولى القصيرة المثيرة ــ مع الضابط ــ والتى اصبحت ، بالنسبة لها ، الرمز الاعلى للحب وفوراته !

وفى مساء اليوم الذى كان « جياكوميتى » قد حدده كآخر موعد لغيابه ، اطالت الوقوف متكئة على النافذة ، لا تحول نظرها عن الباب الفاصل بين حديقة منزل آل هوك وحديقة منزلها .. وكان كل أملها أن ترى شعاعا من الضوء ، أو تسمع حركة بالمنزل ، أو تتبين ما ينم عن عودة الضابط . الا أن الساعة دقت الحادية عشرة مساء ، دون أن تسمع « كاميل » صوتا ، غير حفيف الرياح وهى تداعب الاشجار ، واصوات بعض الحشرات الليلية الصغيرة وهى تدب بين الحشائش ..

وحل بها التعب ، واستبد بها الانفعال ، وطفرت الدموع من عينيها ، فتحولت عن النافذة ، وسارت ببطء نحو فراشها ، وهى تفك ازرار ثوبها ، لتستبدل به قميص النوم .. بيد انها لم تلبث أن أحست بحركة خفيفة انبعثت من خلفها ، فوقفت كأنما قد سمرت فى مكانها .. وفى اللحظة التالية ، شعرت بجسمها حبيسا بين ذراعين قويين !

وادركت فى الحال كل شىء .. واحتبست فى حلقها صرخة ذعر طارئة .. وحاولت أن تطلق صوتها ، فلم تتمكن الا من النطق بهذه الكلمات ، وهى تحاول أن تبعد فمها عن فمه الذى كان يلتمس قبلاتها : « والدى !.. والدى !.. انه على مقربة من هنا ! » .. فقد كان الفاصل بين مخدعها ومخدع الدكتور « جوفر » ، مجرد جدار رقيق .

وشعرت بالشخص الذى فاجأها يشدها اليه من جديد ، ويحملها فى الظلام .. وتركته يفعل ما يشاء ، وقد أخذت

تتذوق الضمات ولذتها من جديد ! .. ولم تجد ما تقول سوى كلمات انبعثت من فمها كهبات من هواء بارد : « أهذا أنت ؟ .. أخيرا ! .. أنت ! »

والحق انه لم يخطر لها ببال فى تلك اللحظة ــ لفرط نقاء نفسها وسذاجة قلبها ــ ان فى وسعه أن يسلبها أكثر من القبلات .. ولكن رجفة قاسية سرت فى جسدها فجأة ، فردت اليها وعيها وادراكها ، وجعلتها تفيق من سكرتها !

(٤)

يظهر ان اول تجربة غرامية عملية تمر بها المراة ، لاتترك فى نفسها من الاثر سوى الشعور بالاشمئزاز ، المتولد عن رد فعل ذلك النوع من القسوة التى لابد منها فى تجربة كهذه ، وعن شعور بالهزيمة والاندحار ، يتصل دائما باحساسها بأنها فقدت شيئا لن يعود اليها .. هو عفافها !

أما الخليلة ، فانها تستعد لتجربة ثانية ، تسليما منها بأن هذا واجب عليها .. وأما العشيقة ، فيدفعها الى التجربة الثانية ، ذلك الشعور باللذة الذى لا يخلو منه حب أنثوى..

ولكن أغرب مافى الامر ، هو ان الفتاة التى تفاجأ فى غفلة ، وينتهك عرضها ــ على حين غرة ــ بفعل رجل لا تكون قد أحبته بعد ، ودون أن يكون لارادتها دخل فى سقوطها ، ينتهى بها الامر الى ان تصبح عشيقة الرجل الذى اعتدى عليها !

ويظهر ان هذه النهاية أمر لا يمكن تجنبه ، فاذا الضحية المسكينة تبدى ــ عند الهجوم الثانى من المعتدى ــ مقاومة اضعف مما تكون قد أبدت فى المرة الاولى .. انها تقاوم ــ اذ ذاك ــ وهى موقنة من الهزيمة . وقد يكون السبب فى استخذائها ، هو مايتولاها من ازدراء لجسدها الذى تدنس فأصبح لا يستحق مجهود الدفاع عنه .. على ان هذا قد

لا يكون السبب ، وانما قد يرجع السبب الى رغبة اجتناء ثمرة السقوط ، او ذلك الشعور الفريزى الذى يبعثه حب النسل فى النفس ، فيوحى للانثى بأن السرور لا يلبث أن يتبع الالم .. على انه مما لاشك فيه ، ان الانثى حين تستخذى ولا تقاوم — فى المرة الثانية — تكون منساقة ، بين مايسوقها من مشاعر ، تحت رغبة غريبة .. الرغبة — فى استعادة ذكرى أليمة من ذكريات الحب !!

ولم يحجم « جياكوميتى » عن التردد على « كاميل » فى الليالى التالية ، اذ كان قد سألها — بعد الليلة الاولى — أن تترك نافذتها مفتوحة .. وكأنما كان واثقا من أنها ستطيع أمره ! .. وقد أطاعته فعلا !

وكانت نفس الفتاة — فى تلك الآونة — غير مستقرة ، تكاد تكون قاب قوسين أو ادنى من اليأس .. وكانت تعلق أملها بشىء واحد فقط .. هو ان يحبها جياكوميتى ! .. لذلك حاولت أن تنسى ما ارتكبه الرجل من عمل مشين انطوى على الجبن والنذالة ، وجهدت فى ان تلتمس له عذرا ، هو أنه يحبها ، وانه لم يكن ملوما عندما ظنها متجاوبة معه ، اذ انها لم تعترض على ما ارتكبه معها فى الحديقة .. فضلا عن ان الطريقة التى سلكها ، انطوت على جراة وعزيمة اعجبت بهما « كاميل » ، فى ركن من أركان قلبها !

وهكذا نـ جياكوميتى فى استمالة الفتاة بحيث لم تعد تمتنع عن الاستسلام له .. اذ انه — فى بادىء الامر — لم يعمد الى القوة الا للضرورة القصوى ، ولكى يتغلب على مقاومتها الاولى .. حتى اذا اطمأن الى انتصاره بعد ذلك ، اخذ يترفق فى معاملتها ، وكأنه زوج محب رقيق ...
وهاهى ذى كاميل — فى اليوم التالى لذلك الاعتداء المروع — تقابله باضطراب ممتزج بالدمع، ثم تشعر فجأة بأن الاضطراب

يتحول الى ذهول غريب ، أفقدها كل شعور ، لبضع دقائق .. ولما ثابت الى رشدها ، استغربت اذ وجدت الضوء يملأ تلك الغرفة التى كان يغمرها الظلام .. ولم يكونا قد تبادلا كلمة واحدة . ووقف جياكو ميتى ينظر اليها وعلى فمه ابتسامة غريبة .. وشعرت بشىء من الاستحياء ، فلم تتمالك أن أخفت وجهها بيدها .. حتى اذا بدأت تستعيد ثقتها ، أحست بشعور الامتنان من أجل تلك اللذة التى تذوقتها .. وقلما يحس الرجال بذلك الشعور ، أما المرأة فان هذا الشعور عادى جدا عندها ! .. ومن ثم فان كاميل لم تلبث ان رفعت يدها عن وجهها ومدت ذراعيها الى حبيبها .. تود أن تطوقه وتضمه الى صدرها !

***

وفى تلك الليلة شربا كأس اللذة حتى الثمالة .. ومنذ ذلك الوقت ، أخذت اجتماعاتهما تطول وتمتد حتى اللحظات الاخيرة التى يتبدد فيها ظلام الغرفة ، حين تظهر خيوط النهار الاولى .. فاذا ما انصرف العشيق ، بقيت كاميل وحدها مسهدة حتى الصباح ، ثم لاتلبث بست ساعات من النوم أن تعوضها عن تعبها . وعندما كانت تتنبه الى عودة النشاط ، كانت تغادر حجرتها لتتناول الطعام .. وفى غير اضطراب ، كانت تقدم جبهتها الى والدها ليطبع عليها قبلة الابوة ، وهى التى كانت تتلقى ـ منذ ساعات قليلة ـ قبلات من نوع آخر ! .. فما أسهل على المرأة أن تفتح لنفسها كنوزا من الرياء والخداع فى سبيل كتمان حبها !

على أنها شعرت بالاضطراب فى ذات يوم ، اذ قال لها فيه والدها : « أتعرفين ان عاشقك قد عاد ؟ » .. على انها سرعان ماتمالكت نفسها ، وقالت : « اى عاشق ؟ .. لعله المسيو هنرى ؟ »

ـ لا ، ولكنه « لارتيج » الصغير ، ابن أخ لارتيج التاجر ، اذ رأيته اليوم عند باب المتجر، وقد أصبح شابا .. ما أسرع مرور الايام !

وعادت الطمأنينة الى قلبها ، فراحت تتحدث الى والدها عن الماضى بلطف . ولا شك فى أن الطبيب « جوفر » ما كان ليستطيع ـ لو أن بادرة من الريبة داخلته ـ ان يقرا شيئا فى عينيها الهادئتين ، وفى ذلك السكون المرتسم على وجهها .. ومع ذلك ، فمن أين كانت الريبة تواتيه ؟ .. ان الضابط الشاب لم يكن يجتمع بكاميل ـ منذ تعرف الى الاسرة ـ الا والطبيب ثالثهما .. ولم يكن « جياكوميتى » يخاطب الفتاة ـ أثناء تلك الزيارات ـ بل كان ينهمك فى الحديث مع الطبيب فى موضوعات فلسفية . واذا قيل أن « جوفر » كان يتغيب عن منزله أثناء النهار ، وهى فرصة كافية لأن تتصل كاميل بجارها ، لانهار هذا القول من تلقاء ذاته، اذ كان كل انسان يعلم أن الضابط يسافر فى فجر كل يوم ـ مع بعض مساعديه ـ ليقوم بمهام عمله ، فلا يعود قبل المساء .

وكل امراة متزوجة ، لا تملك ان تنكر ان تفكيرها ـ فى خلال الاسابيع الاولى للزواج ـ لايكاد يتجاوز زوجها ، فان التذكار والانتظار يشغلان بالها طيلة يومها ! .. ذلك لان نظرة كل جنس الى الحب تختلف عن نظرة الجنس الآخر ، فالرجل يقضى نصف شبابه فى السعى وراء الحب والظفر به ، أما المرأة فانها بعد أن تقضى سنوات طويلة فى جهل مظلم، تنتقل فجأة الى اكتشاف السر فى عشر دقائق .. ومن هنا ينحصر كل تفكيرها فى عواطفها ! .. وما يصدق على الحب المشروع ، ينطبق على الحب غير المشروع . بل أن طبيعة المرأة تظهر على حقيقتها فى الحالة الثانية ، اكثر من ظهورها فى الحالة الاولى . لان الارادة تتيح مجالا أوسع للحركة

والعمل .. وقد كان اهتمام كاميل بكشف حقيقة الحب يملأ روحها — فى تلك الفترة التى كانت تسلم نفسها فيها لجياكوميتى .. بل أن هذا الاهتمام أخذ يملأ نفسها باستمرار ، اما الخوف من الفضيحة واحتمال مفاجأة أحد لها ، فكان يأتى فى المقام الثانى ، لاسيما بعد الذى لمسته فى حبيبها من القوة والذكاء .

وكان يخيل اليها ان ليس فى مقدور أحد أن يقاوم هذا الرجل او يتغلب عليه .. ولما كان الطبيب قد شفى — فى تلك الاثناء — من اوجاع قدميه ، وأصبح قادرا على السير بسهولة ، فقد بات وقع قدميه — وهو يسير ذهابا وايابا فى غرفته التى كان يترك بابها مفتوحا — يصل الى مسامع كاميل .. ومن ثم بدأت تشعر تدريجيا بشىء من الخوف للخطر الذى قد تتعرض له مع حبيبها ، وأصبحا يتحاشيان الكلام حتى لا تسرى همساتهما الى الطبيب .. وهكذا أصبح الصمت يسود لقاءاتهما ، بل أن قبلاتهما باتت صامتة ، مما جعل لغرامهما طابعا ومذاقا غريبين !

وكأنما كان يطيب لجياكوميتى أن يلعب بعواطف «كاميل» ، وأن يزيدها شعورا بالخطر ، فكان يطفىء النور ، ويفتح النافذة ثم يسير بها اليها ، ويتكىء الى حافتها والفتاة الى جانبه .. وكان شعاع واهن من القمر يشق حجب الظلام احيانا ، فيستهوى منظر الطبيعة الجميلة مشاعر كاميل .. وحدث — فى عدة مرات — أن كانا يسمعان حركة بين أغصان الاشجار ، بل لقد خيل اليهما مرة أن شبحا آدميا يتحرك فى شرفة المنزل ، ويختبىء بالقرب من حاجزها .. وكانت كاميل — فى هذه الحالة — تفزع الى عشيقها ، وتتعلق به ، وترجوه أن يغلق النافذة ويدخل ليختبىء فى الحجرة .. ولكن جياكوميتى لم يكن يتحرك من مكانه ، بل كان يواصل

استجلاء جمال الطبيعة .. حتى اذا اشتد شعورها بالخطر، وتأثرها بما كان يبعثه المنظر فى النفس ، كانت تلتف بجسمها حول جسمه ــ كما ينساب الثعبان ــ وهى تهمس فى اذنه : « تكلم !.. اواه ، حدثنى !.. اتوسل اليك ! » .. بيد إنه لم يكن يحرك شفتيه المطبقتين . وكان فى بعض الاحيان يشير الى الغرفة المجاورة ، حيث كان والدها الطبيب ينام .. اذ كان أتفه صوت كفيلا بايقاظه من نومه . وهكذا كانت « كاميل » تستسلم ، وتسكت ! .. وكان اضطراب نفسها يذكى لديها الرغبة فى الخلاص من ذلك السر المؤلم ، وفى أن تصبح بالنسبة لجياكوميتى شيئا أفضل من عشيقته وشريكة ملذاته .. كانت تحلم باتحاد بين روحيهما ، وارتباط بين نفسيهما كذلك الارتباط الذى تمكن جسداهما من تحقيقه ، ان لم يكن اشد منه اخلاصا .. وأية امرأة لم تحلم بذلك ، حتى مع عشيق لا تحبه ؟ !

كانت هذه الفترة اشبه بفترة انفصلت عن حياة «كاميل»، وكأنها لم تعشها .. فقد كان الحاضر يغمرها ، حتى انها لم تكن تفكر فى المستقبل ، بل تركت التفكير فيه طوعا .. وكانت الايام والليالى تغدو هربا . كم مضى من الزمن منذ أصبحت ملكا لذلك الرجل ؟.. أسبوع ، أو شهر ، أو عام؟.. كل شىء يجرفه النسيان !.. وهكذا كان الزمن يمر بها دون أن تشعر به ، لولا أن خطابا تلقته من « مارت » يوما ، فنبهها فجأة ، وفى قسوة ، الى الحقيقة المرة .. اذ أن «مارت» شاءت أن تبر بوعدها ، فأخذت تقص على صديقتها فى الخطاب ــ فى استحياء وصراحة ، فى آن واحد ــ كل ما حدث لها بعد ان اصبحت زوجة ..

ولقد قرأت « كاميل » تلك الاعترافات ، ولكنها لم تشعر بشوق ــ أثناء القراءة ــ بقدر ما شعرت بدهشة ، اذ

استخلصت مما قرأته أن « بول » كان يعامل زوجته «مارت» بنوع من الاحترام المشوب بالحب ، وكان يستهدف الناحية البدنية من الحب عن طريق العاطفة المشتركة ، أى اتحاد القلبين . وهكذا كانت عفة الزوجة الجديدة وحياءها موضع احترام من زوجها الى آخر لحظة ! .. وأثار هذا الخطاب فى « كاميل » شعور الكرامة والخجل . والقلب البشرى يضم هاتين العاطفتين متحدتين فى بعض الاحيان ! .. ومهما يكن من امر شعور عشيقة جياكوميتى — فى ذلك الوقت — وسكرتها الفرامية ، فانها عجزت عن التخلص من الجاذبية القوية التى بعد عهدها بها .. جاذبيــة العفة . فان المتعة الحسية لا تلبث أن تبعث السأم ، أما العفة والمتعة الطاهرة ، فتنطوى دائما على راحة مطلقة ..

لذلك شعرت « كاميل » — وهى مستغرقة فى استكناه معانى رسالة « مارت » — بأسى على عفافها المفقود . وللمرة الاولى ، سببت لها زلتها شيئاً من الالم .. ولكنها سرعان ما استبعدت ذلك الشعور ، اذ كانت تغبط نفسها على سعادتها الحالية ، وتخشى أن تحرم منها .. وكانت كل فكرة تعبر عن الاسف أو الندم تبدو لها عدوا خطيرا ، كفيلا بالقضاء عليها ، وبهدم سعادتها .. ثم ، اى عجب هنـاك اذا كان عشيقها لم يعاملها كما عامل « بول دلكومب » زوجته ، مادام هــذا الاخير كاهنا من رجال الدين ؟ .. ان عشيقها كشف لها السر بأوضح مما كشفه بول لزوجته ، وفى هذا فصل الخطاب !

على ان رسالة « مارت » احدثت أثرا آخر .. فقد توقف فكر « كاميل » عند هــذه النقطة : « ان مارت زوجة بول دلكومب ، أما انا فلست الا عشيقة جياكوميتي ! »

***

عشيقته !.. ابدا لم تظهر لهاقسوة الحياة كما ظهرت لهافى ذلك اليوم : بشعة ، مروعة ! .. وبدا لها مركزها الشاذ جليا ، فقد كانت « مارت » تعلن فى خطابها لصديقتها ، ان آل هوك قد اعتزموا العودة الى (تونيان) بعد خمسة عشر يوما .. فماذا يكون من أمرها هى ـ كاميل ـ اذا ما عادوا ؟

وعادت الكلمة تغوص فى قلبها كأنها خنجر حاد .. « عشيقته ! » . ان جياكوميتى خليق بأن يتزوجها ، ولكنها لم تجرؤ ـ طول المدة التى تسلط فيها ذلك الرجل عليها ـ ان تقول له : « تزوجنى! » .. على انه كان لزاما عليها أن تقولها له .. فهو لابد راحل بعد أيام ، ما دام آل هوك قد اعتزموا العودة .. واخذت تحسب الايام الباقية ، فلم تجد امامها غير اسبوع واحد .. اى ان شهرا ـ تقريبا ـ قد انقضى منذ فرطت فى عفافها ! .. ومع ذلك فقد كانت تخال ان الليلة التى فاجأها فيها ، لم تكن غير البارحة !.

ولكن ، اتصبح زوجة لجياكوميتى ؟ !

وشعرت برجفة تسرى فى جسدها وهى تفكر فى ذلك الامل الذى ملأ احلامها فى الماضى .. والحق انها كانت تفضل الا يتغير شىء من أوضاع حياتها ، فتستمر تلك الحياة على حالها الى الابد ، دون ان يلحقها تبديل .. مجرد سلسلة طويلة من العناق والقبلات !.. افلم يكن الحب الذى تكنه لجياكوميتى، معادلا لذلك الحب الذى تشعر به «مارت» من نحو «بول» ؟

وودت ان ترد على هذا السؤال بالايجاب ، خشية ان يسوقها اى جواب آخر الى البحث عن سبب سقوطها ، اذا هى عجزت عن ان تعلله بالحب .. وراحت تردد لنفسها فى

نوع من الايحاء : « سأتزوج جياكوميتى ، وسأتبعه اينما ذهب ! »

وما لبثت الذكريات البعيدة أن أعادت اليها شبح «لويس» .. ترى هل يقدر للويس أن يغدو زوجها يوما ؟ .. لا ، فقد انهار كل ما قاما ببنائه من قصور الآمال الجميلة منذ الصغر .. ترى اين هو الآن ؟.. لا ريب أنه فى مكان بعيد جدا ، بل لعله قد مات ولن تراه الى الابد !

***

وفى نفس اليوم الذى حمل ساعى البريد فى صباحه خطاب « مارت » الى « كاميل » ، حمل اليها فى مسائه خطابا من روكبيكيه .. فان هذا الشاب لم يلبث أن شعر بالسأم والضجر ، شأن جميع أهل الجنوب اذا ما ذهبوا الى باريس.. ولما لم يكن يعرف له مسلاة فى تلك المدينة الواسعة، عاوده الحنين الى (تونيان) ، وتذكر ــ فى حسرة ــ تلك الايام التى كان يقضيها مع اصدقائه الثلاثة : بوربس ، ودسبيرو ، واسكادافال .

وفى ذات مساء ، عاد الى مسكنه ــ بعد أن تنزه على ضفاف السين ــ وقد اشتد به الاسى ، وبرح به الحنين .. وعاودته ذكرى « كاميل » .. وكانت « كاميل » ــ فى نظره ــ اجمل من كل النساء اللائى اعتاد أن يقابلهن فى طرق باريس ، فقد نفره من الباريسيات انهن ذوات جمال مصطنع ! .. والفى نفسه ــ وقد استقر فى الغرفة التى كان يسكنها ــ مدفوعا الى أن يكتب الى صديقته القديمة خطابا طويلا مؤثرا ، وهو فى اوج جيشان عواطفه .. ولقد عجبت « كاميل » من أمر هذا الخطاب، وان لم يؤثر فيها ما تضمنه، اذ كانت قد نسيت « روكبيكيه » ، حتى لقد بذلت جهدا

لكى تتذكر شكله ووجهه ، الى ان استطاعت أن تتمثل ذلك الشاب الخجول ، الفريب الاطوار ، الذى لم يكن يجرؤ على لمسها فى المانش .. وقارنته بجياكوميتى فازدادت اعجابا بهذا الاخير ، لقوة أعصابه وجراته عندما فاجأها باعتدائه .. فان النساء ــ مهما تكن أعمارهن ــ يشعرن بالاحترام نحو الرجل الذى ينتقص من أقدارهن .. ولكنهن ــ اذا كن صغيرات السن ــ يخلن عن خطأ ان هذا الذى يبدر منه انما هو الحب !

وفى ذلك المساء ، ابدت كاميل لجياكوميتى ــ عندما التقت به ــ اقصى آيات الحب . وراحت تلقى اليه بالعهود ، بصوت مختنق ، وتردد فى عاطفة جياشة : « اننى احبك .. أواه ، لكم أحبك ! » .. واردفت ، للمرة الاولى ، متسائلة : « ولكن هل تحبنى انت ؟ .. احبنى ! »

الا ان جياكوميتى ظل على صمته ، ولم تستطع هى ، ولا دموعها المتساقطة ، ان تنتزع منه ذلك الجواب الذى كانت تصبو الى ان تسمعه : « نعم ! اننى احبك ! » .. بل انها لم تلبث ان كفت عن الالحاح ، وقد احست بذعر لتلك السخرية التى كانت تتجلى فى عينى الرجل .. كانت عيناه ترسلان اليها نظرات غريبة ، وكأنهما تستطيبان مراى اضطرابها ، كما تتمتعان بمنظرها الجميل .

وعندما خلت الى نفسها ــ فى تلك الليلة ــ راحت تقول : « لم أتمكن من ان اقول له : تزوجنى ، واسرع يطلب يدى من والدى ، فان موعد رحيلك يقترب ! » .. كلا ، لم تتمكن .. بل انها لم تجرؤ على ذلك ! .. وخيل اليها انها لن تجد الشجاعة الكافية لان تقول له ذلك ، فى اى يوم من الايام .. ولكن حادثا وقع فبث الشجاعة فى قلبها ، اذ انتبهت الى تطور فى صحتها ، عرفت معناه برغم جهلها بعلم وظائف

الاعضاء .. ولكم أرعبها ذلك الاكتشاف ! .. وأصبح لزاما عليها ان تتكلم ، وبأسرع ما يمكن ! .. وصممت علىأن تتكلم فى تلك الليلة نفسها . وحققت عزمها فعلا ، فكانت الكلمات الاولى التى قالتها لجياكوميتى ، حين قفز الى غرفتها — فى ذلك المساء — هى : « ان فى أحشائى جنينا .. يجب أن تتزوجنى ! .. لقد حان الوقت لذلك ! »

ورفعت راسها — وهى تقول له ذلك — وتجرات فى هذه المرة على أن تنظر الى وجهه ، على شعاع واهن ، فلاحظت أن عضلة واحدة فى وجه الضابط لم تختلج .. ومكث فترة مخلدا الى التفكير ، ثم قال لها : « لا بأس .. اتركى لى الامر ! »

وجذبها اليه دون أن يتيح لها وقتا كافيا للحديث ، وانهال عليها عناقا ، وكأنه يريد أن يغتصبها مرة ثانية .. ولكم كان عناقه مؤلما ، عنيفا ، فى تلك الليلة ، حتى لقد ظلت آثاره تؤلم « كاميل » مدة طويلة ، بعد أن قفز من النافذة الى الحديقة، عائدا الى منزله ، فى جنح الظلام !

***

فى اليوم التالى وجد الدكتور « جوفر » فى صندوق خطاباته بطاقة بتاريخ اليوم السابق، جاء فيها : « انالضابط جياكوميتى قد استدعى تلفرافيا الى باريس ، وهو يرجو الطبيب جوفر أن يقبل شكره العظيم على الحفاوة الودية التى لقيها فى المنزل المنعزل ، واعتذاره لاضطراره الى السفر فجأة » .

وقدم « جوفر » البطاقة لابنته — عند نزولها الى الحديقة، حوالى الساعة الحادية عشر صباحا كعادتها — وهو يقول : « ان رسالته غامضة ، لاتفصح عما اذا كان يقصد انهسيعود ثانية أم لا ! »

وامسكت كاميل بالبطاقة ، وتفرست تلك الكلمات القليلة، وهى لاتفهم شيئا منها .. وخيل اليها ان عقلها قد تناثر كالرماد فى مهب الريح ، وشعرت بأن قواها تخونها ، فلم تقل شيئا ، بل وضعت البطاقة على المائدة ، ثم عادت الى غرفتها ، تاركة الطبيب يتمشى فى الحديقة ...

وفى غرفتها ، ارتمت على مقعد وقد بدأ الاغماء يغالبها .. وتولاها شعور أثقل قلبها ، وأحست كأن ريحا عاتية تهب فى أذنيها، وبرقا خاطفا راح يلمع أمام عينيها. وما لبث كل ذلك ان تحول الى أشباح راحت تمر بسرعة أمام عينيها .. راخذ شعور « كاميل » بالوحدة يتزايد فى أعماقها ، حتى كاد يفيض .. ثم أخذ فى الانحسار تدريجا ، وسكتت الاصوات التى كانت تهب فى أذنيها ، وخبا البرق الذى كان يتوالى أمام عينيها ، ووجدت نفسها جالسة فى مقعدها ، وقد أخذ العرق البارد ينصب على جبهتها .. واحست بأنها ضعيفة ، ولكنها أحست ــ فى الوقت ذاته ــ بأنها قد تمالكت كل شعورها .

وخيل اليها ــ فى تلك اللحظة ــ أنها لم تر الاشياء التى كانت تحيط بها ، اوضح مما أخذت تراها اذ ذاك .. وأجالت بصرها فى كل ما كانت تضمه غرفتها ، ثم قالت لنفسها : « لقد كان هنا فى الليلة المنصرمة ! » .. كانت الفوضى ــ التى شاعت فى الغرفة ــ شاهدا على ذلك ! .. وراحت تحدث نفسها قائلة : « اذن فقد انتهى الامر ، وسافر ! .. سافر دون أن يودعنى ، وهو يعلم أن هناك جنينا فى أحشائى !.. كلا ، هذا مستحيل ، فما أحسب ان اى رجل شرير يبلغ به الجبن الى حد أن يرتكب عملا كهذا ! » .. ولكنها لم تلبث ان استدركت : « بل نعم ، هذا صحيح ! .. انه يحدث .. يحدث فى كل يوم ، وتنشر الصحف أخباره كل يوم .. ان

هذا يحدث فى باريس ، بل هنا فى (تونيان) أيضـا ، بين الطبقات الدنيا .. واولئك المخدوعات المهجورات يطلق عليهن اسم « الأمهات العذارى » .. عدراء وأم فى وقت واحد !.. ولكن هذا لا يحدث الا بين الطبقات الدنيا الفقيرة ! »

ثم اعتمدت رأسها بين كفيها، واستطردت تحدث نفسها : « أجل ، بين الطبقات الدنيا ، الفقيرة فقط ! .. ولعل مرجع ذلك هو أن فتاة الطبقة الراقية لا تتصل بأحد ، فمارت ـ مثلا ـ لم تحب أحدا قبل أن تتزوج ، و «برت» و «مارى» ، ليس لأى منهما عشيق .. انما بنات العامة فقط ـ من أمثال ارما ـ هن اللاتى يعتدى الفلاحون على عفافهن ، فى الاماكن الخلوية .. ثم يترك الفلاح الفتاة منهن، ويهجرها وطفلها ! »

***

اذ ذاك فقط ، تمزق الحجـاب عن تلك الليلة التى ظلت تحيا فى نعيمها منذ خمسة أسابيع ، وعرفت أن سقطتهـا كانت حادثا غير لائق بها ، وإنها سـلكت مسلك الفـلاحات الفقيرات ، وان « جياكوميتى » عاملها كما لو كانت واحدة من هؤلاء .. وهاهوذا قد هجرها ، كما كان خليقا بأن يهجر أية فلاحة بائسة فى وضعها ! .. وتذكرت ـ اذ ذاك ـ امرأة كانت قـد ترددت على المنزل أثناء غيـاب الدكتور جوفر ، وكانت تتلهف الى استشارته ، وهى تظن أنها تحمل طفـلا فى أحشائها . ولقد استقبلت « كاميل » تلك المرأة بنفسها ـ لغياب والدها ـ فروت لها البائسة قصة نكبتها ، وقالت وهى تبكى : « .. ولقد هجرنى بعد أن قضى وطره ! »

ولكم أحست بالرعب حين خطر ببالها أنها هى الاخـرى كانت مجرد وسيلة لتحقيق لذة ذلك الوغد ! .. وما أقسى الحزن الذى سببته لها هذه الفكرة ، فراحت تذرف الدمع سخينا .. على أنها لم تلبث أن اعادت النظام الى فراشها ،

ثم رمت تحته بالغطاء الصوفى ، حتى تخفيه عن عينيها .. وتأملت شكلها فى المرآة ! .. كان من العسير أن يرى أحد فيها شكل « كاميل » المعهود ، اذ شحب وجهها فبدا أبيض، كما حفرت الدموع اخدودين على خديها .. واستولى عليها الخوف من والدها .. آه ، لو انه لاحظ اى شىء ! .. بل آه ، لو ساوره مجرد الشك !

وأخذ ذلك الاحتمال ــ الذى لم يمر بخاطرها حتى الامس ــ يزعجها بعد أن رحل « جيروم جياكوميتى » .. أن جوفر سيقتلها ــ بكل تأكيد ــ لو انه عرف شيئا مما حدث !

وغسلت وجهها بعناية ، وأصلحت من شعرها ، وحاولت أن تبدو بمظهرها العادى . ثم فتحت النافذة لتتسرب منها حرارة الظهيرة فتعيد لون وجهها الى ما كان عليه ، وحاولت ــ فى نفس الوقت ــ أن تدرس الموقف فى شىء من الثبات.. فهل ضاع كل أمل ؟ .. الا يحتمل أن يكون « جياكوميتى » قد استلم فعلا برقية فى الساعة السابعة صباحا ، تستدعيه الى باريس ؟ .. أليس رجال الجيش معرضون لتلقى مثل هذه الاوامر ؟ .. اذن ، فقد كان مجبرا على أن يسافر ، فكيف كان بوسعه أن ينبىء عشيقته بذلك ؟

وقالت لنفسها : « اذن فلن يلبث أن يعود ثانية ، فى بحر أسبوع على الاكثر .. أو أنه قد يتمكن من اخطارى عن موعد عودته بكلمة قصيرة ، تعيننى على وطأة الانتظار » ..

ولما لحقت بوالدها ــ عندما أعدت المائدة ــ كانت قد استعادت هدوءها تقريبا ، وقد انساها خوفها البالغ منه حزنها وقلقها .. غير أن جوفر لم يعدم ان لاحظ بعض الشحوب على وجهها ، فقال لها : « انك لاتتنزهين كثيرا منذ رحيل آل هوك .. فجدير بك أن تصحبينى من وقت الى آخر فى جولاتى .. مارأيك فى الخروج معى بعد ظهر اليوم ؟ »

.. ووافقت كاميل ، اذ كانت تفضل القيام بأى شىء على أن تنفرد بأفكارها .. الا أنها خشيت أمرا واحدا بعث الرعب الى نفسها .. الم تكن هناك مظاهر خارجية يمكن أن تفضح حالتها الصحية ؟.. ألا يحتمل أن ينم وجهها ـ مثلا ـ عن سرها ؟ .. ورأت ان لابد لها من التثبت من ذلك ، فاقتربت من الطبيب ، ونظرت فى عينيه كأنها تود أن تفسح له الفرصة ليلمح اى تغير يثير الشك فى نفسه . ولكن الدكتور «جوفر» لم يفطن الى شىء ما !

وخرجا بعد تناول الطعام ، لكى يعود الطبيب مريضا فى الريف .. وفى العربة التى اقلتهما ، أسندت كاميل جبهتها الى كتف ابيها ، الذى انتبه الى مابها من ضيق واكتئاب ، فأخذ يدللها ويظهر لها حبه .. ذلك الحب النادر العميق الذى كان كفيلا بشفاء قلب الفتاة .. والذى قلما كانت تحظى به !

وشيئا فشيئا ، اخذت « كاميل » تحاول اخفاء سرها المشين فى ثنايا شعورها بما يتيحه لها أبوها من حمى وأمن ، وبما يثيره فى نفسها من خوف .. فقد كانت تخشاه وتعبده فى آن واحد .. ولم تلبث أن نسيت أساها ، واخذت تتأمل ـ بعينيها الواسعتين ـ ذلك الريف الجميل الذى كان يحيط بها ، وقد غمرته شمس الصيف !

(٥)

ان الألم الحاد اذا بلغ حدا معينا ، أورث صاحبه عدم الاحساس به ! .. وكذلك الحزن اذا جاوز الحد المحتمل ، لم تعد النفس تشعر به ! .. ولم تكن « كاميل » تواجه مانزل بها الا بقلب متوسط القوة ، أثقلته العواطف المتضاربة .. وشعرت بأن ذكاءها اقل بكثير من أن يواجه المستقبل

وما يحمله من تهديد ، فآثرت أن تترك الامور تسير فى مجراها العادى . .

وفى تلك الايام التى تلت فرار الضابط ـ بعد أن سلبها عفافها ـ راحت تعيش ـ نهارها ـ بلا فكر ولا ارادة . ولكن هذا الليل ـ الذى عاشت فيه مشاعرها ـ لم يلبث أن انقشع ، وتمكنت فى ضوء الفجر ـ الذى بزغ على حواسها مرة أخرى ـ أن تنظر الى أعماق قلبها ، فخيل اليها انه لم تبق فيه عاطفة واحدة ! . . كانت صورة « جياكوميتى » قد انمحت من نفسها ، فلم تعد تشعر نحوه برغبة ولا ببغضاء ، حتى لقد بلغ من نسيانها اياه ، ان خيل اليها انه لم يكن الا حلما فى حياتها !

أفحقا كانت هى نفس الفتاة التى قالت لنفسها ـ قبل أيام قليلة ـ وهى تفكر فيه : « اننى اعبده ! » . . والتى كانت تحلم بأن ترتبط حياتها بحياته ؟ ! . . او ترى ان الألم خلق لها قلبا جديدا ؟ . . وكانت كلما فكرت فيما حدث ، والخوف يملأ قلبها ، وهى تردد لنفسها : « لقد دنس شرفى » ، لاتلبث ان تفكر فجأة فى احتمال عودته ، فينكمش قلبها . ولو انها استطاعت قراءة نفسها الباطنة ، لأدركت انها كانت تشك فى عودته ، برغم أن تلك العودة كانت الوسيلة الوحيدة لخلاصها من العار الابدى !. . والحق انها كانت تشعر دائما بالخوف من جياكوميتى . . كانت حواسها ـ التى اشتركت فى الجريمة ـ قد تلقت المفاجأة الاولى من الضابط ، مصحوبة بقسوة لذت لها ، ولذا أحبت تلك اليد التى أذلتها . . اما روح الخوف فكانت قد ماتت !

على ان ركنا قصيا من نفسها ، ظل محتفظا بفطرته الناعمة . . الركن الذى انطبعت فيه صورة « لويس » !

اما وقد تحطم الجسد ، فان الأحاسيس المادية لم تلبث ان خمدت ! . . وبدات تدب في اعماقها رغبة جديدة ، بعثها

الهدوء الذى أحاط بكاميل ، وخمود فورات الجسد .. رغبة فى الخلاص من الذكرى الاليمة !

وكان شهر اكتوبر قد بدأ ، فبدأ معه **الخريف** .. ، يعرف الكاتب جوا أهدأ من تلك البقعة من فرنسا فى ذلك الفصل ، ولا سماء أقوى على شفاء النفوس من سمائها .. هناك ينام الالم ، وينمحى القلق ! .. وهكذا أخذت «كاميل» تتمتع بجو مسقط رأسها ، دون أن تفطن ، فعاودها الهدوء، وكأنها لم تعد تهتم بشىء ، وقد كادت تنسى عار ماضيها ، وما يصحبه من تهديد مسلط فوق مستقبلها .

وفى تلك الظروف ، عادت أسرة هوك الى مدينة (تونيان) ، وقد تأخرت قليلا عن الموعد الذى حددته من قبل .. وكان بول دلكومب قد عين رسميا فى **المدينة ، وقد اعتزم ان يتخذ** له — ولزوجته — منزلا خاصا جديدا .. وهكذا كان مقدرا أن يخلو « منزل الغابة العذراء » من السكان مرة أخرى ، اذ أن القس « هوك » لم يكن يعتزم البقاء فى (تونيان) — بعد أن خلفه صهره فيها — سوى المدة الكافية لاعداد منزل « بول » الجديد للسكنى .

وكانت « كاميل » مضطرة — فى بادىء الامر — الى أن تجيب الاناث الاربع عن أسئلتهن الكثيرة عن الضابط جياكوميتى ، فراحت تبذل مجهودا كبيرا فى ذلك ، اذ كانت كل كلمة تسمعها منهن عن الرجل ، تنكأ فى نفسها ذلك الجرح الذى كان قد أوشك أن يندمل .. على ان فضولهن لم يلبث أن انتهى تدريجا فتحولن عن هذا الموضوع .. وعادت كاميل الى عادتها القديمة فى ملازمة مدام هوك وبرت ومارى ، بل انها أصبحت اشد حرصا على صحبة الفتاتين ، وكأنها أرادت بمرافقتهما أن تغتسل فى ماء طاهر ، أو أن

تجدد من قوة قلبها البائس ! .. وبدا لها ـ على مر الايام ـ انها نسيت أصول ذلك العلم الذى تلقته على يد عشيقها ، فكانت تستطيب أن ترى نفسها بصحبة هاتين العذراوين ، حتى تبدو عذراء طاهرة مثلهما !

***

لكم كان ذلك الغرام القاسى ـ الذى اعترض حياتها ـ حلما جميلا ، ولكنه مروع ! .. واستطاعت ان تقضى أياما كاملة لا تفكر فيه .. بيد أن ذكراه لم تلبث ان عاودتها بشدة ، فملأتها هما ، وامتصت تورد وجهها ، وحملتها على أن تردد لنفسها : « اذا كنت أحمل جنينا فى أحشائى، فماذا تكون العاقبة ؟ » .. ذلك لأنها كانت ـ حتى ذاك الحين ـ تؤثر أن ترتاب فى انها حامل ، تهربا من رهبة الموضوع !

وانتهزت فرصة غياب الطبيب عن المنزل ، فأقبلت على كتبه للمرة الاولى، وقد تصبب العرق على وجهها، واضطرب جسمها .. ووضعت يدها على الموسوعات الخاصة بأمراض النساء ، وراحت تقلب صفحاتها ، وهى تحاول أن تتعرف على البوادر التى تظهر على المرأة اذا كانت حبلى .. ولكنها اخفقت فى محاولتها ، لغموض التعبيرات العلمية بالنسبة لجهلها .. كل ما أمكنها أن تصل اليه ـ بعد الذى قرأته ـ هو أن الاساس الذى بنت عليه ظنها لم يكن صحيحا ، وان شهورا طويلة قد تمضى دون أن تتجلى لها الحقيقة ..

وساعد على التخفيف من قلقها ما كانت تعرف عن والدها من دقة ، فهو ـ بالرغم من دقته هذه ـ لم يلاحظ عليها شيئا ، بل ظل دائم الاعجاب بصحتها ، وكانت برت ومارى تشاطرانه هذا الاعجاب .. أما مدام هوك ، فكانت الوحيدة التى كان القلق يتولاها ، كلما انفردت بالفتاة ! .. وكان هذا

القلق يذهب بها أحيانا الى درجة أن تهم بمفاتحة «كاميل» به ، ولكنها كانت تمسك لسانها — فى اللحظة الاخيرة — مترددة ..

وبدأت المرأتان — مدام هوك وكاميل — تشعران بالضيق والحرج كلما اجتمعتا معا ، حتى انتهى الامر بأن أخذتا تتحاشيان أن تجتمعا على حدة ، بنجوة من القوم .. بل ان منظر مدام هوك أصبح يثقل على « كاميل » ويزعجها . حتى مع وجود برت ومارى أو غيرهما من أعضاء الاسرتين .. ولذلك فانها — على الرغم من الحزن الذى شعرت به كاميل لفراق الاسرة الصديقة — أحست بالخلاص والراحة عند رحيلها أخيرا عن (تونيان) !

وعادت كاميل — بعد ان اصبحت بلا أنيس سوى والدها — الى نظام حياتها السابق دون مجهود كبير .. فكانت تستيقظ متأخرة ، فى كل صباح ، وتصحب والدها — بعد ظهر كل يوم تقريبا — فى جولاته ، وتتحاشى اختراق وسط المدينة ، لاسيما المكان الذى كان متجر « لارتيج » يقوم فيه ، اذ كان لارتيج الشاب يحدق فيها بجراة غريبة .. وأصبحت تجد متعة فى ان تنطلق بالعربة فى الريف الجميل ، حيث كان الهواء يداعب أوراق الاشجار !

وأخذت الايام تمر .. واقترب الموعد الذى كانت «كاميل» قد توقعت أن تستطيع عنده التأكد من الحقيقة ، فتعرف ما اذا كانت حاملا ، أم لا .. فان الطبيعة وهبت الانثى امارات تعاودها فى مواعيد معينة من كل شهر ، وتساعدها على البت فى مثل هذا الامر .. وكانت « كاميل » ترتقب هذا الموعد بقلب واجف ، وتقول لنفسها : « اذا تغيرت أمارات الطبيعة — فى هذه المرة — فسأصبح معرضة للهلاك ! »

وحل اليوم الموعود ، الذى كانت ترقبه فى خوف ولهفة

.. وراقبت نفسـها طيلة النهـار ، ثم طيـلة الليل ، دون ما بادرة تطمئنها .. ما كان أقساها من ساعات تلك التىمرت بها ، دون أن تقوى على أن تبوح بسرها لأحد !

ومر يومان وهى نهب للأمل الواهن واليأس القاتل، تصور لنفسها - فى فزع - موقف أبيها يوم ينكشف عارها ، وتقول لنفسها : « لسوف يقتلنى ! »

ولم تحاول أن تعلل لنفسـها سبب ذلك الخوف العظيم الذى كانت تشعر به من ناحية والدها ، مع أنه لم يظهر لها طول حياته سوى العطف الشديد .. وأخذت تتصوره وهو فى سورة غضبه ، مع أنها لم تره فى يوم من الايام الا هادئا رزينا .. وكان الخوف القاتل يعتصر قلبها، والحيرة تعصف بعقلها .. وفكرت فى الهرب من المنزل ، ولكن الى اين تهرب ؟ .. ثم فكرت فى أن تصارح « مارت » بالحقيقة ، ولـكن « مارت » كانت تعيش فى عزلة كما هى عادة حديثى العهـد بالزواج ، فلم تعد تراها الا نادرا .. ثم ، ما الذى كانت « مارت » تملك أن تفعله من أجلها ؟

وتحولت تفكر فى الموت !

وراحت تتصور نفسها وهى تهبط - فى بهيم الليـل - تلك الدرجات المؤدية الى ضفة النهر ، ثم تلقى بنفسـها فى ذلك الفراغ الاسود .. ولكن شبابها مالبث أن ثار ، واخذ يحتج بشدة ضد هذا الخيال المرعب .. ان الانتحار معناه التشويه الجسدى .. تشويه الجسد من كل اطرافه .. ذلك الجسد البديع الذى كانت تهيم به غراما . لقد ثار عليها قلبها لمجرد ان تصورته فى حالة الموت وقد دب فيه التلف !

وراحت تتعذب ، وكان النوم قد تعلم كيف يهـرب من جفنيها ، فكانت فى اثناء تلك الليالى - التى لا نهاية لها - تفتح نافذتها فى بعض الاحيان، وتتكىء على حافتها .. تتكىء

وحدها الآن ، وقد أخذت تعانى تباريح الذكريات .. ترى هل كان تأثير حالتها الفكرية المضطربة هو الذى جعلها تعتقد - فى أحيان كثيرة - انها رأت وراء سياج الحديقة شبحا ، يشبه ذلك الشيخ الذى رأته هى و « جياكوميتى » ذات مساء ؟ .. وقررت الا تخبر والدها بشىء من أمر ذلك الشبح ، حتى لا تكشف عن هواجسها وأرقها . وأصبحت - كلما اجتمعت بوالدها - تشده ارادتها ، وتحاول أن تتشبث بشىء من هدوئها الخارجى ، الا أن شحوب وجهها كان ينبىء عن آلامها .. وكان « جوفر » يراقبها بقلق بعد أن لاحظ تغييرا طفيفا على شكلها ، وبعد ان أجابته ، اذ سألها عنه :

- لست أشعر بشىء ياوالدى .. ليس بى شىء البتة .. أؤكد لك ذلك ، فان صحتى على خير حال !

ومر اسبوع :. وفى ليلة الجمعة - التى تلت اليوم الذى تاكدت فيه كاميل من حالتها الصحية - غشى النعاس جفنى الفتاة ، إذ كان جسمها المتعب يطلب الراحة .. وأفادها ذلك النوم كثيرا . فلما استيقظت ، كانت الشمس قد ارتفعت فى كبد السماء ، فأغلقت عينيها ، وظلت فى فراشها مستيقظة دون حراك .. وكانت تغاريد الطيور الصغيرة تتجاوب فى الحديقة ، وباعة الخضر يصيحون فى الشوارع ، و « ارما » قد بدأت تسكب الماء فى الشرفة لكى تنظفها وهى تطلق - من وقت لآخر - تلك الضحكة غير الآدمية !.. حتى اذا كانت الساعة العاشرة ، سمع طرق على الباب الخارجى .. وكان اليوم هو « يوم السوق » ، وقد اعتاد الطبيب أن لايغادر المنزل المنعزل فى هذا اليوم، فلا بد ان يكون الطارق مريضا او رسولا من مريض .. وذهبت «ارما» لتفتح الباب،

وما لبثت ضحكتها أن ترددت فى الردهة ، ثم أعقبهـا وقع أقدام ..

وسمعت كاميـل - وهى نصف نائمة - صـوت الزائر عندما دخل الى مكتب والدها .. فقد تناهى الصوت اليها ضعيفا جدا - فى مبدأ الامر - فاستطاعت ان تستبين منه بضع كلمات .. ثم غاب صـوت الزائر ، واستمر صـوت الطبيب برهـة لتعقبـه قهقهـة حملت « كاميـل » على أن تستوى جالسـة فى فراشـها .. وما لبثت ان سمعت صوت باب غرفة مكتب الطبيب وهو يفتح فجأة ، وصـوت « جوفر » وهو يقول : « سأرى .. انها كسول جدا ، كما انها تشعر ببعض التعب فى هذه الايام » .

واقترب الطبيب من غرفة « كاميل » ، وطرق بابها وهو يناديها ، فهتفت مجيبة : « نعم ياوالدى..من الذى حضر ؟ »

- انه زائر يريد رؤيتك .. هل استيقظت ؟

- نعم ، سألحق بكم فى الحال !

فكرة واحدة جالت بخاطرها ، فاحمرت لها وجنتاها .. لقد خطر لهـا أن الزائر هو « جياكوميتى » ، وقـد عاد بالتأكيد .. وخيل اليها ان الصوت الذى سمعته - منـذ برهة - كان صـوته هو .. وأسرعت تقفز من فراشـها ، وتناولت ثوبا جميلا كانت أسرة « هوك » كلها قد اشتركت فى اعداده لها ، فأخذت ترتديه كالمحمومة ، وهى تتـأمل شكلها فى المرآة ، فلم ترَ نفسها - فى وقت من الاوقات - اجمل منها فى هذه المرة ، وزادها حسنا تلك الحرارة التى بعثت الدماء فى خديها ، وتلك النظرة التى انبعثت من عينيها !

***

والآراء تتضارب - عادة - فى الراس ، فى لحظات معينـة شبيهة بتلك اللحظة التى كانت كاميل تمر بهـا .. لذلك

راحت الفتاة تسائل نفسها . أى مظهر تتخذ أمام الضابط اتستقبله ببرود ، أم تمد اليه يدها مصافحة ، وتنسى كل ما حدث ما دام قد عاد اليها فى النهاية بمحض اختياره ؟ !

وخرجت من غرفتها وقد نسيت ـ لفرط اضطرابها ـ أن تغيب قدميها فى جوربين ..

وكان الضيف يجلس مع أبيها فى الغرفة الملاصقة لغرفتها، ولا ريب انهما كانافى انتظارها .. ولكنها لم تكد تجتاز الباب ، حتى تلقت صدمة كاد قلبها يقف من قسوتها .. فقد أخذت عيناها تبحثان عن « جياكوميتى » ، ولكنهما لم تجدا الى جانب والدها الا شابا أسود الشعر ، له وجه جميل جدا ، وعينان زرقاوان ثبتهما عليها .. وقال للطبيب وقد أشرق وجهه : « وبعد ، يا كاميل .. الا تعرفينه ؟ »

ونبهها هذا النداء من غفوتها ، فأنعمت النظر فى الرجل الغريب ، الذى تمتم قائلا : « احقا تغيرت الى هذا الحد؟ » .. كان الصوت الذى نطق بهذه الكلمات ، والنظرة التى انبعثت من عينى الفتاة ، يدلان على انفعال نفسى شديد ، ممتزج بكثير من الرجاء ، والاعجاب ، والتأنيب الرقيق ، مما شق الحجاب المسدل على قلب كاميل ، فتمتمت قائلة : « لويس ؟ ! »

وتقدم منها الشاب ، ومد اليها ذراعيه .. وقال الطبيب : « هيا يا بنى ! .. قبلها كما كنت تفعل فى الماضى ! » .. وجذبها الشاب اليه برفق ، وقد طغى اضطرابه على خجله ، وطبع قبلتين خفيفتين : واحدة على كل من الخدين الاحمرين. واحست بجسمه وهو يقترب من جسمها ، فابتعدت وقد علا وجهها الشحوب ، وشعرت بشىء من الارتباك ، ثم اندفعت الى ذراعى والدها، لتحتمى بهما وتخفى اضطرابها ..

وبينما كان الطبيب يرفعها اليه ليقبلها ، وقد اشتد فرحه

هو الآخر، سقط أحد نعليها على الارض، وبدت ساقها العارية أشبه بساق تمثال وردى اللون .. بل كالزهرة اذا تفتحت أكمامها !

وحول « لويس » نظره ـ وقد تغلب خجله على ارادته وتظاهره بالهدوء ـ ولم يسعه فى النهاية الا أن يغادر الغرفة، ويتجه نحو الحديقة ، حيث تبعه جوفر ـ بعد لحظة ـ وهو يقول : « انها ذهبت لتستكمل ارتداء ملابسها » .. ثم جذب الشاب من كتفيه ، وألقى عليه نظرة حادة ، غاصت فى عينيه الزرقاوين حتى وصلت الى روحه ، وقال له بلهجة جدية :

ـ يا عزيزى لويس ، آه لو علمت كم أنا سعيد بعودتك .. حقا ، انني اشعر كأن الذى عاد الى بعد أن فقدته زمنا ، هو ولدى فعلا !

وأجاب « لويس لوت » ، وهو يجذب الطبيب اليه ، يطبع قبلة الابن لوالده على جبينه : « وأنا الآخر ! .. أنا أيضا لا أقوى على أن أعبر عن فرحى بعودتى الى هنا .. لقد ظلت ذكرى صباى منطبعة بوضوح فى نفسى ، وكان غاية أملى فى الوجود، بل كان محور ذكرياتى كلها ، هو « المنزل المنعزل » وأهله ! .. آه ! هل لك أن تفيض على من حبك يا دكتور لان .. » . واختنق صوته لحظة ، ثم قال : « لان والدى قد ماتا » .

وتناول الثلاثة طعامهم فى ذلك اليوم ، تحت شجرة التين ، وقد شملتهم سعادة جعلتهم كالاطفال . ولم يشعر الطبيب ولا لويس بشىء من الملل ، وهما يطيلان النظر الى كاميل .. وقال لويس : « لقد كبرت يا كاميل .. ما كنت أظن ابدا أنها ستكبر حتى تصير بهذا الحجم ! » . فتأملهما الطبيب لحظة ، ثم قال لابنته : « أظنه أكبر حجما منك يا كاميل» .

.. وضمهما الطبيب الى صدره طويلا ، وقد طفر الدمع من عينيه ، وهو الذى ندر أن بكى فى حياته..

(انظر صفحة ١٥٠)

ونهضت الفتاة والشاب عن المائدة ، ووقفا ملتصقين ـ جنبا الى جنب ـ ليرى أيهما أكبر حجما من الآخر .. فهتف الطبيب : « يا لله !.. ما اشق الحكم ، فأنتما تكادان أن تكونا متعادلين ! .. على انك يا كاميل تبدين عن كثب أكبر من لويس حجما ! »

وكان لويس يكثر من الاسئلة ، ويقص كل ما تخلل حياته خلال الاعوام التسعة الماضية .. كانت حياة بسيطة تلك التى عاشها ، فمن (مرفيل) الى (باريس) ، الى الكلية .. وقالت كاميل ، تقطع عليه استرساله : « ولكن كان من مساوئك انك لم تكتب لى خطابا منذ تسع سنوات ! » .. وتضرج وجهها خجلا وهى تقول له ذلك . فألقى عليها لويس نظرة حانية من عينيه الزرقاوين ، وقال :

ـ من حقك أن تؤنبينى على ذلك، ولكنى وجدت أن الكتابة تضايقك ، فأمسكت عنها !

وابتسمت كاميل وقالت : « آه ! .. لقد كنت طفلة فى ذلك الوقت ! »

وساد الصمت بضع لحظات ، أخذ الدكتور جوفر يغمر الاثنين خلالها بنظرات كلها عطف.. وراحا يستعيدان ذكرى الطفولة العذبة ، التى تمتعا بها بين تلك المناظر الطبيعية التى احاطت بهما ..

واحضرت « ارما » ـ الخادم ـ القهوة . ونظر اليها « لويس » دون أن يضطرب ، ثم اشاح بنظره الى الافق .. وكان الوقت ظهرا، فى شهر اكتوبر . وقال الشاب بعد برهة: « كل شىء مما يحيط بنا ظل على العهد به ، وكأن شيئا لم يتغيرفى بحر الاعوام التسعة الماضية ! » .. ثم نظر الى كاميل، وقال بصوت منخفض : « لم يتغير سوانا .. نحن الاثنان ! »

وعاودتهما الذكريات ، فجزع كل منهما اذ تبين انهما قد

تغيرا بمرور الزمن ، فى حين ظلت الطبيعة كما هى ، لاتتحرك ولا تتغير !

وهنا بدأ لويس يقص عليهما كيف مات والداه .. وكان والده الاسبق ، ثم تبعته والدته التى كان الشاب لا يزال يرتدى ثياب الحداد حزنا عليها ، اذ لم تكن قد انقضت على وفاتها مدة طويلـة .. وبدت كاميل مسـتغرقة فى التفكير لحظات ، ثم ما لبثت أن سألت لويس قائلة : « وذلك الخال الغنى .. هل لا يزال حيا ؟ » .. فأجابها :

– لا .. بل مات هو الآخر منذ شهور قليلة ، وهذا دعانى الى رفض قبول منصب حـكومى ، فقد أصبحت غنيـا ، استطيع أن أعيش معتمدا على ايرادى الخاص ، وسيكون لدى ما يشغلنى بكل تأكيد !

ونظر الى « كاميل » – وهو يقول هذه الجملة الاخيرة – فرآها تغض النظر بعينيها السوداوين .. واومضت عيناه اذ ظن انها حزنت لما سمعته من انه أصبح غنيا ، فقد اوحى له انها بذلك تشفق من أن يباعد بينهما الفارق فى الثروة .. وطاب له ذلك ، اذ رأى فيه دليل حبها له ! .. وسأله الدكتور جوفر : « أحسبك ستبقى معنا فترة من الزمن .. اليس كذلك يا بنى ؟ » . فأجـاب لويس : « بلى .. وقد حجزت لى غرفة فى فندق اوربا » .. وفكر الطبيب مليا ، ثم قال :

– يؤسفنى كثيرا ان اعتذر لك عن عـدم استطاعتى ان استضيفك فى منزلى ، فأنت تعلم الشىء الكثير عن عقلية أهل هـذه القرى الصـغيرة وتفـاهة تفكيرهم .. ولكن عدنى أن تتناول طعامك هنا كل يوم ، وأن تعتبر هذا المنزل كمنزلك .

وصافح لويس صديقه القديم ، وهو يقول : « أعدك ! » . ثم أردف :

ـ اليس السبب فى عودتى الى هذه المدينة ، هو رغبتى فى زيارة « المنزل المنعزل » وزيارتكم ؟ !

***

وبعد ظهر ذلك اليوم ، ترك الطبيب الشابين معا ساعات طويلة ، فجلسا فى الشرفة . وكان الجو بديعا .. وأخذت كاميل توجه الى صديقها القديم الف سؤال عن الماضى الذى فرق بينهما ، وراحت هـذه الاسئلة تتجـه تدريجا نحو المسألة الوحيدة التى كانت تهتم بها الفتاة ، وهى ما قد طرأ على قلب لويس طوال مدة ذلك الغيـاب .. واستجمعت عزمها ـ فى النهاية ـ على أن تسأله صراحة ، فقالت : « كم من الزمن ـ بعد وصولك الى مرفيل ـ ظللت تفكر فى .. صداقتنا ؟ » .. وودت أن تقول : « ظللت تفكر فى » ، ولكنها لم تجرؤ !

وأجاب لويس : « لا تضعى السـؤال بهذا الشكل ، والا عجزت عن الاجابة ، وانما قولى : الى متى طال احتفاظك بذكرى حياتنا المشتركة ؟ .. لقد احتفظت بتلك الذكرى طوال مدة الفراق .. واسألى بعد ذلك : هل ظللت ـ طول تلك المدة ـ تحس بنفس المشـاعر ؟ .. فأجيبك بصراحة معترفا بأن تأثرى بها كان قصير الاجل .. استمر بضـعة اشهر ، حتى اذا اعتقدت اننى اصبحت منسيا ، تألمت أقل مما كنت أتوقع ! »

وهنا ظهر الاسى على وجه كاميل ، فأخذ لويس يدها فى يده ، ولكنه لم يضغط عليها ، وقال :

ـ لا تتهمينى بأننى نسيتك .. صحيح أن فورة الالم لم تلبث أن خمدت ، وأن الاعصاب الثائرة سرعان ما هدأت ، ولكنى أعيد على مسامعك أن الذكرى قد بقيت حية فى قلبى !

وسكت قليلا وهو يفكر فيما كان يريد قوله ، ثم استمر

فى حديثه : « ها انتذى ترين انها مصادفة سعيدة هذه التى فرقت بيننا ! .. فقد كان قلبانا وقتئذ أرق من أن يحتملا ذلك الغرام ، ولا ريب أنهما كانا معرضين للعذاب بسببه .. او هكذا كان قلبى أنا — على الاقل — اذ كنت عندما افترقنا، مدلها فى الهوى ، شأنى اليوم تماما ! »

ولم تجب كاميل على تلك الكلمات ، فقد كانت متأثرة ومضطربة فى آن واحد ، لانهما تحدثا عن الحب الماضى كما لو انه كانا عاطفة جدية .. وبدت لهما شخصيتا الطفلين الصغيرين — كما كانا اذ ذاك — مختلفتين كثيرا عن شخصيتيهما الحاضرتين .. واحسا باضطراب لم يشأ كل منهما أن يبوح به ، بعد أن اتصلت تلك السلسلة المنفصلة من الذكريات التى كانت تربط حاضرهما بماضيهما البعيد .. وقالت كاميل لتقضى على ذلك الحرج الذى ساد بينهما ، حين كفا عن الكلام : « وماذا جرى لصديقك روبير كلاييس ؟.. » . فأومضت عينا لويس دهشة ، وهتف : « ماذا ؟.. اتعرفينه ؟ » .. فقالت ضاحكة : « آه ، ان ذاكرتى اقوى من ذاكرتك ..أبق هنا فسأبحث لك عن شىء .. بل تعال معى ! »

وتبعها الى غرفتها ، وتركته يدخل معها .. يالنزق الانوثة ! .. لقد دخلت — فى تلك اللحظة — الغرفة المدنسة، وهى رافعة الراس اكثر منها فى اى وقت آخر ، كأن عودة لويس وحبها الطاهر له ، قد محيا من نفسها كل استحياء من الحاضر ! .. وفتحت احد ادراجها، فأخرجت منه خطابا اصفر لونه ، وعرضت هذه الفقرة من الخطاب على لويس :

« وهناك عرفت صديقا ، هو اول الفصل ترتيبا ، واسمه روبير كلاييس .. وما أكثر احاديثنا عنك ! »

وتأثر لويس حتى كاد يبكى .. ولم يجد ما يقوله فى مبدأ الامر، ولكن ما هى الا ان اخذ بيد كاميل فى يده وقبل اطراف أصابعها ، حتى قال : « آه ! كم انا سعيد لان اسم روبير قد

جدد الذكرى ، فقد .. » . وتردد قليـلا ، ثم استطرد يقول : « فقـد كان روبير الشخص الذى أوليته من حبى مالم أول اى انسان ، اللهم الا مخلوقا واحدا آخر .. وهو طيب القلب ، حاد الذكاء ، جميل الشكل .. واننى لارجو أن تلتقى به يوما ، فقـد وعدنى بالمرور على (تونيان) ، عنـد سفره الى ايطاليا فى هـذا الشـتاء .. وكم حدثته عن نهر الجارون ، وعن المنزل المنعزل ، وعنك .. حتى أصـبح فى شدة الشوق لرؤيةكل هؤلاء ! »

وسألته كاميل : « وهل كان زميلك فى الدراسة العليا ؟ »

ـ كلا .. ولكن ذلك لم يفرق بيننا .. لقد اختار لنفسه ـ فى النهاية ـ دراسة الطب .

ـ وهل يشتغل الآن طبيبا ؟

ـ كلا . .لقد اشتغل بالتدريس فى احدى الكليات مدة من الزمن ، ثم استقال بسبب مشكلات تتصل بوظيفته .. ولما كان غنيا ، فقد أخذ يقضى أوقاته فى السياحة ، وهـذه تقريبا هى الحياة التى سأعيشها . اذ اننى ـ منذ توفيت والدتى ـ اجد نفسى فى مثل ظروفه تمـاما ، فكلانا يـكره الوظائف الرسمية كرها عظيما ، وكلانا يحب الدراسة كثيرا ، لولا أن روبير يميل الى الكتابة ، اما أنا فان اللذة التى أجدها فى القراءة تمنعنى دائما من الكتابة !

ونظرت كاميل الى الخطاب الذى كتبه لويس ـ حين كان فى صـباه ـ وعلق نظرها باسم روبير كلاييس .. وراحت ترسم فى خيالها صورة لصاحب الاسم ، ثم اندفعت تقول ، وهى تعلم انها تزداد بذلك اقترابا من قلب لويس :

ـ يخيل الى اننى سأحب صديقك كثيرا .

فضغط لويس على يدها ـ التى ظل محتفظا بها فى يديه ـ وقال : « أجل ، يجب أن تحبيـه ، فهو رجل كامل ، وهو الرجل الوحيد الذى اقدره الى جانب والدك ! »

***

وعادا الى الحديقة ، فاتكآ معا الى حافة سياجها ، وأخذا يتأملان جمال الطبيعة فى صمت ، وقد امتلأ قلباهما تأثرا بما كان يحيط بهما . . وما لبثت كاميل ان قطعت حبل السكوت قائلة : « ان النســاء جميــلات جــدا فى باريس . . أليس كذلك ؟ » . فأجاب لويس :

ـ بلى . . فى باريس كثيرات من النساء الجميلات ، ولكنى لا اذكر أنى صادفت هناك امرأة فاتنة حقا !

وودت فى تلك اللحظة لو سألته : « وهل أنا أجمل منهن ؟ » . . الا ان حياءها منعها من ذلك . بينما أردف هو مبتسما : « لعلى أقول هذا لأننى كنت أقارنهن جميعا بصورة امرأة منطبعة فى ذاكرتى ، ولا اظن ان جمالا آخر يمكن أن يقارن بجمالها ! » . . وقالت كاميل فى نفسها : « انه يقصدنى أنا ! » . . ولكنها تمنت أن يقول ذلك صراحة . . ولكى تضطره الى التصريح ، سألته جاهدة الا يبدو تحـايلها فى لهجتهـا : « لاشك انك اسرفت هناك فى الغراميات ؟ »

ـ أسرفت ؟ ! . . لاشك انك لا تعرفيننى جيدا !

ـ ولكنك على أية حال ، قد أحببت .. واحدة على الاقل ؟

وتردد لويس ، ثم قال بصوت خافت ، كأنه يحدث نفسه :

ـ ان المرء يذكر ماينتاب قلبه ، ولكننى اظن أن تاريخى يسير كما يلى : فى مبدأ حياتى أحببت حبا مبكرا قبل أوانه . . كانت لى عاطفة الرجل ، فى قلب الولد الصغير . . وكان تأثير ذلك كتأثير البذور فى أرض مجدبة ، فما لبث قلبى أن تحطم فترة من الزمن . . ثم جاءت أعوام الدراسة فى الكلية ، فهدأت عاصفة الحب فى قلبى . . فضلا عن اننى أيقنت من ان الطرف الآخر قد نسى أمرى . . وشعرت بشىء من الثورة وانا أستعيد ذكرياتى ، التى كانت ولا تزال تحتفظ ببهائهـا . . وعشت قانعـا بهـذه الذكريات ، الى جانب صـداقة

« روبير » ، حتى جاء اليوم الذى وجدت فيه نفسى حرا ..
وقاطعته كاميل قائلة : « وبعد ذلك .. هل أحببت ؟ »
ــ لقد ظننت على الاقل اننى أحب ، ودام ذلك عاما ، وربما أكثر من عام .. وكان من أغرب الظواهر ان الماضى لم يكن أشد تأثيرا على نفسى فى وقت من الاوقات ، منه فى تلك الشهور .. وما أحسب فى وسع أحد أن يفهم حقيقة ذلك ، مالم يجربه بنفسه !
وكان يتوقع أن يسمع كلمة تشجيع من كاميل ، كأن تقول له : « نعم أنا أفهم ذلك ! » .. ولكن الفتاة كانت قد كفت عن الاصغاء لحديثه ، ولم يعد يشغلها سوى شىء واحد هو : ان لويس قد أحب امرأة غيرها !.. ومن ثم عبرت له عن غيرتها بهذه الكلمات التى خرجت من فمها بعناء بالغ : « وهل كانت جميلة ؟ » .. فتردد لويس ، وكأنه فى شك من مقدرته على الاجابة ، ثم قال :
ــ كيف أرد على هذا السؤال ؟ .. من العسير وصف جمالها أو قياسها بدرجات الجمال المألوفة ، ولكنها ــ على أية حال ــ أثرت فى نفسى تأثيرا شديدا .
وتبع ذلك سكون شامل ، لم تكن تعكره سوى ريح خفيفة هبت على الحديقة ، فحركت أغصان الاشجار الجافة .. وأحس الاثنان بقطرات خفيفة من الماء تتساقط ، منذرة بأمطار مقبلة .. وقالت كاميل أخيرا : « ان السماء تمطر ! » .. وسكتت لحظة ، ثم أردفت على الرغم منها : « أحسبك ستتزوجها ولا ريب ؟ »
وتهيأ لويس لمغادرة الحديقة ، وهو يقول : « ان المطر يشتد ، فهيا بنا الى داخل المنزل ، اذا شئت ! » .. وفيما كانا يسيران نحو الدار ، وضع الشاب يده على ذراع كاميل وقال : « لا ، لن اتزوجها .. أما السبب فهو اننى من المؤكد قد أخطأت بحبها ، فهى من النساء اللاتى لايتزوج منهن احد ! »

واشتد المطر فى تلك اللحظة ، وبدأ البرق .. كان مطرا من ذلك النوع الذى يسقط فى نهاية الصيف .. ووقف لويس وكاميل فى ركن من أركان الشرفة ، يشاهدان البرق والمطر ، وعلى شفتى كل منهما كلمات كثيرة ، يود لو يجد لها مخرجا بأية وسيلة من الوسائل ، ولكنه لم يكن يجرؤ على ذلك .. فقد كانا يشعران أن الوقت لم يحن بعد !

وانقذهما من هذا الحرج عودة الطبيب ، وقد أثقل البلل ثيابه .

وفى ذلك المساء ، ما ان أغلقت الفتاة باب غرفتها ، حتى ألقت بنفسها على فراشها ، وهى لا تزال بملابسها ، وأخفت رأسها بين الوسائد .. كانت فى حاجة الى السكون والظلام ، فقد أحست نفسها ثملة . ولكن النشوة لم تلبث أن أخذت تتبدد من رأسها تدريجيا .

وعاد اليها شبح الذكريات المخجلة ، وآلام الحاضر التى كانت قد نسيتها بسبب عودة لويس الفجائية . ورأت الاطياف المرعبة تتحرك حول فراشها ، وتبعث الرغبة فى نفسها من جديد ، وهى تهتف فى فحيح : « ان فى أحشائى جنينا .. اننى حبلى ! » .. كان « الجنين » هو الداء الذى ليس له دواء بالمرة ! .. أيها الاله الاعظم ، أى تأثير أحدثته عودة صديقها القديم على موقفها ! .. لو ان الخطر كان مشهرا من الخارج ، لكان من المحتمل أن تقوى على دفعه ، لكن الخطر ــ الذى كان يتهددها ، من حين الى آخر ــ كان كامنا فى أحشائها ، لا يمكن أن يقضى عليه الا الموت !

وفجأة جلست فى فراشها ، واتكأت على وسادتها ، وهى مفتحة العينين .. واومضت فى رأسها فكرة سريعة ، مثل ذلك البرق الذى كان يخترق حجب السماء من وقت الى آخر .. فكرة اشمأزت منها فى اللحظة التالية ، واجفلت كما يجفل المرء من النار بعد ان تلسعه . فقد قالت لنفسها :

« لم يمض على ذلك غير شهرين ، ولن تظهر آثار الانتفاخ على جسمى قبل الشهر السابع ! » .. والى أن يحين الشهر السابع ؟ .. هذا ما أثار استنكارها ونفورها !

(٦)

لم يكذب لويس فيما قال ، ففى ثمانية أعوام من التسعة التى غابها ، كان كل ما يشغل المكان الخالى من قلبه ـ بعد حبه لوالديه ـ هو ذكرى « كاميل » وصداقة « روبير كلاييس » .. وكان الحزن لا يزال يغمر روحه ، عندما عاد الى (مرفيل) ، فعاش حينا من الزمن وهو يشعر بالاشمئزاز من كل شيء ، ويتقاعس عن كل نشاط .. واخذ يستعرض حلقات الماضى بمجرد أن وجد نفسه وحيدا ، وساءل نفسه: ترى هل كان كل ما مر به فى « الغابة العذراء » و « المنزل المنعزل » ، صحيحا ؟ .. وعلاقته بالدكتور جوفر ؟ ! .. وكاميل ؟ ! .. لكم شعر باليأس بسبب ذلك البعاد الطويل الذى كان يفرق بينه وبين كاميل .. ولكم بغض تلك البقعة من الارض التى قيدته فيها سجينا .. باريس التى كانت تختلف كل الاختلاف فى طبيعتها عن طبيعة منطقة (الجارون) العزيزة ، حيث قضى طفولته وصباه ! .. ولقد زاده أسى ـ اذ ذاك ـ ان فهم من صمت كاميل وامتناعها عن مكاتبته، انها قد نسيته . وظهر له ان العمل هو الملجأ الوحيد فانكب على دراسته ، وكلمات الدكتور « جوفر » لاتزال ترن فى اذنيه : « تعلم واحب ، فان العلم والحب هما اجمل مافى الحياة ! »

وانه لمدين حقا للعمل والاستذكار ، فقد كان فيهما شفاؤه من العذاب الذى استبد به ، حتى انه دهش لسرعة استعادته هدوءه ، ولاحتفاظه بحبه الشديد للفتاة الغائبة ، على الرغم مما اصابه من ألم بسيط ، وعلى الرغم من إيقانه

بعدم اهتمامها به !.. اجل ، انه لم يحقد عليها ، بل ظلت الصورة العزيزة فى ذاكرته ، وظلت صـاحبتها غاية أمله فى الحياة .. وكان يقول لنفسه ملتمسا لها العـذر : « انهـا لاتزال طفلة صغيرة ! » .. وهكذا كانت ذكرى السـاعات التى قضاها الى جانبها، غذاء كافيا يكفى قلبه وقتا طويلا .. ذلك لان شخصها كان أعظم ما أحب ، وان لم يشأ ان يعترف بذلك لنفسه !

وكانت صداقته لروبير كلاييس هى البلسم لجراح قلبه، فبرغم ان روبير كان يكبره بأربع سنوات ، الا انه كان زميله فى فرقته الدراسية . وكان يتيم الاب ، تزوجت أمه بعـد وفاة والده ، ثم توفيت ـ بعد زواجها الثانى بمدة بسيطة ـ فاضطر الصبى للاقامة مع زوج أمه ، ولم يكن يراه الا فى ساعات الطعام .. وكانت هذه الظروف القاسية كفيلة بأن تصقله ، حتى أن لويس كان ينظر اليه كما ينظر الى رجل كامل . وعلى الرغم من اختلاف عمر الزميلين ، الا أن الصلة بينهمـا توطدت ، ومال روبير الى لويس لرقة قلبه وذكائه وعلمه، كما مال لويس الى روبير لهدوئه وحكمه الصائب وميوله العلمية . وهكذا اكتشف الاثنان أنهما يشتركان فى المشاعر .

وتوثقت تلك الصداقة ، وازدادت الصلات فى ميـادين العمل والاستذكار والمستقبل ، حتى توطدت أواصر الاخلاص .. وهكذا قص لويس على صديقه « روبير » قصة غرامه الصبيانى ، فأحسن صديقه تلقى تلك الاعترافات . ومنـذ ذلك الوقت ، اخذا يطيلان الحديث عن « كاميل » .. وكان روبير يقول لصديقه لويس : « ما أسعدك اذ تجد من يحبك .. أما أنا فلم تسنح لى هذه الفرصة ! » .. وكان يشجعه على العودة الى مكاتبتها ، ويقول له : « انهـا قد تكون على

وشك نسيانك ؟ .. وقد يزوجونها ، اذ انهـا لن تلبث أن تصل قريبا الى سن الزواج ! »

ولكن لويس لم يكتب ، ولعل روح الكبرياء هو الذى منعه عن ذلك .. وكان يعتبر أن من الضعف أن يعاود الاتصـال بتلك الفتاة التى لم تعد تفكر فيه .. كان يرى ذلك ضعفا يتناقض مع تعاليم الدكتور جوفر التى ألقاها عليـه قبـل سفره ، فضلا عما كان يمـلأ نفسـه من الثقة العظيمة فى المستقبل ، وهى ثقـة لاتخـدع الارواح البريئة .. ارواح الشـباب ! .. لذلك كان لويس يقول لنفسـه دائمـا انه سيتصل بكاميل فى المستقبل ، وانها لا شك تبادله المكانة التى يحفظها لها فى قلبه وحياته .. ولكن روبير ظل يلح عليه بأن يكتب اليها ، ويقول له :

— بل اذهب الى هناك فى العطلة .. انها رحلة سهلة .. آه لو كنت فى مكانك ! !

ولكن لويس لم يكن ينعم بتلك الحرية التى كان يتمتع بها صديقه ، اذ كان عليه أن يقضى أحد شهرى العطلة عند خاله الذى لن يلبث أن يرثه ، والذى كان يقيم بالقرب من (مرفيل) . أما الشهر الآخر ، فكان قد اعتاد أن يقضيه مع أبويه ، فى مدينة سـاحلية .. وما كانا يسمحـان له بأن يقوم وحده بالرحلة الى (تونيان) ، لانه ظل — فى نظرهما — طفلا .. الى آخر حياة كل منهما .

وكرت الاعوام . فلما مات والد لويس ، نزح الابن مع أمه الى باريس ، وتبعهما روبير .. واشترك الصديقان معـا فى دراسة الفلسفة ، ثم افترقا ، اذ اختار روبير دراسة الطب ، بينمـا آثر صـاحبه « لويس » أن يـدرس الهندسـة ، ولكنهما استمرا على اللقاء كل يوم .. الا أن بعد المسافات فى باريس ، واختلاف دراسة كل من الشابين — كما حدث — باعدا بينهما .. ثم اضطر كل واحد منهما الى أن يلازم منزله

بسبب ظروفه ، فقد مرضت والدة لويس ، وأحزنها الا تجد زوجها الى جانبها فى هذا المرض . أما روبير ، فقد تعرف الى فتاة تدرس الموسيقى فى المعهد الفنى ، وتعلق بها حتى انه سكن معها فى منزل واحد ، ولم يعد يفارقها لحظة .

ولما ادرك لويس السنة النهائية من دراسته للهندسة ، ماتت أمه .. وضعضع المصاب حواسه ، ونكأ جراح قلبه ، اذ احزنه أن يفقد كل من يحب .. وفى ذلك الوقت زادت صلته بروبير ، واخذ يستمرىء صداقته أكثر من ذى قبل . وأخذ الطبيب الصغير « روبير » يلازم صديقه فى فترة حزنه على أمه ، ويعزيه ، ويواسى جراحه .. حتى اذا انقضت أيام الحداد ، حاول أن يثير اهتمامه بالحياة الخارجية .. تلك الحياة التى كان لويس ينزوى عنها . لذلك سعى الى أن يشركه فى شؤونه الخاصة .. بل لقد قاده الى منزله ، حيث لمس لويس فى الفتاة « لوسى مارتيل » ـ صديقة روبير ـ رقة وطيبة جذبتاه اليها .. وقدر فيها اخلاصها لروبير ، اخلاص الزوجة القروية ، كما انها أولته معاملة اخوية . لكن الالم كان لايزال يجيش فى صدر لويس . ووجد فى ذلك الظرف الذى كان يمر به ـ والحزن يملأ نفسه ـ ان دواءه الوحيد هو الحب . وكان روبير يعلم ذلك ، ولكن ما الذى كان يملك أن يفعل لصديقه ؟ .. كان لويس شديد الخجل من النساء ، وما كان يفكر الا فى الحب الشريف ، فلم تغره شهوة الجسد مرة واحدة ، بل ان نصيبها منه دائما كان الاحتقار والاشمئزاز .. وهذا كثير الشيوع بين رجال العلم!

والخطر فى مثل هذه الحالة كامن فى صعوبة الاقدام على التجربة الاولى .. ففى ساعات الفراغ القاسية ـ التى كان لويس يمر بها ـ كان طيف كاميل ـ الذى لم يمح فى نفسه ـ يسيطر عليه بقوة لم يعهدها من قبل ، حتى لقد أوشك على السفر الى (تونيان) أكثر من مرة .. ولم يكن هناك مايمنعه

عن ذلك .. الم يكن حرا ، فضلا عن انه صار غنيا اذ ورث خاله ؟ .. ولكنه مع ذلك ظل يؤجل الرحلة من شهر الى آخر ، اذ أن العودة بعد تسع سنوات ـ لكى يجدد غراما قديما ـ كانت تبدو ضربا من الخيال .. كما ان تلك الحياة « الزوجية » ـ التى كان صديقه روبير يعيشها مع خليلته ـ كانت أشد ايلاما لنفسه ، واثارة لحسرته .. وكم من مرة غادر « لويس » منزل صديقه الطبيب وودعه وهو يقول له : « ما اسعدك ! » . فكان روبير يقول له :

ـ قل هذا بصوت مرتفع ، حتى تسمعك لوسى ، فهى تظن ـ وقد بدأت أظن معها انا الآخر ـ اننى لا أحبها الا بدافع من الرغبة !

ولم يلبث جلده ان وهن .. وعاد الى (تونيان) !

***

روى « لويس » كل هذه اللوعات ـ التى عاناها أثناء مقامه فى باريس ـ لكاميل .. وكانت الفتاة تنصت اليه مأخوذة ، فما خطر لها ـ وهى فى محنتها الاليمة ـ ان « لويس » كان مدلها بهواها الى هذا الحد ولا دار بخلدها ـ وهى تتلمس منقذا من المأزق الذى زج بها « جياكوميتى » فيه ـ انها ستجد لدى لويس كل هذا الحب الذى يضىء ظلمات ضائقتها ، ويفتح أمامها أبواب الامل من جديد !

وقال لويس أخيرا : « هاأنذا قد تغلبت على ما بدا منك من جمود فى الماضى ، وهاأنذا أعيد الحياة الى تلك الساعات ـ التى بدا خلال سنوات الفراق العشر ـ انها قد ماتت .. بل اننى أعيد الحياة الى ألذ ساعات .. الى الساعات التى سلبنى اياها صمتك الطويل ، وعدم استجابتك لرسائلى ! »

والحق انه شعر بسرور عظيم للعودة ، وبلذة عارمة لتلك الحياة التى تجدد عهدها ، وبشماتة المنتقم من ذلك العذاب

الذى عاناه فى سنوات الفراق .. وبدا عليه انه كان يستمرىء طعم السعادة على مهل ، فلم يتعجل النطق بالاعتراف الذى كان يتراقص على شفتيه ، وكأنما أراد أن يفسح للحب فترة يستعيد فيها قوة نموه ، وأن يمهل ذكريات الصبا كى تشغل من قلب الرجل ــ الذى صار اليه ــ ما كانت تحتله من قلب الفتى الذى كانه فى الماضى !

وراح يقرأ على وجه « كاميل » معالم محاولة كانت تهم بالقيام بها ، وطيف اهتمام باد ، مما أثار غبطته ، وزاده اعجابا بالفتاة .. ومن الممكن أن نعلل تصرفه بأنه شعر بأن الحب كان فى حاجة الى مزيد من وقدة الشوق ويقين التثبت .. وكان لويس يعرف ان كاميل فكرت فى الزواج منه ، فى الماضى ــ على الاقل ــ لانه لم يحط علما بما مرت به من تجارب فى غيابه .. كان يعرف أنها فكرت فى الزواج منه ، ولكنه أراد أن يزيل كل شك من ناحية حبها له ، فآثر التريث !

وكان ذلك التسويف يعذب الفتاة المسكينة، التى أحست ــ منذ عودة صديقها ــ بمعركة قوية تنشب فى نفسها .. معركة أقوى مما كان بوسعها أن تحتمل . وكانت ــ فى اللحظات الاولى ــ قد شعرت بأنها انتصرت فى هذه المعركة، فاستبعدت من خاطرها تلك الفكرة المروعة : فكرة خيانة لويس ، واستدراجه الى الزواج منها ليحميها من عار أمومتها المدنسة غير الشريفة وغير الشرعية .. الا أن الجبن البشرى ما لبث أن استولى على ارادتها دون أن تشعر ، وسيطر عليها ، فأخذت تلتمس لنفسها المعاذير ــ فى تبرير تلك الجريمة ــ برغم انها قررت الا ترتكبها ! .. وكانت تقول فى نفسها : « اذا كان يحبنى حقا ، فسوف يشقى اذا لم يتزوج منى ، فهل من حقى أن أجعله يتعذب ؟ .. وفوق ذلك ،

فأنا لست واثقة تمـاما ـ حتى الآن ـ مما اذا كان هنـاك جنينا فى احشائى حقا ! »

وهكذا ظهرت لها استحالة التفكير فى رفض طلب الزواج منه ، اذا ما تقدم اليها ، لاسيما ان الرفض كان كفيلا باثارة الشك فى نفس والدها الدكتور جوفر ، بلا ريب .. وارتاح قلبها المعذب لفكرة استحالة الرفض ، فقد تبينت انها كانت تحب لويس حقـا ، ولم تكن تكذب ، عنـدما أخذت تقول لنفسها : « اننى أعبده ! » .. فقد كانت تعبد فيـه ذكرى الفتاة العذراء التى كانتها ، وكل طفولتها المضاءة بلون الفجر الابيض .. كما كانت تعبد فيه الوسيلة الوحيـدة الممكنة للتكفير عن جريمتها ، فقد بدا لها انها عن طريق حبها للويس ومبـادلته عواطفه ، تستطيع أن تمحـو كل عار ، وتحيل الحاضر ـ الملطخ بالوحل ـ الى ماض نقى ، يسير الى جانب مستقبل شرعى أمين ..

وأخذ ذلك الشعور بالرغبة فى تجديد صفحة الحيـاة ، يختلط باخلاص مع حبها المستفيض ، حتى أدركت انه لم يعـد فى امكانها الاستغناء عن لويس .. وفى نفس الوقت ، اشتد اهتمامها بأمره ، فكانت تقول لنفسها : « ماذا ينتظر لـكى يقـول لى : انا أحبك ؟ ! .. اتراه يرتاب فى الحقيقة المؤلمـة ؟ » .. والفت نفسـهـا تفـكر فى تلك النظـرة الطويلة التى كان لويس يوجهها اليهـا فى بعض الاحيـان ، فيخفق قلبها خشية أن يكون قـد حدس سرها .. وكان جوفر يراقب ـ هو الآخر ـ العاشقين الصغيرين ، ويسأل نفسه قائلا : « ما الذى ينتظره لويس لكى يتكلم ؟ ! »

ولكن لويس ، وقد أصبح غنيا ، لم يشـأ أن يكون هو البادىء بالاعتراف بالحب ، فقد خيل اليه ان الفـارق فى الثروة قد يوحي الي الفتاة بأنه يشتريها !

***

على ان الاعتراف لم يلبث ان جاء ــ من تلقاء ذاته ــ فى نهاية المطاف .. ففى ذات مساء ، تركهما الطبيب وحيدين ، وانصرف لعيادة بعض مرضاه .. فقال لويس لكاميل : « مادام المنزل المجاور خاليا من السكان ، فما الذى يمنعنا من الذهاب لزيارة الغابة العذراء ؟ »

واجتازا السياج الفاصل بين الحديقتين .. ولما كانت حديقة المنزل المجاور قد أهملت منذ أسابيع ، فان الحشائش كانت قد بدأت تنمو فيها من جديد ، بالرغم من تأخر الفصل .. وكم كان غريبا منظر تلك الحشائش المترعرعة الى جانب أوراق الاشجار الذابلة المتساقطة ! .. وكان الهواء لطيفا ، تشوبه بعض البرودة ، كما كانت الاشجار العارية تكشف عن سماء صافية .

وسارا على مهل ، جنبا الى جنب .. ولما كان المطر يتساقط كل ليلة ، فقد أخذت أقدامهما تغوص فى الارض الطرية . ووقفا فى وسط الحديقة ، حيث كانت الاحجار تملأ سطح البحيرة .. وكان المقعد الحجرى قد اختفى ، فتمتم لويس قائلا : « هل تذكرين ياكاميل ؟.. هل تذكرين البلبل ؟ » . فهزت رأسها بالايجاب .. وجالت برأسها فكرة واحدة ، هى أن خطبتهما قد تمت فى نفس ذلك المكان، فى تلك الايام البعيدة الخالية ، ورغم انف كل شىء .

الا أن تلك الحديقة المهجورة ، التى تناثرت فيها أوراق الاشجار الميتة ، وذلك النهر الذى كان خرير مائه يصل الى آذانهما ، وذلك الظلام المخيم على جو الخريف .. كل ذلك بعث الحزن الى قلبيهما ، فلم يلبثا ان ارتدا بخطى بطيئة الى المنزل المنعزل ، وقد اشتبكت يداهما ، وراحت أصابع كل منهما تضغط أصابع الآخر بلطف . حتي اذا وصلا الي

غرفة الاستقبال الصغيرة ، ظلا صامتين مدة طويلة .. فهناك على الاقل ـ فى تلك الغرفة ـ لم يتغير شىء مما عهداه فى الماضى .. ونظر كل منهما للآخر ، ثم فكر فى طريقة يعبر بها عما يريد أن يقول .. فقالت كاميل : « فيم تفكر ؟ »

وكأن لويس قد استيقظ بتأثير هذا السؤال ، فنظر اليها نظرة طاهرة ، كلها حب وعطف ، وقال :

ـ اننى أفكر .. ما أحسبك تحدسين بتاتا فيم أفكر !

فتمتمت قائلة : « اقترب منى وأنا أسر اليك ، فى أذنك ، بما تفكر فيه ! »

واقترب منها وعيناه تقولان لها : « اننى أحبك » ، بوضوح يزيد على وضوح أية لغة أخرى .. وما لبث أن شعر بشفتى كاميل ، وهما تسران فى اذنه قولها :

ـ انك تفكر فى الطريقة التى ودعتك بها عند سفرك .. فيما مضى !

ورفع لويس ذراعه ببطء ، وطوق بها جسم الفتاة ، وهو يقول لها بصوت مختنق النبرات :

ـ هذا حقيقى ! .. هل تذكرين ؟ .. اما انا فيخيل الى اننى لم أعش منذ ذلك الوقت ، الا بذكرى تلك القبلة !

واسندت كاميل راسها الى كتف صديقها .. وفى تلك اللحظة نسيت كل شىء .. كل شىء ما عدا ذلك الحب المنتصر الفائز ، الذى بث فى قلبها حياة جديدة .. وقالت : « وأنا ايضا !.. لقد كان كل شبابى محصورا بين تلك القبلة .. » ، ومدت اليه شفتيها ، فلما اطبق لويس بشفتيه عليهما ، سمعها تهمس متممة جملتها الاخيرة : « .. وبين هذه ! »

القسم الثالث

(١)

عندما أسرعت كاميل – وهى ممسكة بيد لويس – الى والدها الطبيب ، ليصارحاه بغرامهما ، لم ينتظر الدكتور جوفر حتى يسمع منهما ذلك الاعتراف ، بل فتح ذراعيه توا ، وضم الاثنين الى صدره . فأخيرا ! .. أخيرا قدر لذلك الامل الذى طالما راوده – بأن يراهما زوجين – أن يتحقق .. وبعد ان رآهما حبيبين – فى صغرهما – ثم شهد فراقهما، هاهو ذا الامل يتحقق ، وفى نفس المكان الذى ولد فيه الحب بينهما !

وضمهما الطبيب الى صدره طويلا ، وقد طفر الدمع من عينيه ، وهو الذى ندر أن بكى فى حياته ، وتمتم قائلا : «أيها العزيزين ، أيها الابنين العزيزين .. ما أسعدنى اذ عشت حتى أرى هذا اليوم ! »

وكان يعرف أن تلك السعادة التى غمرته ، هى من صنع لويس ، فهو مدين له بها .. لذلك احتجزه بين ذراعيه مدة أطول ، وقد اشتد شعوره نحوه بالحب ، وكأن الشاب من لحمه ودمه .. بل كأنه كان يمت اليه ، أكثر مما كانت كاميل نفسها تمت اليه !

وكان الثلاثة يشعرون بالفرح العظيم لهذا الاجتماع ، فلم يسعهم الا أن يقرروا اختصار جميع الاجراءات التى قد تؤخر الرابطة السعيدة . وكانت كاميل أكثرهم سعادة ، حتى لقد خيل اليها انها تعيش فى عالم الاحلام .. ولعلها كانت تخشى وقوع حادث فجائى يوقظها من ذلك الحلم ، فأرادت أن تعجل بنقله الى الواقع ! .. بل انها كانت – فعلا –

تخشى عودة جياكوميتى ـ فى هذه الفترة ـ عودة فجائية ، كما يحدث فى الروايات ، حين يظهر الرجل الثانى فى يوم الزواج بالذات ، فيحول بين الزوجين وبين دخول غرفتهما المشتركة الجديدة !

وقبل توقيع عقد الزواج بيوم واحد ، حضر « روبير كلاييس » الى (تونيان) ، فاستقبله أهل « المنزل المنعزل » استقبالهم صديقا عزيزا يعرفونه منذ عشر سنوات .. وكان روبير من هؤلاء الرجال الذين يفوزون بمحبة الناس لهم بسهولة ، نظرا لطيبته البالغة .. ولكم أطال النظر الى « كاميل » ، حتى اضطربت تحت وقع نظرته المتفحصة ، الثاقبة .. نظرة الخبير الذى يسأل نفسه : « هل هذه هى المرأة التى يمكن أن تسعده حقا ؟ ! » .. على ان عواطف الشاب سرعان ما اتجهت الى الدكتور جوفر ، بدافع من ذلك الحب المنطوى على التوقير ، الذى كان لويس يكنه للطبيب.

وقامت بعض صعوبات عند توقيع عقد الزواج ، اذ رفض لويس ان يقبل صداق زوجته .. وانضم اليه صديقه روبير فى معارضة الطبيب فى هذا الامر ، وقال يخاطبه : « اى نفع يعود على هذا الفتى باستيلائه على هذا المنزل البعيد ، فى هذه المدينة المتطرفة ؟ .. وهل يزيد من سعادته أن يستولى على بضعة آلاف من الفرنكات ، قد تحتاج اليها انت ياعزيزى الدكتور جوفر حين تتقدم بك السن ، وتصبح غير قادر على العمل .. انك تؤمنه على سعادته بمنحه يد ابنتك ، وهو يجد فى هذا الكفاية .. وانه لعلى حق ! »

وأخيرا تم الاتفاق على الاسس الآتية : يعترف لويس لزوجته بملكيتها لمبلغ مائة الف فرنك . أما الطبيب جوفر فيهدى لابنته كاميل منزل « آل هوك » ، الذى اشتراه من أصحابه ، اذ ان الزوجين رغبا ـ بفكرة مشتركة أذكتها ذكرياتهما ـ فى أن يجعلا من « الغابة العذراء » مقاما لهما فى

الاشهر التى يقضيانها بمدينة (تونيان) من كل عام .. وكان من جـراء ذلك ان نقلت بعض قطع من الاثاث الى المنزل المهجور ، وتقرر أن يقضى به لويس وزوجته كاميل أسبوعين أو ثلاثة ، بعد الزواج ، ريثما يتعود الطبيب حياة الوحدة .. فاذا ما سافرا بعد ذلك ـ وكانا قـد اعتزما أن يرحلا الى ايطاليا ـ أعيد تنظيم المنزل وتأثيثه ، فى غيابهما .

وقال روبير لصديقه : « لسوف نتقـابل فى نيس ! » .
فقال لويس محتجا : « ولوسى ؟ .. ماذا تفعل وحدها ؟ »

ـ انك تعرف يا صديقى انها قد تضايقنا فى هذه الرحلة، ولهذا فقد رددتها الى أمها ، ولن أطلب منها الحضـور الا بعد أن نفرغ من رحلتنا ونفترق !

و فى صبيحة يوم الزواج ، انهار جلد «كاميل» وشجاعتها ، وشعرت برعب جديد حين اقتربت تلك الساعة التى تتمناها جميع الفتيات .. فقد أيقنت من أن لويس سيكشف سرها الرهيب فى تلك الليلة ، من أعراض لا سبيل الى اخفائها !.. افليس فى جسمها أثر للجريمة لا يمكن محوه ؟ .. وأخـذ الخوف يمزق جسمها كالسلاح الحاد ، وبرح بها التوجس وأضناها ، حتى انها شعرت ـ فى ذلك الوقت ـ بكراهيـة شديدة لجياكوميتى ، منتهك عرضها ! .. شـعرت بأنهـا تبغضه بكل ما فى نفسها من قوة على البغض .. ولم تستطع ـ طيلة ذلك اليوم ـ أن تبعـد عن فـكرها ذلك الخـاطر الرهيب ، فكانت شـاردة ، كالغائبة عن وعيها ، فى حفـلة الكنيسة والمأدبة التى أقيمت بعدها احتفالا بالزفاف .

وفى المساء ، أقبل عليها والدها يحمل فى يده خطابا تسلمه من البريد ، وقال لها : « ترى هل تحدسين مرسل هذا الخطاب ؟ »

واقشعر بدنها .. وقفز اسم على شفتيها ، ولكنهـا لم تجسر على أن تنطق به .. لقد همت بأن تقول : «جياكوميتى»،

لولا ان امسكت لسانها بقوة جبارة ، بينما استطرد الدكتور جوفر قائلا :

ـ انه من « روكبيكيه » ! .. ياهذا الشاب من غريب الاطوار ! .. تصورى انه كتب الى مهنئا بالزواج ، كان شيئا لم يحدث بيننا ! .. بل انه ليذهب الى ابعد من هذا ، فيخطرنى بعودته نهائيا الى المدينة بعد شهرين ، ويقول أنه سيكون له عظيم الشرف بالتعرف الى مسيو لويس زوجك !

وحاولت كاميل أن تبتسم ، فقد خلصها حديث أبيها من عذاب الحدس الذى خطر لها !

***

وعندما جن الليل ، وانفردت كاميل بزوجها فى غرفتهما ، اشتد كربها وألمها ، ثم انفثأ الهم فى سيل من الدموع المنهمرة ، فتحولت تلتمس الحمى فى كتف زوجها ، وقد اجهشت بالبكاء !

أما هو ، فقد شعر بالاضطراب بعد ان تحققت له تلك الامنية التى طالما تاق اليها قلبه من زمن ، فضمها بين ذراعيه ، واخذ يهدهدها ويستهويها بكلمات لطيفة ، كأنها طفلة خائفة أراد أن يبعث الطمأنينة فى نفسها .. وراح يردد لها : « كاميل ، يا زوجتى العزيزة .. مم تخافين ؟ .. انك تعلمين كم أحبك ، أليس كذلك ؟ .. أفلا تثقين بى ؟ »

وكان خوف لويس من المجهول ، واضطرابه العظيم ، خير مساعد لكاميل على أن تبدى ـ دون ادعاء أو تمثيل ـ كل مظاهر الزوجة العذراء ، وهى التى سبق لها أن شربت كأس الحب الجنسى حتى الثمالة .. فأصرت على اطفاء انوار الحجرة ، متظاهرة بالحياء ، وهى تقصد ان لا يرى زوجها طابع العار على جسمها .. وبدلال الحب ، اخذت تصطنع التمنع ، ولم تسلمه نفسها الا بعد لأى ، وقد سالت دموعها

مدرارا .. وهكذا امكنها أن تخدع زوجها ، بل ان المظاهر كلها كانت كفيلة بأن تخدع من هو أكثر خبرة من لويس الغر، الجاهل بهذه المسائل !

واخيرا شعرت أنها أصبحت زوجته حقا ، وانه يضمها اليه بذراعيه اللتين ستصبحان ـ منذ ذلك الحين ـ حصنها المنيع .. وانتشت وهى تشعر بقلبه يدق قريبا من قلبها .. قلبه الذى لم ينبض بغير حبها .. وبدأت تتذوق سكرة القبلة الاولى فى ظلال الزوجية والرباط الشرعى .. وخيل اليها أن ماضيها المر المؤلم قد فارقها ، وان سلسلة حياتها ـ التى كانت مبتورة الحلقات حتى الامس ـ قد اتصلت فى نهاية الامر ، والتحمت حلقاتها .. ووهبت لويس ـ فى هذه اللحظة ـ كل ما كان فى روحها من حب وعطف .

وهمست وسط ذلك السكون الذى تبع اتصال نفسيهما :

ـ اواه ، لكم أحبك ! .. **أبدا ما أحببت شخصا غيرك !**

ولم تكن كاذبة فى تلك اللحظة بالذات .. كانت تؤمن بذلك حقا ، وتعنى ماتقول صدقا !

وكانت أيام سعيدة ناعمة ، تلك الايام التى تلت اتحادهما .. كان ذلك فى شهر نوفمبر ، وقد بدأت أوراق الاشجار تستعيد لونها الاخضر ، ودبت فى الجو بوادر البرودة .. وكان روبير قد غادر (تونيان) .. ولم يعد يشغل كاميل ولويس سوى تلهفهما على توثيق صلاتهما ، ولذا راحا يكثران من الخلوات ، والانفراد معا .. حتى لقد باتا يضيقان بتردد « آل دلكومب » عليهما ، بل ان وجود الدكتور جوفر ـ والد كاميل ـ كان يمضهما ! .. وكان جوفر يعرف ذلك ، ويحاول دائما ان يعلق على الماضى ويذكرهما به .. فكانا يغادران « المنزل المنعزل » ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، ويسيران مبتعدين عن المنزل، فى اتجاه الجسر المعلق، وفى الطريق الريفية العامة ، دون أن يلتفتا وراءهما مرة واحدة ، لرؤية

ذلك الكهل الذى خلفاه وحيدا فى المنزل الخاوى .. أفهذا هو المستقبل الذى كان الطبيب يحلم به ؟ .. لقد كان يتمنى دائما أن يبقى معهما ، فى مكان واحد ، فيعيش ثلاثتهم تحت سقف واحد ، لكى يقاسمهما بعض هنائهما !

***

وبدأت تداخله أحاسيس مضطربة .. فقد رأى «كاميل» تنتزع منه ، وهو الذى عاش من أجلها ، فخامره — نحو لويس — حقد الام نحو الرجل الذى ينتزع ابنتها من بين يديها .

وأخذ الطبيب المحروم يتذكر كل ماقرأ وعرف عن الحب والعشاق .. ان الهوى يدفع كل عاشق الى محاولة الاستئثار بمحبوبه ، والبعد به عن الناس جميعا .. وان اى محبين يحرصان على تكتم مابينهما ، وعلى التستر على علاقاتهما ، حتى ليبدوا كما لو كانا لصين يسرقان شيئا ليس لهما فيه حق ، ولو كان حبهما قد بورك بالزواج ، وأصبحت رابطتهما مشروعة !

اما هما فلم يكونا يفكران فى الشخص الذى استطابا أن يخلفاه وراءهما ، ولا فيما كانا يسببانه له من ألم وحزن .. وكانا يسيران فى طريقهما تدفعهما أنانية الحب الطاغية !.. وكم كانا يشعران بالسعادة اذا ما ابتعدا عن الناس، وخرجا الى الحقول اليانعة ! .. فكانا ينطلقان وسط المزارع ، وقد طوق كل منهما الآخر بذراعه ، وتقاربت شفاههما ، وغابا عن الكون فلم يعودا يحسان بما حولهما ، ولم يعودا يفطنان الى تصرفاتهما .. وهكذا كانا يمضيا فى سيرهما ، الى أن ينبههما صوت من الاصوات ، أو يقابلهما أحد فى الطريق ، فيتباعدا وقد التهبت خدودهما، وفضحت نظراتهما سرهما، فراحا يداريانه بابتسامة على فم كل منهما .

وكان لويس يودع فى قبلاته قوة وحرارة ثلاثة وعشرين عاما .. سنوات شبابه الذى احتفظ به طاهرا ، فقد كانت زوجته بالنسبة له هى عشيقته الاولى ! .. وكان كل عناق يحمل الى نفسه معنى جديدا من معانى الغرام ، وهى معان جديدة ، لم تكن كاميل تبذل فى سبيل ابرازها مجهودا كبيرا ، اذ أنها معروفة لكل امرأة ، مهما تكن سذاجتها ، أو جهلها .. وسواء كانت طاهرة أو متردية !

وتضاعف شعورها بالبغضاء للرجل الذى دنسها ، بقدر ما تضاعف شعورها بالولاء للرجل الذى أنقذها .. وأرادت مدفوعة بهذين الشعورين أن تمكن لويس من أن يحصل على كل ما حصل عليه جياكوميتى ـ من قبل ـ من المتع واللذائذ .. وحرصت على أن تمحو شفتا زوجها تلك قبلات العشق المدنسة ، عن كل موضع ـ من جسمها ـ وصلت اليه شفتا ذلك العشيق !

وهكذا تمكنت من استثارة شهوات الشباب لدى زوجها ، حتى فقد دقة الملاحظة حينا من الزمن .. اذ ان جيشان العاطفة وطغيانها اكتسحا كل فطنة وانتباه !

وكانت تطيل من اجتماعها بزوجها ، لان تلك الاجتماعات كانت بالنسبة لها حصنا منيعا ضد الذكريات الاليمة المختزنة فى وعيها ، وضد الخوف الطاغى الذى كان يتولاها نحو المستقبل .. ولم تكن تلك العلامات ـ علامات الحمل ، التى كانت تتوقعها بفارغ الصبر ـ قد ظهرت على جسمها بعد ، ولكنها لم تعد تقض مضجعها وتسهدها ، كما كان الامر فى الماضى ، اذ كان وجود لويس الى جانبها كافيا لطرد هذا الشبح المرعب !

وعلى الرغم من تلك الحياة ـ التى لم يشغلا فيها بغير حبهما ـ أشرفت أيامهما فى (تونيان) على الانتهاء .. كانا يشعران دائما بالفضول يلاحقهما من جانب أهل المدينة

جميعا . والحق ان زواج كاميل الموفق أثار فى المدينة كثيرا من الحسد ، حتى لقد كان من اليسير عليها أن تلمس هذا الحسد فى النظرات التى كانت تتعقبها أينما سارت خارج البيت !

لذلك بات الزوجان يتوقان الى مغادرة (تونيان) ، لاسيما بعد ان تلقيا خطابا من روبير ، يخبرهما فيه بأنه قد وصل الى (نيس) . فاتخذا من ذلك الخطاب ذريعة للسفر ، وعرضا على الدكتور جوفر أن يصحبهما فى رحلتهما الى (نيس) ، ولكنه رفض ، كما توقعا ـ من قبل ـ أن يبرح مدينته ومرضاه .

***

ولقد شعر الرجل بأسف لما كان فى تلهفهما على مفارقته من قسوة .. قسوة العشاق السعداء ! .. ولكنه ضمهما بين ذراعيه ، وغمرهما بقبلاته حتى آخر لحظة قبل الفراق .. وكان حبه أياهما ، وعطفه عليهما ، يغالبان ألمه وأساه لحرمانه منهما ، فلم يتمالك ان ابتسم ـ كما كان يفعل فى الماضى ـ بينما كان قلبه يتوجع لمرارة البعاد .. وهكذا فارقاه بعد ان وعداه بأن لايطيلا الغياب ، وراحا يكرران له : «سنعود بعد ستة اسابيع ، أو بعد شهرين على الاكثر .. اى بعد ان ينقضى الشتاء ، وبعد أن يكون تأثيث المنزل قد اكتمل ! »

وأردف لويس للطبيب جوفر ، وهو يقبله للمرة الاخيرة : « .. وأرجو ياوالدى ، ألا تمس « الغابة العذراء » ، أو تغير معالمها ! »

وكان لذلك السفر أثر حسن على كاميل ولويس ، فقد هدأت أعصابها . وكان من آثار التعب ـ الذى لابد منه فى الاسفار ـ وطرافة المناظر التى أخذا يصادفانها ، ولم يكن

لهما بها عهد ، أن هدأت الحمى الجنسية التى انتابتهما منذ زواجهما !

ولم تكن كاميل قد سافرت قبل هذه المرة ، بل انها لم تكن قد غادرت مسقط رأسها قط ، ومع ان لويس كان قد عرف (باريس) ، و (مرفيل) ، وسواحل (المانش) ، وبحر الشمال جيدا ، الا انه لم يكن قد رأى أقاليم (الميدى) و (الجارون) و (الالب) .. وهكذا كانت المناطق التى تضمنتها رحلتهما مجهولة لديه ، كما كانت مجهولة لدى زوجته !

وما ان وصلا الى (نيس) حتى أثر الوسط الذى وجداه هناك فى نفسيهما ، فقد ردهما الجو الى الصيف ، بالرغم من ان ثلوج الخريف كانت قد بدأت تلوح فى تلك المنطقة السعيدة . ووجدا فى المحطة وجها يبسم لهما ، اذ كانا قد أخطرا « روبير كلاييس » ـ فى خطاب موجز ـ بموعد وصولهما ، فخف الى لقائهما .

وقال لهما : « هيا الى المركبة .. لقد استأجرت لكما منزلا قريبا من هنا » . فسأله لويس بصوت خافت ، متردد : « ولوسى ؟ » . فأجابه الشاب : « انها فى مونت كارلو .. فى فندق « الكنتننتال » مع أمها .. أى انها على مسيرة ربع ساعة من هنا . وهكذا يمكننى ـ طوال مدة اقامتكما هنا ـ أن أقسم وقتى بين الصداقة وبين .. » . وأمسك محرجا ، فبادر لويس قائلا : « وبين الحب ! » .. فابتسم روبير وقال : « أو فلنقل .. بين الواجب ! »

***

وبعد ، فان ذكرى ذلك المنزل ـ الذى استأجره لهما صديقهما ـ ظلت ماثلة فى ذاكرتيهما حتى الشتاء التالى ، وبقى المنظر الذى كان المنزل يشرف عليه ـ فى تلك المنطقة

الجبلية الصخرية ــ راسخا فى ذهنيهما ، لم تنل منه الايام .. وكانا لا يفتآن ــ بعد ان بارحا المنزل ، بل المنطقة بأسرها ــ يذكران كل جزء فيه ، ويتمثلان حجراته التى كان روبير قد ملأها بالزهور عند وصولهما اليه أول مرة !

أجل ، ظلا يذكران ذلك المنزل ، ففيه شعرا ــ للمرة الاولى ــ بوحدتهما التامة ، وحريتهما الكاملة ، وخلاصهما من كل ما كان يحيط بهما ــ فى (تونيان) ــ من فضول وحب استطلاع .. حتى الدكتور روبير ــ صديقهما الشاب ــ آثر أن يفسح لغرامهما الزوجى المجال ، فحرص على ان لا يثقل عليهما بحضوره الا نادرا ، وتلبية لالحاح لويس فقط !

وكأن لويس وكاميل يشعران ــ حتى ذلك الحين ــ بأنهما عاشقان أكثر منهما زوجين ، وان كلا منهما يزداد تعرفا بالآخر ، فى كل لحظة يقضيانها معا .. بل كانت كل لحظة يفترقان فيها ، تبدو كما لو أنها ضاعت سدى من عمريهما .. وكانت شفاههما لاتكاد تفترق حتى تبدأ فى الاقتراب ثانية ، وما يكاد ينفض اجتماعهما حتى يدب الشوق من جديد الى قلبيهما !

ومن أول ظواهر الحب العاطفى ، أن يكون الانفعال فيه حادا ، مشبوبا ، وأن يفقد العاشقان ارادتيهما ، لينساقا الى ارادة أخرى تذكى فى نفسيهما الشوق والرغبة فى وقت واحد .. اما فى حالة لويس و كاميل ، فكان الامر على نقيض ذلك .. كانا يشعران بالحب كما شعرا به منذ اليوم الاول ، هو هو لم تنقص منه ذرة ، ولكنه لم يكن حبا مستبدا يمحو شخصيتهما ، وانما كان حبا رفيقا ، ناعما ، لم يلبث كل منهما أن اخذ يستعيد ــ فى غمرته ــ شخصيته . فكانا ينعمان بتبادل الاحاديث والآراء ، بقدر ما كانا يستعذبان تبادل الاحاسيس والملذات ..وأصبحا أكثر استمراء للقبلات منهما فى الماضى .. بل أصبحت القبلات تبعث فى نفسيهما سرورا ابقى !

كانت هذه الفترة هى العهد السعيد لغرامهما ، حيث يزداد الحب اشراقا ، اذ يسفر عن وجهه بعد زوال الكلفة التى تلازم الضمات الاولى ، واذ يفرض من الالفة ما يزيل الاستحياء والحرج ! .. وهكذا عرف لويس وكاميل مايكون بين الزوجين الجديدين من غزل رقيق . فكم من مرة خرجا لنزهة على الاقدام ، فكانت كاميل لا تلبث وهى فى الطريق، ان تكتشف ــ وقد احمر وجهها خجلا ــ أنها نسيت بالمنزل شيئا لايمكنها أن تستغنى عنه مثل منديلها أو مظلتها .. ويضطران الى العودة لاحضار مانسيت ، ولكنهما لا يلبثان ان يستطيبا البقاء فى المنزل بمجرد وصولهما اليه ــ فيعدلا عن النزهة !

وكان يحدث أثناء نزهتهما ــ فى الضواحى والمدن القريبة ــ أن يتأخرا الى وقت يفضلان معه النزول فى أحد الفنادق القريبة ، والبقاء به الى اليوم التالى .. ذلك لأنهما كانا يشعران بأنه ليس فى طاقتهما انتظار العودة الى (نيس) ، لينعما بالوحدة .. والحب !

وكانت « كاميل » ــ عقب كل تصرف عابث نزق ، من هذا النوع ــ لا تجرؤ على النظر الى صاحبها، وكأنها وحدها المذنبة . فكانت تلجأ الى كتفه ، وتضحك ضحكا غريبا .. وبدأت تدرك بغريزتها ، غريزة المرأة العاشقة ، أن من الخير الا تذعن لرغبات زوجها بتلك السهولة ، ولا أن تجاريه فى ظمأه الى الهوى ، بل لابد من أن تبدى شيئا من الاعتراض والتمنع . لذلك بدأت تصده عن نفسها .. فلم يكن لويس يزداد الا الحاحا .. وهكذا بدأ حبهما يعرف رقة الرجاء ، ذلك الرجاء الذى كان يقابل أولا بالرفض الهادىء ، ثم لا يلبث الرفض والتمنع ان ينهارا فى النهاية .. دائما !

وكان من جراء هذا التحول النفسى الطبيعى ــ بالاضافة الى ما لتغيير المكان وفعل الزمان من آثار ــ ان التأم الجرح

فى قلب كاميل . فاندمل ما كانت الذكريات الماضية قد خلفته من آثار دامية . واستغربت كاميل ذلك ، وشعرت بالسعادة اذ تبينت انه قد بات فى وسعها أن تفكر فى الماضى دون أن تشعر بذلك الرعب الداخلى المخيف ، الذى كان يعذبها ويضنيها ، فيما مضى !

لكم كانت الاحداث ــ التى طالما ارقتها ــ تبدو لها ، فى تلك الفترة بعيدة ، حتى لقد كانت تخال ــ أحيانا ــ انها لم تكن من الحقيقة فى شىء ، وانها لم تعد ان تكون حلما مزعجا ! .. لقد اختفى الرجل الآخر من حياتها .. كما ان الجرح البالغ ــ الذى خلفه فى نفسها ــ قد ساعد على التئامه ما غمرها به زوجها من حب ، فزالت كل معالمه .. ولكن ، لا .. ماينبغى لكاميل ان تخدع نفسها الى هذه الدرجة ، فلقد بقى اثر واحد .. واحد فقط ، هو ذلك الجنين الذى انطوت عليه احشاؤها ! .. ولكنها كانت ــ كلما ذكرته ــ قالت : « وما الذى يهمنى من ذلك ؟.. ليس هناك مايخيفنى فى الوقت الحاضر ! »

وكانت تسرع لتحتمى بأحضان لويس .. وبينما كان يضمها الى صدره ، كانت تفكر فى نفسها قائلة : « اذا كان هناك جنينا فى أحشائى ، فانه من هذا .. من لويس ، ممن أحب ، اننى أريد أن يكون منه هو ! »

(٢)

كانا قد انتهيا من طعام الافطار ، ووقفا الى جانب النافذة المطلة على الشرفة .. وكان لويس يدخن لفافة من التبغ ، وهو ينظر الى كاميل .. أما هى فراحت تعبث بصفحات احدى الصحف اليومية ، وتطالع أى جزء يقع عليه نظرها ، كما تفعل النساء دائما ..

وفجأة شحب وجهها ، وأسرعت تقصى الصحيفة عن عينيها فى جزع ، وهتفت : « ياالهى ! » ...

ترقب الجزء الثانى والأخير ..

وبعد ؟! .. ترى ما الذى قرأته « كاميل » فى الصحيفة ، فأثارجزعها بهذه الدرجة ؟.. ايكون فيما قرأته مايفضح سرها ؟

ان سرا كهذا لابد أن يفتضح يوما، فماذا يكون موقف لويس؟ .. هل يغفر ويصفح، أو ينتقم لغرامه المغدور، وثقته المهدورة ؟

والدكتور جوفر ؟ .. هل يتغلب عليه الغضب لان ابنته خانت الثقة التى وضعها فيها ، وهو الذى وقف حياته عليها ، أو يطفى الحنان على كل اعتبار ؟

وكاميل ؟ .. ماذا يكون شأنها بين ذل العـار ، ونقمـة المظلومة التى غدر بها العشيق وقسا عليها الزوج والأب ؟

كل هذا يوافيك به المؤلف ، فى الجزء الثانى والاخير

بنك مصر

درج بنك مصر منذ نشأته على مسايرة النهضات التقدمية. فلما تفجرت النفوس وانبعثت الثورة وانبثق نور الشعلة المقدسة تجاوبت كل هذه الظواهر مع النشأة الطبيعية لبنك مصر .. ومع الأهداف العليا التى رمى إليها فى حرب الاستعمار الاقتصادى فأنشأ شركاته التى كانت جيوشا حارب بها الاستغلال الأجنبى فى شتى ألوانه والروح الدخيل فى مختلف صوره

كتابي

الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية

يقدم لك فى كل عدد من اعداده ، مجموعة ضخمة من ملخصات اروع الكتب العالمية .. ومنها :

الجحيم .. هو الناس !

(من أقوى مسرحيات جان بول سارتر)

الشمس تشرق ثانية

(قصة ارنست همنجواى الجبارة)

كيف نقاوم العصبية

(من كتب علم النفس)

فولتير العاشق

(صفحات مجهولة من حياة الفيلسوف الكبير)

نماذج من النساء

(من روائع ارسكين كالدويل)

الحب خالد !

(قصة الحياة الخاصة لابراهام لنكولن)

نساء ومآس

(اشهر قصص الحب والجريمة لروجيه ريجى)

الخ .. الخ .. الخ .

كل عدد اقوى من سابقه ـ ٢٥٠ صفحة ـ ١٢ قرشا

كتابي
يحشد لك - في الأعداد التالية - مجموعة ضخمة من أروع الكتب الحديثة التي جلبها لك من عواصم أوربا وآسيا.. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة العالمية على مصراعيها.. ويكفل لك ولأولادك زادا عقليا وغذاء وجدانيا لم يسبق لهما مثيل باللغة العربية.. فلا يفوتك اقتناء أعداد هذه السلسلة منذ اليوم.
(تاهيتي) جنة المحيط الهادي
قصص الحب في سياسة العالم!
ملعونة هي الشهوة! (أحدث كتاب عن حياة موباسان)
يوميات فرانسوا مورياك
قصة الفساد والانحلال في فرنسا قبل الحرب الأخيرة
تعلم كيف تسترخي (من كتب علم النفس العملي)
فولتير العاشق
الشمس تشرق ثانية إرنست همنجواي
المدينة الآثمة (سدوم وعمورة)
الحياة اليومية في أيام الفراعنة
نابليون العاشق
يصدرها حلمي مراد
وترقب أيضا الأعداد الشائقة القادمة من السلسلة الشقيقة
مطبوعات كتابي
التي أعدت لك بدورها برنامجا ثقافيا ضخما

يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

أروع قصة طويلة لمرسيل بريفو

مدموازيل جوفر

الثاني والأخ

مرسيل بريفو

مدموازيل جوفر

MADEMOISELLE JAUFRE

Par

MARCEL PREVOST

الثمن ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثالث والخمسون

الجزء الثانى

ترجمة فقيد الصحافة العربية المرحوم

فرج جبران

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ترقيم الصفحات

روعى فى ترقيم صفحات هذا الجزء أن تبدأ أرقام صفحـاته من حيث انتهى ترقيم الجـزء الاول ، أى من (١٦١) ، حتى يتسنى لمن يرغب فى جمع أجزاء هـذه القصة فى مجلد واحد أن يجد ترقيم صفحاتها مسلسلا .

ملخص ما جاء فى الجزء الاول

كانت «كاميل » ـ مدموازيل جوفر ـ على درجة غير عادية من الجمال ، وقد جهدت أمها على أن تبصرها ـ منذ طفولتها ـ بفتنتها .. فلما ماتت الام ، عاشت الفتاة مع أبيها ـ « الدكتور جوفر » ـ الذى لم يعن بتعليمها كثيرا ، اعتقادا منه أن الانثى لا تخلق الا لتكون زوجة وأما وربة بيت ..

وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، عندما أحبت « لويس لوت » ، ابن أحد عملاء ابيها .. وكان فتى يقاربها فى السن ـ ان لم يكن اصغر قليلا ـ حييا ، خجولا ، فكانت هى التى شجعته على تقبيلها .. **وفيما عدا القبلات ، كان حبهما عذريا ، بريئا ، يغلب عليه طابع رفاق اللعب فى الطفولة** ..ولكن « لويس » مالبث أن انتقل من بلدة (تونيان) ، وسرعان ما نسيت الفتاة تعاهدهما على الزواج، ودفعها افتنانها بجمالها الى محاولة تعرف أثره على الرجال..

وكان الى جوار « البيت المنعزل » ـ الذى عاشت فيه مع أبيها ـ دار مهجورة ، تفصل بينهما حديقة اهملت حتى تكاثفت نباتاتها وصارت أقرب الى الغابة ، مما أوحى الى « لويس » و « كاميل » أن يسمياها « الغابة العذراء » .. وفى هذا البيت نزلت أسرة قس . وربطت الصداقة بين زوجة القس وبناتها الثلاث وبين « كاميل » .. ولاحظت زوجة القس أن شابامن اغنياء البلدة ـ يدعى «روكبكيه» ـ يهيم بكاميل ، فما زالت حتى جمعت بينهما ، على أمل أن يتزوج الشاب جارتها الحسناء .. ولكن هذا كان خاضعا لسلطان أمه ، التى هددته بحرمانه من الميراث ، فلم يلبث ان انصرف عن « كاميل » .. **وجاء انصرافه هذا فى عين الوقت الذى عقد فيه زواج « مارت » ـ ابنةالقس ـ على**

قس شاب ، فكادت ((كاميل)) تجن اسى ، وهى ترى ان غيرها ممن كن أقل منها جمالا ، يتزوجن دونها .

وعقب زفاف « مارت » ، رحلت أسرتها جميعا عن البلدة، فى رحلة طويلة ، فخلفها فى المنزل المجاور لدار الطبيب ، ضابط يدعى « جيدوم جياكوميتى » ، فتنه جمال «كاميل» فوثق صلات الصداقة مع الدكتور جوفر ، لتسنح له فرص لقائها .. وراح يغازلها فى جرأة .. ثم جاءت ليلة تسلل فيها الى مخدعها ، وسطا على عفافها ..

وتوزعت الفتاة ـ فى بادىء الامر ـ مشاعر مضطربة .. الهيام بالضابط الذى فتن بها ، والذى أخذ يخاطر فى سبيل لقائها .. والمتعة الجنسية .. والخوف من أبيهـا .. ثم قدر لهذا الخوف أن يتغلب على ما عـداه ، يوم تأكدت من انها حبلى ! .. وما ان صارحت الضابط ، حتى راغ منها .

وكادت « كاميل » تجن خوفا من أبيها ، وسـخطا على العاشق الغـادر ، وحسرة على عفافها وحالها .. وفى تلك الاثناء ، عاد « لويس » ـ زميل الصبا ـ وقد مات والداه ، وورث ثروة عن خاله ، وجاء يحقق حلم صباه. **.واستطاعت ((كاميل)) أن تغريه بأن يتعجل الزواج ، وقد رأت فى ذلك مخرجا لها من محنتها ..**

وعقب الزواج ، رحلت « كاميل » مع « لويس » لقضاء شهر العسل فى (نيس) ، حيث سـبقهما الدكتور « روبير كلاييس » ، زميل لويس فى الدراسة ..

وقضى العروسان فترة حافلة بلذائذ الحب .. وفى ذات صباح ، كانت « كاميل » تطالع صحيفـة ، واذا بها تهتف فجأة : « يا الهى ! » ..

والآن .. تستطيع أن تتابع القصة

وفى **أقل** من لمح البصر ، كان «لويس» الى جانبها ، ويداه تشددان الضغط على ذراعيها اللتين جمدتا فى الوضع الذى كانتا عليه .. وهتف فى جزع :

ـ مابك يا عزيزتى ؟ .. هل تتألمين ؟ .. حدثينى ! أرجوك !

ولكنها لم ترد ، بل راح صدرها يعلو وينخفض ، وقد جمدت عيناها فى محجريهما .

وأمسك الرجل بالصحيفة ، التى كانت قد سقطت عند قدمى « كاميل » ، واخذ يتصفح الاخبار التى قرأتها ، حتى وقفت عيناه عند هذه الكلمات :

أخبار (آنام) و (تونكين)

« وصل ما ينبىء بوفاة الضابط جياكوميتى ، الذى عين حديثا مساعدا للجنرال كورسى ، والذى أصيب بمرض (الديسنطاريا) بعد بضعة أيام من تسلمه مهام منصبه » .

ولم يزد الخبر على هذا .. وكان لويس قد سمع من الطبيب جوفر ـ فى (تونيان) ـ ذكر اسم الضابط « جياكوميتى » مرتين أو ثلاث مرات .. واذ بدأت كاميل تستعيد قواها ، سألها : « أليس هو الرجل الذى كان يسكن المنزل المجاور لداركم ؟ » .. وأجابت بصوت واهن : « بلى .. احسبه هو » .

والقى « لويس » الصحيفة من يده ، وتحول الى زوجته يسرى عنها ، ويهدىء من روعها ، وقد اشتد قلقه عليها ، حتى انه طغى على كل تفكير كان يجب أن يساوره فيحمله على محاولة تعليل اضطرابها ، أو يثير دهشته مما ألم بها .. وظلت « كاميل » جالسة فى مكانها ، وقد ثبتت نظراتها

فى الفضـاء ، وكأنها تستجلى أشـياء غير منظورة ، فى أفق مجهول ، وقد اشتبكت اصابعها بأصابع لويس .. وكان فى عينيها انفعال غريب ، وكأنما كانت ترى جثة « جياكوميتى » مسجاة على فراش المستشفى .. جثة الرجل الذى فاجأها وضمها بين ذراعيه واستمتع بجسدها قبل زواجها !

اذن ، فقد أغلقت الى الابد هاتان العينـان اللتان عرفتا أسرار جسمها قبل أن تصـل اليه أى عينين أخريين ! .. واذن فقد برد ذلك الفم الدافىء ، النهم ، الذى علمها فن التقبيل ! .. واذن فقد جمـدت وتيبست هاتان اليـدان اللتان القيتا بهـا على الفراش ـ ذات ليلة ـ وعربدتا فى جسدها !

وهرب الدم من قلب « كاميل » بعد أن قرأت النبأ ، وشعرت بأن الموت قريب منها، فارتعدت فرائصها، والتصقت بزوجها وهى تقول : « آه ، ابق هنا ! .. ابق بقربى ! .. ارجوك ! »

وحملها «لويس» وأجلسها فوق ركبتيه ، فأخفت وجهها فى صدره .. واذ ذاك فقط ، توقفت الرعـدة التى كانت تسرى فى جسمها .. ثم انفجرت من صدرها زفرات ونهنهة باكية لم تصـحبها دموع .. وراح لويس يقبل شـعرها المشعث ، ثم أخذ يشم رائحة جسمها وهى ملتصقة به . وما لبث قربها أن بعث الحرارة فى جسمه ، فحملها وأجلسها على مقعد .. وكانا وحيدين ، فركع الى جانبها .. وبدات الدموع تنساب من عينيها ، فراح يمحوها بشفتيه وهمـا تطوفان بوجهها بحثا عن شـفتيها حتى عثرتا عليهما .. ولأول مرة عقب الزواج ، الفى لويس شفتى زوجته باردتين ! .. كانتا أشد برودة من الاجسام الميتة .. ولم يكن هناك أشد ايلاما للنفس من هذا الاحساس ، ومع ذلك فقد وجد

لويس أن قوة خفية أخذت تجذبه الى هاتين الشفتين الباردتين !.. ولما أدركت كاميل ماوراء هذه التصرفاتمنه، ابعدته عنها بذراعيها ، ومضت تصده :

ـ آه .. لا ! لا ! ليس الآن .. أرجوك ، اننى مريضة ،

وتركها وقد امتلأ قلبه بالحزن ، واستبد به الألم ، كما يحدث لكل اولئك الذين تنحصر حياتهم فى حبهم !.. وخيل اليه أنه قد فقدسعادته بسبب تلك النوبة العصبية المفاجئة، التى انتابت « كاميل » ، فجلس فى مقعده ـ وقد أسند يديه فوق ركبتيه ـ ونكس بصره الى الارض وقد غمرته نوبة من التفكير العميق .

أما كاميل ، فقد غشيها النعاس وهى دامعة العينين . وراح لويس يتأملها وهى نائمة ، فلم يملك أن يحول نظره عن جسدها الحبيب. وكانت أهدابها تختلج بحركة عصبية ، بينما انسدل شعرها الطويل على جانب من كتفها اليمنى.. وكانت نوبة الانفعال التى انتابتها قد بعثت اللون الاحمر الى خديها .. وعلى احدى ذراعيها ، استند رأسها ، بينما تهالكت الذراع الاخرى الى جنبها ، وكأنها عدمت كل قدرة على الحركة .. وبدت يدها بديعة ، بضة ، متناسقة ، اغرت لويس بأن يقترب منها فيطبع عليها قبلة .. وكان نعاس « كاميل » خفيفا ، حتى أن تلك الحركة البسيطة نبهتها ، ففتحت عينيها ..

وكانت أعصابها قد هدأت ، فابتسمت ـ فى هذه المرةـ لزوجها !

وانتهى اليوم دون اى حادث ، فقد خرجا لنزهة قصيرة ، ثم ذهبا الى المسرح ، فشهدا فصلا من رواية « ريجوليتو » .. وعادا للنوم فى ساعة مبكرة ، وقد تجنبا الحديث عن الخبر الذىأثار ـ فى الصباح ـ اضطرابا فى حياتهما الهادئة .. وكان الاعياء قد أنهك قواهما .

على أن « كاميل » استيقظت فجأة فى بهيم الليل .. ولم يكن هناك أى صوت ، لا فى المنزل ، ولا فى الخارج ، ومع ذلك فقد خيل اليها أن حركة ما عكرت عليها نومها .. حركة من تلك الحركات التى يتوقع الانسان أن تعود ثانية ، اذا هو مكث فى فراشه ، وارهف حواسه ، ممسكا عن اتفه اختلاجة ، اللهم الا خفقان قلبه !

ومدت يدها بحركة غريزية فلمست ذراع لويس ، فاذا ذلك الاتصال كاف ــ على بساطته ــ لأن يبعث الثقة الى نفسها .. ومرت دقيقة ، ثم أخرى .. ولم يكن هناك ما يتحرك ، حتى أنها شعرت تدريجيا بالهدوء يعود الى نفسها ..

لابد أنه حلم مزعج ، اوحى به الخبر المروع الذى قرأته فى الصباح ! ..

***

وفجأة أخذ جسمها يرتعش ، واختنقت فى حلقها صيحة الم طاغ . فقد أحست بهزة قصيرة ، قوية ، صامتة ، اتبعثت من جوفها ! ..

وتساقط العرق البارد على وجهها ، ووضعت راحتيها على بطنها .. المكان الذى تحركت فيه حياة غامضة جديدة .. وأخذت تنتظر مرة أخرى ! .. وما لبث ان عاودها الاحساس باحتكاك منتظم ، يكاد يكون مستمرا ، فى جوفها .. ثم شعرت بهزة ثانية ، فثالثة .. وكانت كل هزة جديدة أضعف من سابقتها ، وأبطأ حدوثا !

ثم انتهى كل شىء ، وظلت « كاميل » ساكنة بين أغطية فراشها .. تراقب الفجر وهو ينبثق ، ويطارد فلول الظلام فوق الجدران ، وقد استغرقت فى التفكير ..

فكرة واحدة جالت فى رأس المراة الصغيرة ، هى : « اننى أم »

انها أم ! .. ولكن امومتها لم تأت عن الزوج النائم الى جانبها ، يتردد فى اذنيهـا صوت تنفسه المنتظم .. وانما جاءت عن الرجل الآخر ، الذى مات بالامس ، والذى دنس شرفها ..

لقد ايقنت من ذلك ، على الرغم من جهلها . اذ كانت قد قرأت ، أثناء بحثهـا فى كتب والدها الطبيب جوفر : « ان حركات الطفل وهو فى بطن أمه ، تبـدأ مع بداية الشهر الخامس » .

وهكذا كانت قد أصبحت أما منذ خمسة شهور .. منذ ضمها الضـابط لأول مرة .. منذ تلك اللحظة التى ألقت بها الاقدار بين يديه كشىء معدوم الارادة .. اجل ، منـذ ذلك الوقت أصبحت أما ! .. وها هى ذى ، فى الساعة التى يختفى فيها الضابط من الوجود ، تشعر بجنين يتحرك فى أحشائها ، كأنه يريد أن يثبت لها وجوده ، وان يثبت لها أن موت الضابط لم يمحه من صفحة حياتها ، وان زلتها تقف لها بالمرصاد الى آخر العمر !

وظهر لها ــ فى ضوء الشفق ــ وجه الزوج النائم .. وجهه الجميل ، وعيناه المغلقتان .. هذا هو الرجل الذى خانته ، فيا لها من مجرمة آثمة ، لأنها تزوجته وهى غارقة فى بحار الشك ، ولم تشأ أن تنتظر حتى تبلغ شاطىء اليقين ! .. أما الآن ، فان الوقت قد فات ، ولم يعد فى امكانها أن تعود الى الوراء .. ان الحوادث هى التى تتحكم فى الموقف ، وعليها أن تستعد لاحتمال العواقب مهما تكن !

وكان أول ما خطر ببالها ، ان قالت لنفسها : « لن أقول

شيئا ، فليست هناك أية علامة واضحة على جسمى ! .. اجل ، لن اتكلم .. بل سأنتظر ! »

ولكنها ما لبثت أن رأت أنه كلما طال سكوتها ، ازداد تعذر تعليل انتفاخ جسمها فيما بعد .. ولقد كان لويس خليقا بأن يصدق ما قد تقوله له ، ولكن قلب المرأة لم يطاوعها على الكذب !.. واستبد بها الالم والحيرة . وفكرت لحظة فى ايقاظ زوجها ، وفى الاعتراف له بكل شىء ، ولكن التصرف كان كفيلا بالقضاء التام على سعادتها الى الابد .. وما كادت تفكر فى انتهاء تلك السعادة ، حتى انهارت ارادتها ، وقالت فى نفسها : « لابد من أن أكذب.. يجب ! »

وتحولت تحسب حسابا واضحا ، اضطربت له نفسها اذ قالت : « بعد خمسة أشهر يولد الطفل .. ويمكن بمساعدة طبيب، أن يصدق لويس أن الطفل ولد قبل موعده بشهرين، وكثيرا ما يحدث هذا » .

وامتلأت الفرفة بضوء النهار ، وقد زحف خلال النافذة. ولكن لويس استمر فى نومه ، نوما عميقا أشبه بنوم الاطفال، وقد ظهر الهدوء على وجهه الجميل . واخذت « كاميل » تتأمل قسماته ، ففاض بها الاعجاب والحب ، وقالت فى نفسها : « ما اجمله ! .. كم احبه ! » .. واستولت عليها نوبة من تلك النوبات التى تدفع المرء الى أن يتفانى فى الحب ، ويقدم على كل تضحية من أجل الحبيب .. تلك النوبات التى تقترن بالحب الحقيقى عند المرأة .. وقالت لنفسها : كيف تخونه وهو الذى أعاد اليها السعادة ، بل الشرف ؟ ..

اية جريمة هذه ؟ .. ومع ذلك ، فان الكذب هو ثمن المستقبل المأمون ، وهو الضمان لدوام حبهما !

***

وعذبتها الحيرة .. هل تسكت فتخدعه ، وتخون ثقته ؟ .. أو تتكلم فتقضى على سعادته وحبه ، قبل أن تقضى على سعادتها وحبها هى ؟ .. وكان لابد لها من أن تستقر على رأى .. واقتربت شفتاها من عنق زوجها النائم ، ثم التصقتا به ، وطبعتا قبلة صادقة .. واستيقظ « لويس » على هذه الحركة الناعمة ، الحبيبة ، ففتح عينيه ، ومكث ساكنا برهة ، يراقب « كاميل » ويتأملها . فقد كانت « كاميل » — بالنسبة له — مصدر جاذبية تتجدد فى كل يوم .. واحتواها بين ذراعيه ، فالتصقت به، ودفنت وجهها فى صدره ، لا تجرؤ على أن ترفع اليه بصرها ..

وفجأة ، أحس لويس بدموعها تجرى دافئة على صدره .. وجزع من أجلها ، وتناول رأسها بين يديه ، واضطرها الى أن ترفع وجهها اليه .. وكانت عيناها السوداوان تسبحان فى الدموع ، فتمتم قائلا : « اتبكين يا كاميل ؟ .. لماذا تبكين ؟ .. أنك تخفين عنى شيئا ، فتكلمى يا كنزى ! .. أرجوك ، تكلمى ! »

ونظرت اليه ، فأضاءت فى عينيها — المخضلتين بالدموع — ابتسامة عابرة ، شبيهة بشمس بعيدة تضىء الأفق وهو يرزح تحت سيول الأمطار . وقالت : « أصبت .. أن لدى شيئا أريد أن أذكره لك ، ولكنى — كما ترى — لا أجرؤ على ذلك ! » .. ولم تبذل جهدا أو تكلفا وهى تقول ذلك .. قالته بتلك المقدرة على الكذب التى تملكها كل امرأة عاشقة تريد أن تدافع عن حبها .. وانبعثت الكلمات بلهجة ادرك معها لويس — من تلقاء نفسه — كل ما لم تكن تجرؤ على ذكره . فأشرق وجهه ، وهتف : « هل أصبحت أما ؟ »

وعادت تخفى وجهها فى صدره ، وقد علت أساريرها حمرة

الفتاة الطاهرة البريئة ، ثم همست فى أذنه قائلة : « آه .. اننى أحبك ! »

ولم يجد كلاما مناسبا يوجهه اليها ، فأخذ يطيل النظر الى جسمها ، وهو كالأبكم لفرط سعادته .. وخيل اليه أن الاعتراف الذى سمعه منها قد فتح صفحة جديدة فى غرامه . وما لبث أن أخذ يدى « كاميل » وطفق يقلبهما فى صمت، وهو ممتلىء احتراما لأمومة زوجته .. وسبح فكره فى عالم السعادة الجديدة ، وقد امتلأ فخرا لأنه بهذا الحدث قد أنشأ اسرة .. واستغرق يتأمل ذلك العمل العجيب الذى تقوم به الطبيعة ، دون أن يكون لارادة العاشقين أى يد فيه .. لقد كانت الطبيعة تعمل على فى صمت وسكون ، بينما هما يتبادلان الحب . وكانت دائبة السعى للوصول الى غايتها ، عن طريق العناق والقبلات التى كانا يتمتعان بها .. وها هو ذا حبهما يخلق لحما ودما .. وها هى ذى حياة جديدة تتولد من عصير قبلاتهما !

أما «كاميل»، فانها لم تكد تطمئن الى الافضاء باعترافها ، والى الخلاص من مأزقها ، حتى بدأت تشعر بالالم لأنها استطاعت أن تخدع زوجها بهذه السرعة والسهولة..وكانت الثقة التى ابداها « لويس » تعذبها ايما عذاب ، لا سيما وقد راحت تقرأ فى عينيه آيات العبادة والاحترام ، التى بعثها فى نفسه ادراكه لامومتها .. وخيل اليها أن الظروف كانت تحيل هذه العبادة ، وذلك الاحترام ، الى شىء فظيع ، يناقض الطبيعة وقوانينها ، فشعرت — مرة أخرى — برغبة طاغية فى أن تصيح به : « اننى اكذب ! اكذب ! .. لقد خنتك ، فأقتلنى ! » .. ولكن الجبن انتصر على هذه الرغبة النبيلة العابرة ، فقالت لنفسها تبرر مسلكها : « انما اكذب من أجل سعادته .. من أجل الخير . افلست احبه ؟ »

ولاح لها ذلك التعليل معقولا ، الى درجة انها خرجت من تلك التجربة الاولى وقد ازدادت تصميما على الكذب . غير انه كانت هنـاك تجربة أخرى تنتظرها .. تجربة لم تكن تتوقعها . فقد خرجا ـ عقب تناول طعام الافطار ـ للنزهة فى الحدائق . واذ لاحظ لويس اضطرابها ، جلس الى جانبها .. ولم يكن قد تكلم حتى ذلك الوقت ، فلم يلبث أن قال :

ـ اسمعى ما أقول ، وسامحينى ! .. اننى لا أريد أن أزعجك أو اخيفك يا غرامى ، ولكنى أصارحك بأننى أشعر بالخوف وأخشى من وقوع حادث ما .. وأعتقد أن من الخطر أن نسافر الى ايطاليا وانت على هذه الحال ، ولذا فلابد لى من أن اعرف مبلغ احتمالك لمتاعب السفر ، وأرجو أن توافقى على أن تستشيرى طبيبا . ولكن .. ماذا أصابك ؟

كان وجه « كاميل » قد شحب عند ما سمعت ذكر الطبيب .. كيف حدث أنها لم تفكر فى ذلك ؟ .. الطبيب ؟! لابد أن يكون روبير كلاييس ! .. وأدركت فى الحال أن صرح أكاذيبها الضعيف سوف ينهار فى لحظة واحدة ، فهمست بصوت متحشرج : « اواه ، لا ! .. لست اريد طبيبا .. ارجوك ! »

وتشبثت بمقعدها حتى لا تقع .. ولم يدهش لويس لذلك ، فقد حدثه روبير كلاييس ـ أكثر من مرة ـ عن شدة معارضة بعض النساء للفحص الطبى ، بدافع من الحياء ، فرأى لويس فى اضطراب زوجته نوعا من ذلك الحياء ، الى جانب انه بدا متمشيا مع الانفعال الذى يلازم المرأة فى مرحلة الحمل .

وحاول أن يهدىء روعها ، فقال : « مم تخافين ياعزيزتى ؟ .. انها زيارة قصيرة لروبير ، وهذا كل ما هنالك ! .. وانك لتعرفين صواب حكم صديقنا . لن يكون هناك ما يؤلم . الا

تثقين فى ؟ » .. ولكن كاميل عادت تقول ، وهى تبكى : « كلا ! لا أريد طبيبا .. لا أريد طبيبا ! »

ولم يلح لويس كثيرا ، الا أنه لم يغير رأيه ، واعتبر نفسه آثما اذا أجابها الى ما تريد من عدم استشارة الطبيب. وكان يعلم كتمان صديقه للسر ، كما كان يعلم انه نجح فى اكتساب ثقة كثيرات من النساء ، فلم يخفق الا فى ظروف معينة .. وكثيرا ما سمعه يقول : « يكفى فى هذه الحالات أن تلقى بعض اسئلة على المرأة ، وأن تجيبك عن اسئلتك بصدق ، حتى تدرك حقيقة حالتها بالضبط .. أما الباقى فأمر بسيط ! »

وفى تلك الاثناء كانت كاميل قد بدأت تستعيد ارادتها ، فأقسمت الا تبوح بسرها قط ، ولو كلفها الكتمان حياتها . ولما استعادت هدوءها لاحظت أن زوجها لا يزال قلقا ، فحاولت أن تحول افكاره ، واقتربت منه ، وأخذت تضمه اليها فى شغف عظيم كما اعتادت أن تفعل فى أيام الزواج الاولى ..ولكن لويس راح يحاول أن يبعدها عنه بلطف ، وهو يبادلها القبلات .. وأدركت — فى شىء من الكمد والغيرة — أن عاطفة جديدة قد بدأت تنسيه عاطفته نحوها . وقد سبب موقفه هذا جرحا فى قلبها ، فشعرت — فى شىء من الألم — أن المخلوق الجديد الذى كانت تحمله ، قد بدأ يحرمها من الحب الوحيد الذى كانت ترى أنها تستحق أن تحسد عليه .. حب لويس . فقد خيل اليها أن الحدث الذى دب فى احشائها ، قد صرف لويس عن اشتهاء جمالها !

***

وعادا يواصلان نزهتهما .. وفجأة ، قابلا روبير كلاييس ، فشعرت كاميل بحقد شديد نحو ذلك الشاب الذي اعتادت

أن تتهرب دائما من نظرته النافذة .. لقد كان عدوها، وكان الأداة التى توشك أن تكشف النقاب عن أسرارها . ولما ساروا بضع خطوات معا ، اعتذرت « كاميل » بتعبها وجلست على مقعد . أما لويس ـ الذى كان منشغلا بالتحدث الى روبير ـ فقد استمر فى سيره الى جانب صديقه ..

وجلست « كاميل » تعبث فى الرمل بطرف مظلتها ، وهى تنظر الى الرجلين وقد أوشكا على الوصول الى نهاية المتنزه .. ولما عادا ومرا أمامها ، ألقى عليها لويس نظرة حب رقيقة ، لم تلمحها هى ، اذ شرد بصرها وقد راحت الافكار تتتابع فى مخيلتها ، والرؤى تراود عينيها .. كم من حوادث تعاقبت فى الاربع والعشرين ساعة الماضية ! .. عرفت نبأ وفاة الرجل الذى عبث بها وخانها ، ثم تأكدت من أنها أصبحت أما .. ولقد عرف لويس أمر حملها ، وقد كانت تعمل لذلك ألف حساب .. وكأن خطورة هذه الحوادث وسرعتها قد سببت لها نوعا من الغباء .. وراحت تسائل نفسها : على من تعتمد فى هذه الظروف الحرجة ؟ .. ومن تستشير ؟.. أواه ، يا للتعاسة ! .. لم يكن هناك معين ولا ناصح .. كانت معدومة القوة ، جد جاهلة ، وجد ضعيفة.. ان المرأة ـ فى أمثال هذه الازمات ـ تلجأ الى الصلاة ، فتجد فيها الشجاعة والعزاء الوقتيين ، كما يحدث للمريض عندما يتناول شرابا منعشا يسترد به بعض قوته .. ولكن كاميل لم تكن تعرف الصلاة !

وعاد اليها لويس مصطحبا صديقه . وقال لها : «لقد قبل روبير ـ يا حبيبتى ـ أن يعود معنا الى المنزل لتناول الغداء » .

ولم تجرؤ على البحث عن ملجأ تهرب اليه فرارا من نظرات الطبيب ، وقد خيل اليها أن سرها مكتوب على

جبينها ، وان روبير يقرأه بوضوح .. وقال لها هذا الأخير : « عسى ألا أزعجك بحضورى ، يا سيدتى العزيزة ؟ » . فتمتمت قائلة : « بل أن حضورك يسرنا ! »

ولقد أدركت جيدا أن لويس يريد أن يرتب مقابلة خاصة بينها وبين الطبيب . وهذا ماحدث فعلا .. فقد عادوا الى المنزل ، وبعد أن انتهوا من تناول الطعام ، سادهم الصمت فترة ، ثم لاحظ لويس أن سجائره قد نفدت ، فنهض قائلا : « لقد نسيت أن اشترى بعض السجائر ، ولا يزال فى الوقت متسع لشرائها . فهل تسمحين لى يا كاميل أن أذهب .. سأتركك مع روبير ! » .. وابتسم روبير . وحاولت كاميل أن تعترض ، فقالت :

— هل تخرج بنفسك لشراء السجائر ؟ .. مامعنى هذا ؟ .. ان الخادم جان موجود ، فلم لا ترسله ؟

— وكيف يتسنى للخادم أن يختار السجائر التى تروق لى ؟ .. اننى لن أتأخر ، وسأعود بعد خمس دقائق على الاكثر .

واذ انفرد روبير بكاميل ، قال لها : « لكم أنا آسف لازعاجك يا سيدتى ، ولكنى أستجيب لرغبة زوجك .. ولا ريب أنك تعرفين لماذا تركنا وحدنا » . فأجابت بضعف : « نعم ، ولكنى لست فى حاجة الى ذلك .. فلست أعانى البتة من اى شىء !» .. وأعاد روبير الكرة ، قائلا : « هذا حقيقى ، ولكن لويس يحبك ، وهو محق فى قلقه على من يحب .. وقد طلب منى أن أطمئنه عن حالك ، وليس فى ذلك ما يؤاخذ عليه .. فان حالة الحمل عند المرأة، ووجود جنين فى أحشائها ، حالة مرضية دقيقة ، ولو كانت هذه المرأة مثلك .. اعنى ان لها من قوة بنيتها ما يساعدها على احتمال التجربة .. اذ لابد من احاطتها بكثير من العناية ! »

ــ ولكنى لا أعانى من شىء مطلقــا .. أؤكد لك اننى فى احسن صحة ..

وبدت فى اهداب عينى روبير حركة بسيطة ، نمت عن نفاد الصبر . ولكنه كبح مشاعره ، وقال : « أرجو يا ســـيدتى الا تجعلى المهمة التى قبلت القيام بها ــ بدافع من صداقتى لزوجك ــ صعبة .. وأعيد على مسامعك انه لا ينبغى أن تخافى شيئا . فهل لك أن تجيبى عن أسئلتى فقط ؟ .. هل لك أن تذكرى لى ما هى الاعراض التى جعلتك تعتقــدين انك أصبحت أما ؟»

ولم تجب كاميل ، بل حافظت على صمتها الشبيه بغضب الاطفال ، وهى تقول فى نفسها : « انتهى كل شىء ! .. لقد افتضح أمرى ! » .. ولم يلبث جلدها ــ الذى احتمل كل عناء الايام الاخيرة ــ ان انهار فجأة ، فانفجرت تبكى بدموع حارة .. وكان « روبير » ــ طيلة الوقت ــ يتأملها باهتمام، ثم نهض عن مقعده ، وحاول أن يقترب منها .. ولعلها ظنت انه سيستعمل معها العنف ، فقد بسطت يديها الى الامام ، وهى تصرخ فى جزع : « لا .. لا أريد ! »

***

على أن يديها ارتختا فجــأة ، وتدلتا الى جانبيها .. ثم تهالكت فى مقعــدها ، وهى ترسل انينــا واهنا .. وكان الطبيب يعرف تماما هذه الظاهرة الفريزية ، التى تنتــاب المرأة عنــدما تحمل لأول مرة ، فجلس يتفرس فيهــا ــ فى تساؤل صــامت ــ وهى غائصة فى مقعــدها . ثم أومضت عيناه ببريق فضح ماكان يجول بخاطره . وأدركت «كاميل» ذلك ، فأيقنت من انه قد قضى عليها بالهلاك .. وأوحى اليها الشعور بالخطر الداهم ، بأن تسلك الطريق الوحيدة التى رأت انها قد تؤدى بها الى النجاة . فاذا بها تنهض واقفة،

وتقول والكلمات تتعثر على شفتيها ، وكأنها تجد عناء فى الانطلاق :

– انك رجل شريف ، ألست كذلك ياسيدى ؟.. حسنا ، اننى ألجأ اليك ! .. اننى واثقة من أن هناك جنينا فى أحشائى.. ولكن هذا الجنين ليس من زوجى.. أتسمعنى ؟! .. وها هى ذى حياتى بين يديك ، فاذا أردت أن تقتلنا نحن الاثنين ، فلا تتردد فى افشاء سرى !

وكان روبير يحب لويس حب الاب لابنه ، لا الصديق لصديقه الذى يماثله سنا . فما ان سمع قولها ، حتى بدرت منه حركة تنم عن الغضب .. واندفع نحو كاميل .. ولم يجد غير هذه الكلمات يوجهها اليها : « أيتها الشقية ! لماذا فعلت ذلك ؟ »

وشعرت بشدة الرعب ، حتى لقد أسفت على انها تكلمت واعترفت . وكادت تصاب بالجنون بعد أن أدركت أن سرها أصبح معروفا لدى هذا الرجل.. وتمتمت وهى تلقى بنفسها عند قدميه ، وقد فاضت دموعها كالسيل : « أواه .. اننى أرجوك .. أتوسل اليك الا تذكر شيئا للويس .. فماذا يهمك أنت من ذلك ؟.. انك لن تلبث أن ترحل عنا ، وقد لاترانا – بعد ذلك – الى الابد ، فلماذا تحرمنا من السعادة ؟ .. ان لويس لايعرف شيئا ، وأنا أحبه كما ترى ، بل أنا أعبده ! .. لقد حدث كل هذا قبل الزواج ، وقبل أن أرى لويس بعد غيابه الطويل .. لقد وقع ذلك منذ أربعة أشهر ، وكان سببه وغد تعس اغتصبنى عنوة .. ولقد مات ! .. هل عرفت كل شىء ؟ »

وظلت عند قدمى الشاب – الذى عاد الى مقعده – وهى ترتعد ، والدموع تنهمر من عينيها .. وانبعث وقع قدمين ، فأسرع روبير بالابتعاد عنها ، وهو يقول : « اسكتى !.. خذى حذرك ، فقد عاد زوجك ! » .. واستولى عليها الذعر ،

فأسرعت تلوذ بالغرفة المجاورة .. ثم سمعت الصديقين وهما يتحادثان بصوت خافت ..

ترى مـاذا كانا يقولان ؟ .. لا ريب أن روبير كان يقص عليه التفاصيل .. ترى هل كان بوسعه أن يخفى الحقيقة عن الرجل الذى يحبه ؟.. هل يخون ثقـة لويس من أجل كاميل ؟ .. وشـعرت للمرة الاولى ـ منذ بدأت كل تلك التجارب القاسية ـ بالرغبة فى الموت ، والموت فورا دون ابطاء .. واقتربت من النافذة ، وكانت فى الطابق الثـالث ، وتطل على السـاحة الداخلية للمنزل .. ودقت السـاعة ـ اذ ذاك ـ مؤذنة بالواحدة بعد الظهر ، والشمس تشـع الحرارة فى الجو .. ورأت الخدم يروحون ويجيئون ـ فى السـاحة ـ وقد دقت حجومهم لبعد المسافة بينها وبينهم .. وكانت نوافذ المبنى مفتوحة ، وقد أسدلت عليها الستائر .. وهتفت كاميل لنفسها : « لـكم اود ان أموت .. ان ألقى بنفسى من هنا ! »

وخلف باب الحجرة الموصد ، كان الحديث لا يزال دائرا بين الصـديقين .. وكان روبير هـو الذى يتـكلم ـ معظم الوقت ـ وقد راح يرفع صوته بين حين وآخر .. وقالت كاميل فى نفسها : « أواه ! .. انه يعرف الآن كل شىء ! »

وكانت السـاحة قد خلت من الناس ، فى تلك الاثناء .. وهبت نسمة من الهواء العليل على ستائر النوافذ فداعبتها ، وعلى آثار الدموع فى عينى كاميـل فبخـرتها .. وبثت فى المسكينة شيئا من الانتعاش ، فاذا بها تحس بكل ما للحياة من روعة وجمال وجاذبية .. وملأت صدرها بالهواء المنعش ، فذكت رغبتها فى الحياة ، وفى رؤية الاشجار ، وفى الكلام ، وفى الارتماء بين ذراعى انسان تحبه ، وفى الاستمتاع بالزهو بما كانت عليه من جمـال ! .. ومع ذلك تمتمت شفتاها مرة أخرى : « ليتنى أموت ! »

***

وفتح باب الغرفة فى تلك اللحظة ، وسمعت صوتا يهتف : « كاميل ، يا حبيبتى ... أين أنت ؟ » .. وكان صوت لويس ، ومع انها لم تر صاحب الصوت ، اذ كانت تقف وراء ستائر النافذة، الا انها تبينت نبرات اللطف والحب المألوفة .. وخطر لها سؤال ، كاد وجيب قلبها ان يقف انفعالا من أجله ، وارتقابا لجوابه : ألم يعرف شيئا بعد ؟

وكفت عن النظر الى الفراغ ، وشعرت برغبة عظيمة تدفعها الى رؤية زوجها ، فبرزت من وراء الستائر ، ووقفت ساكنة لاتتحرك ، ولا تجرؤ على التقدم .. وأسرع اليها ، فتناولها بين ذراعيه ، ووضع فمه طويلا على جبينها ، وعلى عينيها ، ثم شفتيها . وقال :

— يا حبيبتى .. يا زوجتى العزيزة ، لكم أحبك !.. سامحينى اذ لجأت الى روبير ، فلعلك رأيت أن هذا كان ضروريا .. والآن ، هاأنذا قد شعرت بالطمأنينة ياكنزى !.. وانك لترين ان المسألة كانت فى غاية البساطة !

والتصقت به وهى لا تعى — بل لاتكاد تسمع بوضوح — ما كان يقول . ولكنها كانت تدرك شيئا واحدا ، هو أنه يحدثها بحب ، وانه يجهل كل شىء عن سرها .. وتمتمت فى وهن : « وأين صديقك ؟ » . فأجاب : « لقد انصرف لأنه مسافر .. سيتغيب عن (نيس) اليوم ، ولكنه سيعود فى الغد ! .. اما نحن فلن نبقى طويلا هنا » .

وسرت — فى أول الامر — لفكرة السفر .. فان تلك المدينة التى قرأت فيها نبأ وفاة « جياكوميتى » ، وذلك الفراش الذى أحست فيه بأولى حركات الجنين فى أحشائها ، وتلك الغرفة التى تمكن فيها روبير كلاييس من انتزاع سرها ، وتلك الساحة التى كان يغمرها ضوء الشمس عندما شعرت

باليأس ، وكادت تقدم على الانتحار .. كل هذه الاشياء كانت تبعث الرعب فى نفسها ، فتمنت لو تمكنت من أن تهرب منها دون ابطاء ، وترحل عنها فى الحال .. وقالت متسائلة : « والى أين نذهب ؟.. الى ايطاليا ؟ » . فهز لويس رأسه ، وقال : « لا .... فان الاسفار لا تناسب حالتك ، ويجب أن تتجنبى كل ما يسبب لك التعب.. لقد وجدت روبير قلقا مترددا بعض الشىء ، أثناء تشخيصه لحالتك ، مع أنه شديد الثقة والاعتداد بنفسه وعلمه » .

ــ أؤكد لك أننى لا أشعر البتة بأى تعب أو اعياء !

ــ ان المرأة التى تحمل جنينا فى احشائها ، تعتبر فى حكم المريضة ، وقد لا نجد فى بعض الفنادق ــ التى سننزل بها ــ ما تحتاجين اليه من وسائل الراحة والعناية ، أو قد لانجد طبيبا يمكن أن نستشيره فى حالة الضرورة ، وليس فى امكاننا أن نطلب من روبير أن يصحبنا فى سفرنا .

ــ لا !.. حقا .. فماذا نصنع اذن ؟

ــ لاأرى أفضل من العودة الى (تونيان) ، ولا بد أن يكون كل شىء قد أعد الآن لنزولنا هناك ..

ــ الى تونيان ؟ ولماذا ؟ .. اننى أشعر بسعادة عظيمة ونحن وحدنا .. معا !

كانت تعرف أن العودة الى تونيان معناها التعرض لفحص والدها الطبى ، ومعناها انهيار كل أكاذيبها ! .. ولكن لويس لم يكن على بينة من هذا ، فعجب لممانعتها فى العودة وقد كان يتوقع أن تكون مشوقة الى تونيان .. ورمق كاميل بتلك النظرة المرتابة ، التى كانت تخشاها ، وقال : « ولماذا لانعود الى تونيان ؟.. الا ترغبين فى رؤية والدك ؟ .. انه أحسن طبيب يمكن أن يعنى بك !.. اننى أشعر من نحوه ــ ونحو روبير ــ بثقة لاتداخلنى نحو غيرهما من الاطباء . هل لديك سبب آخر للاعتراض يا عزيزتى ؟ »

وفى هذه المرة ، خافت كاميل أن تثير شبهاته وشكوكه ، فقد كانت الدهشة المرتسمة على وجهه تبعث الرعب الى نفسها . فقالت وهى تمسك بيده وتضعها على خدها ، كما اعتادت أن تفعل فى كثير من الاحيان : « هذا صحيح ، وأنت على حق .. سأكون على استعداد للسفر متى شئت ! »

***

وقررا السفر بعد ثلاثة أيام .. وبدت تصرفات روبير - فى هذه الفترة - غريبة فى نظر لويس . فقد بعث ببرقية يعتذر فيها عن عدم تمكنه من العودة الى (نيس) - حسب وعده - متعللا بحالة «لوسى» - خليلته - الصحية . ورد عليه لويس فى الحال ، ليخبره بعزمه على مغادرة (نيس) ، وألح عليه لكى يحضر فيقضى معهما الليلة الاخيرة فى تلك المدينة .. ولكن روبير كرر التعلل بحالة « لوسى » .

أما الحقيقة ، فهى أنه شعر بعد الصدمة التى تلقاها - على أثر اعتراف كاميل - بأنه فى حالة ماسة الى الانفراد بنفسه ليتدبر الامر .. ومهما يقل رجال علم الاخلاق عن الضمير ، فان نظرياتهم لا تمنع من القول بأن صوته يصبح أقل ارتفاعا ، وحديثه أقل وضوحا ، حين تشتد حاجة الانسان اليه والى سماع رأيه .. وراح الدكتور روبير يسائل نفسه : « ماذا يجب أن أصنع ؟ .. لقد استجبت لرغبة هذه المرأة ، وخدعت لويس بتصرف يكاد يكون غريزى . فهل هذا من حقى ؟.. ومن الذى أعطانى هذا الحق ؟.. أهو سر المهنة ؟ .. ليس سر المهنة الا اصطلاح اتفقت عليه الجماعة ، ويمكن أن أتخلى عنه كلما وجدته يتعارض مع حكمى الخاص !.. أم انه احترام السر الذى اعترفت به المرأة بملء ارادتها ؟ .. ولكنها لم تعترف الا لانها شعرت

بنفسها عديمة الحيلة ، عاجزة عن أن تخفى عنى الحقيقة !..
لا ، ان لى تمام الحق فى ازاحة الستار عن كل شىء ، اذا
راق لى أن أفعل ذلك .. ولكن ، هل من واجبى أن أفعل ؟
« اننى اذا أمسكت عن الكلام ، كنت مشتركا مع كاميل
فى الاساءة الى لويس ، وفى خداعه ، على الرغم من تلك الثقة
التى يولينى اياها .. ولا ريب فى ان هذا مما تعافه نفسى..
ولكنى اسىء اليه وأخدعه لكى لا أقتله.. هذه هى حجتى !
.. ان هذه المرأة هى حياته كلها ، وهى فوق كل شىء تحبه،
فهذا مما لايقبل جدلا !.. وهو اذا استمر على جهله بالحقيقة،
عاش سعيدا جدا الى جانبها .. أفليس القضاء على سعادة
انسانية جريمة أفظع من جريمة الكذب ؟ » ..

وظل الطبيب يومين منفردا بنفسه ، يدرس الموقف كأنه
مهندس يبحث مسألة فنية دقيقة . وما لبث ان ذهب الى
(نيس) — فى اليوم الثالث — وقد استقر على رأى ، وبدا
هادىء المظهر الى درجة كبيرة .. فلما التقى بلويس ، أخذ
يشرح له أسباب غيابه فى اليومين السابقين قائلا : « لقد
كانت لوسى تتألم من مرضها ، وكذلك كانت تشكو لأننى
أتركها وحدها كل يوم تقريبا ! »

وكان الطعام الاخير الذى تناوله الثلاثة معا ، تسوده
روح المرح . وتمكن روبير فى النهاية من الاختلاء بكاميل
لبضع لحظات ، فقال لها فى شىء من الصرامة : « لقد شغلت
بالتفكير فى الامر — ياسيدتى — منذ مقابلتنا الاخيرة ، وأرجو
أن تعتقدى أنه لولا الخطر الذى يتهدد حياة لويس ، لما
منعنى أى سبب عن أن أكشف له الحقيقة .. ولكنك أصبت
حين قلت أن المسألة تتعلق بحياته .. على اننى أود — قبل
كل شىء — أن أتأكد من انك قد أخذت على غرة ، حين اعتديت
عليك ، وان حبك لزوجك حب حقيقى ! »

فأجابت المسكينة : « تسألنى اذا كنت أحبه ؟ .. أواه ، اننى لأفضل الموت فى هذه اللحظة ، على أن أعرف أنه يشقى .. أليست هناك وسيلة للموت ، ميتة تبدو للناس طبيعية ؟ »

وتأثر روبير من الاخلاص الذى كان يلمسه فى كلماتها فقال لها :

ـ كلا ، يجب أن لا تموتى .. كل زلة يرتكبها الانسان يمكن أن يكفر عنها ، وعليك أن تمتثلى لما آمرك به . فهل هناك من يعرف بما وقع ، غيرنا نحن الاثنان ؟

ـ لا ! ليس هناك غيرنا .. فقط .

ـ حسنا ، اذا وصلت الى (تونيان) فعليك ان تحذرى مااستطعت ، وان تتحاشى الظهور كثيرا أمام والدك ، لأنه قد يدرك الحقيقة من عدة علامات خارجية وحركات لا يفهمها غيرنا نحن الاطباء .. لقد أقنعت لويس بأنك غير معرضة لأية اخطار ، وان حالتك طبيعية ، وليس من الضرورى أن يعرضك للفحص الطبى من جديد . ولذلك تستطيعين أن تطمئنى من ناحيته .. ولكن تبقى اللحظة الرهيبة الدقيقة ، لحظة الوضع .. فهل يمكن ان تذكرى لى متى بدأ الجنين يتكون فى احشائك ؟

ـ منذ اربعة اشهر ونصف ، على ما اعتقد !

ـ اذا كان الامر كذلك ، فسيتم الوضع حوالى شهر ابريل ، أو مايو ، ولهذا سأنظم وقتى بحيث أتمكن من قضاء بضعة أسابيع بمدينة (تونيان) فى تلك الفترة .. ولن يكون غريبا أن أتولى الاشراف على عملية الوضع . وما دام لويس يثق فى ثقة مطلقة فاننى ارجو أن أتمكن من اقناعه بأن الجنين جاء مبكرا .. ولكننى ـ منذ اليوم الى أن يحين ذلك الوقت ـ لن استطيع رؤيتك ، ولا أخفى عنك اننى سأتألم فى كل لحظة لأننى كذبت على صديقى ، ولكن .. اذا شعرت بالحاجة الى ، فاكتبى لى ، وسألبى طلبك ، وأجىء اليك .. اعدك بذلك ،

وسأسافر ــ بعد يومين أو ثلاثة ــ الى ايطاليا فاكتبى اذا أردت بعنوان : « شارع فريدلند ، رقم (٦١) بباريس » وسيحول الخطاب الى أينما أكون ..

وأمسكت المرأة بيدى روبير ، وقبل أن يتمكن من سحبهما، رفعتهما الى شفتيها وقبلتهما ..

وبعد ساعات ، كان لويس وكاميل قد غادرا مدينة (نيس) .

- ٣ -

ــ **ولكن** أرجو يا والدى ألا تمس « الغابة العذراء » بسوء ، أو تغير معالمها !

كان الدكتور جوفر قد احترم هذه الرغبة التى ابداها « لويس » ، وهو يطل من نافذة القطار ، فى اللحظة التى كان يغادر فيها (تونيان) مع عروسه ، فى طريقهما الى (نيس) .. ولكن الحشائش بدأت تتكاثر ، بعد ان مر صيف كامل وخريف كامل ، وأخذت ممرات الحديقة فى الاختفاء ، كما بدأت الاغصان تتشابك فى أعلى الاشجار .

وفى اليوم الذى وصلت فيه كاميل الى (تونيان) معزوجها، كان المطر يتساقط بشدة ، فأخذ الزوجان يتأملان المدينة الحزينة ، الضباب المتكاثف فوق النهر ، وهما يجلسان فى غرفة الطعام .. ما أطول الاعوام التى مرت منذ كانا طفلين يلعبان فى الحديقة ، فتبلل أمطار الخريف ملابسهما كما تبلل الغابة العذراء .. لقد كانا يسرعان ــ اذ ذاك ــ الى الاحتماء بغرف المنزل نفسه ــ الغرف التى كانت مهجورة اذ ذاك ــ وهما يضحكان ، والمياه تقطر من ثيابهما .. أمااليوم، وقد أصبح كل منهما ملكا للآخر لايكاد يفترق عنه ، فقد أخذا يستعيدان الماضى وهما يذكران له فضله فى جمع

شملهما .. وتصاعدت آهة ارتياح من قلبيهما الى شفاههما، ثم تبادلا قبلة هادئة رزينة، أمام تلك الطبيعة المنهمرة الدموع !

آه ! .. كم كان لذيذاً أن تستمر الحياة الساكنة فى المنزل الجديد ! .. لقد كانا أشبه بالطيور الرحالة حين تلتقى عند زاوية جدار ، أو فوق مكان مرتفع ، ثم تبدأ فى بناء عشها من جـديد ! .. آه ، كم كان لذيذاً أن تغـلق الابواب على السـعادة المشتركة ، عنـدما تشتبك الأيدى ـ بالقرب من النار التى توشك أن تخمـد ـ وتقترب الاقدام بعضها من بعض ، وينظر كل من الحبيبين فى عينى الآخر ، وهما يفكران فى المستقبل ، وقد هجع أهل المنزل ، وساد السـكون فى الداخل ، لا يعكره سوى استمرار صـوت سقوط الامطار وصوت أغصان الاشـجار وهى تتحـرك بفعل الرياح ، فى الخارج .

وطابت لهما الحياة الجديدة .. وكانا ـ فى كل صباح ـ يهـرعان لتقبيل الطبيب الشيخ المقيم فى المنزل المجاور ، عندما يلتقط عصاه ويستعد للخروج .. وبين أحضان ذلك السلام والهدوء ، كانت المدينة مسـتكينة ، لاتأبه لهما ولا تهتم بهما .. وكانا يقابلان أحيانا بعض الاصدقاء ، فيتحدثان عنهم فى المساء .. وتقول كاميل : « أليست مارت بديعة ؟ .. انها بسيطة ، سعيدة بمركزها المتواضع الى درجة كبيرة ، مع أنها كانت تحلم بمستقبل سياسى عظيم لزوجها ! » .. فيقول لويس وهو يداعب أصابع زوجته : « ان مارت محقة فى قناعتها ياحبيبتى ، اذ ما الذى تجنيه لو أنها أثارت روح الطمع فى نفس زوجها دلكومب ؟.. يجب أن ينسى الانسان المال اذا حصل على السعادة .. هل تظنين اننى أحلم الآن بالشهرة ، كما كنت أحلم بها احيانا فى فترة الدراسة ؟ .. لقد شرعت ـ اذ ذاك ـ فى وضع كتـاب تاريخ فلورنسـا ، ثم اهملته بعد ذلك .. » !

وتنحنى كاميل على عنقه لكى تطبع قبلة طويلة، شكرا له على تلك الكلمات ..

كانت سعيدة حقا هى الاخرى، فقد وضعت حياتها كزوجة محبوبة ستارا أخفى كل الحوادث المروعة التى مرت بها ، كما تخفى مياه البركة جثة ميت استقرت فى القاع .. يالهذه القدرة الغريبة الفائقة على النسيان ، يهبها الحب لكل النساء ! .. لقد قبلت ـ دون اعتراض أو احتجاج ـ احترام زوجها لأمومتها ، ولم تعد تشعر بالرعب اذا وقعت عينا لويس على عينيها . أما أمام والدها جوفر ، فكانت تشعر بشدة الحرج ، لاسيما حين يسألها عن حالتها الصحية .. فكانت تضطرب ، وكان الخوف من أن يستنتج كل شىء عن أمرها ، يجعلها تكرر تأكيداتها بأنها بخير ، وتلح فى انكار أى تعب ، بدرجة كانت كفيلة بأن تثير الشبهات فى نفس ذلك الشيخ .. ولذلك كانت تقلل من رؤيته قدر استطاعتها ، حتى اذا اختلت بزوجها ، لم تعد تخاف شيئا .. أفلم تكن امامها ذراعاه المفتوحتان ، تحتمى بينهما من كل شىء ؟ ..

وليست هناك عواطف جامحة تعترض المعيشة الهادئة فى مدن الريف . فمثل هذه العواطف تتبخر بين العواطف الأخرى الهادئة الشائعة بين الجميع .. والقلب هناك تبطىء ضرباته كما تهدأ الاعصاب .. ويبدو الوقت وكأنما ازداد طولا ..

***

ووقع حادث كان كفيلا باثارة القلق فى نفس كاميل لو انها كانت على شىء من الدقة ، ولكنها اكتفت بابداء العجب، دون أن تضطرب . فقد ذهب « جان » الخادم يقص على سيده ـ وهو شديد الاضطراب ـ كيف ضبط شخصا غريبا بالقرب

من حاجز الحديقة ، كان يحاول أن يتطلع الى داخل المنزل .
وأتم الخادم قصته قائلا : « ولما اقتربت منه ، أسرع بالهرب، فوقع منه شيء أثناء عدوه ! » .. وكان ذلك الشيء منظارا مكبرا ، من ذلك النوع الذى يستعمل فى المسارح لتقريب المناظر .

وقال لويس : « يا له من لص غريب ، يترك ما يخصه بدلا من أن يأخذ ما يخص غيره ! .. ولكن ألم تر وجهه ؟»

ـ أرجو أن تلتمس لى العذر يا سيدى، لأنه اسرع بالهرب، ولم يكن الضوء كافيا ليبين شكله..على أنه يشبه «لارتيج» الصغير التاجر بميدان نوتردام !

وفكرت كاميل فى نفسها قائلة : « لعل الشاب لا يزال معجبا بى ، وأراد أن يرانى بعد أن امتنعت عن الخروج ، فجاء الى هنا ! » .. ولم يغضبها أن تسمع بتلك التحية توجه لجمالها ، كما ان الحادث لم يتكرر بعد ذلك ، ولا ظهر من يطالب بالمنظار ، فلم يعد أحد يفكر فى الحادث بعد ذلك ..

واستمرت الامطار تهطل طول شهر ديسمبر ، كما كان الجو كثير التقلب : فمن رياح شديدة ، الى ضباب ، الى برق .. وفى مثل هذا الجو ، كان من المستحيل القيام بأية نزهة فى الخارج ، ولذلك كانت كاميل تقضى أيامها بالمنزل .
واعتادت « مارت دلكومب » أن تلازمها كل مساء .. وكانت مارت سعيدة، بعد أن ايقنت من حالتها الصحية أنها ستصبح أما هى الاخرى .. فقد كانت شديدة الشوق الى هذه الامومة ، التى لم تظهر بوادرها عندها الا بعد انقضاء ستة اشهر من الزواج . وكانت تقول بسذاجة : « هذا على الرغم من أننا ـ انا وبول ـ بذلنا اقصى الجهد ! »

وكانت الاثنتان تشعران بالسرور ، وهما تعدان اللفافات الخاصة بالمولودين المنتظرين .. أن هذه اللفافات مصدر

لذة عظيمة لكل نساء الريف ، وهن يقتربن من موعد الوضع. وكانت مدام « بوريس » تتردد ـ من وقت لآخر ـ لزيارة كاميل ، تصحبها ابنتها « جان » الهزيلة ، التى لم تتزوج . وكذلك كان يزورها « ديسبيرو » ، « واسكادافال » الخجول .. وكان هناك زائر رشيق مهذب آخر ، اعتاد يحضر بانتظام فى أيام الثلاثاء والخميس والسبت من كل اسبوع ، وهو يحمل معه ـ دائما ـ بعض الزهور ، على الرغم من تنوع الفصول .. ولم يكن هذا الزائر سوى الثرى « هنرى روكبيكيه » ، الذى كان قد عاد الى (تونيان) ، وطرق باب آل « دلكومب » ، وأخذ ـ عن طريق مارت وزوجها ـ يسعى ، حتى تمكن من أن يلج منزل آل لوت ، وان يزور لويس وكاميل .. وكانت تلك الزيارات تضايقه فى بادىء الامر ، لان وجود الزوج كان يقيد من حريته . الا أن لويس كان يرحب به ، ويقول لزوجته : « لماذا أحقد على هذا الشاب ؟ .. لقد رآك جميلة ، فأراد أن يتزوج ، اثناء غيابى .. فأى جرم فى هذا ؟ .. اننى ـ على النقيض ـ مدين له ببعض سعادتى ، فقد كان فى امكانه أن يأخذك ، ولكنه تركك لى ! »

وما لبث البشر أن عاد الى الثرى ، ولم تنقض ثمانية أيام ـ من بدء زياراته ـ حتى كان يخاطب لويس بقوله : « صديقى العزيز .. عزيزى لوت » .. وكان يجد متعة كبيرة فى الجلوس أمام السيدتين ـ كاميل و مارت ـ وهما منهمكتان بحياكة الملابس الصغيرة ، يحف بهما عبير الاقمشة الجديد . وكان يحاول أن يجتذب عطفهما بطريقة خفية ، اذ كان يمزح احاديثه بذكرى الايام التى قضاها فى باريس ، وحوادثها وحوادث الحى الذى كان يقطنه. وكان وصفه ممتلئا بالكلمات الغريبة ، التى يتجلى فيها الاحتقار لتلك الحياة الرتيبة . وكثيرا ما كان يختم حديثه قائلا بنبرات حزينة :

ـ انكما لتريان أنه كان فى امكانى ان اعبث هناك والهو كما أريد، ولكن كان يضايقنى كثيرا أن أحرم من رؤية الريف! .. وقد يكون الجو رديئا جدا اليوم . أليس كذلك ؟ ولكننى أفضل هذا المطر ـ وأنا أعيش هنا فى قصرى ـ على الشمس التى تشرق فى غرفتى بشارع (كجاس) بباريس . ولذا فقد عدت بمجرد أن سمحت لى والدتى بذلك .

أما ما كان يغفل ذكره ، فهو أن والدته لم تسمح له بالعودة الى (تونيان) ، الا بعد أن تزوجت كاميل . وكان هو ـ على الاقل ـ يعرف أن هذا هو السبب المباشر . على أن ثمة سببا آخر لم يدركه فى مبدأ الأمر ، وان لم يلبث أن عرفه فيما بعد .. ففى اليوم الثالث من شهر يناير ، وصل الى منزل آل لوت مبكرا عن موعده ، فى اللحظة التى انتهى الزوجان فيها من تناول طعامهما . وكان يتحرق شوقا الى الكلام ، واراد أن يقول كل ما عنده مرة واحدة، فرحبا به ، وقدما له قدحا من القهوة .. وبدأ يتكلم ، فقال : « آه ، ايها الصديقان ! .. اننى فى مركز حرج ، فان امى تريد أن تزوجنى الآن .. لقد كانت العجوز تخفى عنى سرها، فلم أشك فى نواياها قط .. ولكنها ستعرف أننى لست سلس القياد الى هذه الدرجة .. انها لم توافق على زواجى، عند ما كنت ارجوه .. اما الآن ، فانها تريد أن تزوجنى ، برغم اننى لا اريد ! »

فسأله لويس وهو يبتسم : « وبمن تريد والدتك إن تزوجك ؟ » .. وبادر روكبيكيه مجيبا :

ـ هه ! .. من فتاة لا تعرفها يا عزيزى .. فتاة حدباء! .. « لافاليت » الصغيرة .. انها احدى قريباتى ، وقد اوتيت حظا كبيرا من الدمامة، فجسمها أشبه بجسم الطائر ، كما أن ساقيها مثل سيقان هذه المائدة !.. بهذه الفتاة تريد

وظلت عند قدمى الشاب ـ الذى عاد الى مقعده ـ
وهى ترتعد ، والدموع تنهمر من عينيها .. (ص ١٧٤)

أمى ان تزوجنى ، دون أن تسألنى رايى .. وهى تتعجل الموضوع ، ولو اطعتها اليوم لتم الزواج غدا ! »

فسألته كاميل بخبث المرأة التى تكن دائما بعض الحقد نحو الرجل الذى ضحى بها من أجل مصلحة مالية : «ولكن قريبتك هذه غنية ولا ريب ؟ » . فقال وهو بادى التفكير : « أجل .. هى غنية جدا ، فلديها قصور واراض واسعة» .. ووقف أمام النافذة يشير بذراعيه ليبين موقع الاملاك الواسعة، ثم ظل بضع دقائق يفكر ، وهو يرسل بصره فى كل تلك الارض التى ارادوا أن يجعلوه سيدا عليها .. ثم قال وهو يعود الى الجلوس : « ثم انها تمتلك ذهبا كثيرا ، جمعه والدها حين كان يتجر فى الخمور .. لقد جمع ذلك الكهل تلالا من الذهب ، وكان رجلا بخيلا ، حتى ان ابنته لا ترتدى غير الملابس القديمة التى كانت ترتديها أمها .. انها تشبه المتسولات ، وقد اعتاد أن يتركها طوال يومها فى الطرقات ، لكى تعبث مع صغار الاولاد من رعاة الاغنام ! »

وخفض من صوته وقال : « وفوق هذا ، فقد وقع لها حادث ، وهى بعد فى الخامسة عشرة من عمرها .. حادث قذر ، لا أعرف تفصيلاته ، اذ رفضت والدتى أن ترويها لى . ولكنى علمت ــ بوجه عام ــ انها ارتكبت ذنبا مع أحد المزارعين .. ولعلكما تدركان ما أرمى اليه .. وكان شابا جميلا ! .. وقد ألحقت الفتاة ــ بعد ذلك ــ بمدرسة داخلية ، ويقال انها كانت تعتدى على الراهبات هناك ! » .

فهتف لويس : « يا للشيطان ! .. من الصواب ــ اذن ــ ان تتريث قبل أن تمضى فى هذا الزواج ! »

ــ هه ؟ ! .. اننى لا أتريث فقط يا صديقى ، بل اننى ارفض .. أتظن اننى ارضى بفضلات الفلاحين .. بفتاة

حدباء ، سيئة الخلق ؟ .. انها تذيق والدها كل أنواع العذاب ، منتهزة فرصة الشلل الذى أصاب نصف جسمه ! .. يا للشيخ المسكين ! انها تتركه يتمرغ فى أقذاره ! .. فهل أتزوج بفتاة مثل هذه ، فتجعلنى سخرية فى نظر الناس ؟

فقالت كاميل : « ولكن .. اذا لم تتزوج من قريبتك هذه، فانها لن تعدم زوجا آخر بكل سهولة ، ما دامت على هذه الدرجة من الثراء . أفلا يمكن أن تغض النظر عن بعض العيوب أمام ثروة الآنسة لافاليت ؟ » .. فنهض روكبيكيه ، وتناول قبعته قائلا : « لا ! .. انك تعرفين يا مدام لوت ، اننى لا أهتم بالمال . فماذا يعود على من زيادة أملاكى ؟ .. ان عندى الكفاية ، وفى امكانى أن أقضى يوما كاملا فى الصيد متنقلا بين أملاكى الخاصة ، لا أخرج من نطاقها ، لفرط اتساعها ! »

***

وخرج روكبيكيه ، فلم يره أحد – مدة أسبوع كامل – فى مدينة (تونيان). وظل الاصدقاء «ديسبيرو» و «اسكادافال» و « بوريس » ينتظرونه عبثا ، بعد ظهر كل يوم بالنادى ، حتى أخذوا يتساءلون : « ترى ما الذى أصاب السيد ؟ .. ايكون المسكين مريضا ؟ »

وتواعدوا على أن يذهبوا لزيارته فى اليوم التالى .. وحين ذهبوا اليه ، لم يجدوه مريضا، بل كان منغمسا فى مناقشات مستمرة – مع والدته – حول موضوع الآنسة « لافاليت »، التى كانت تريدها زوجا له . ولم يكن من السهل اقناع مدام روكبيكيه بالعدول عن رأيها .. كانت عجوزا عنيدة ، لا تكاد تغادر منزلها ، ولا تستقبل الا عددا قليلا من الزائرين ، لأنها كانت تسىء الى كل من يزورها . وما كانت

تحب غير ابنها الذى رزقت به فى سن متأخرة . وقد كان من جراء افراطها فى حبه ، أن أفسدت حياتها الزوجية .. ووضعت نصب عينيها غرضا واحدا ، هو أن تجعل ابنها هنرى روكبيكيه غنيا جدا . ولم يمنعها حبها العظيم لولدها من أن تدرك انه على جانب كبير من الحمق ، وانه عاجزعن التصرف بمفرده ، ولذلك كانت تعامله بقسوة وتظهر له الحدة والغضب ، وتهدده حتى يخضع لرغباتها .. وكانت هذه الوسيلة تنجح معه دائما !

قالت له : « اذن ، فأنت لا تريد أن تنفذ رغبتى ؟ » . فأجابها فى فورة الحماس : « كلا ! »

ـ حسنا يا ولدى ، اذهب الى حيث تريد ، فلست أقوى على أن أعيش مع ابن لا يطيع اوامرى .

وحاول « الولد » ـ مرتين أو ثلاث مرات ـ أن يغير من رأيها الاخير .. وفى اليوم التالى ، كان تفكيره قد هداه الى الرأى الصواب ، ففهم أن ثورته لا جدوى منها ، وان والدته لا تتصرف بهذا الشكل الا من أجل نفعه وخيره . وبعد ، افليست هى على حق دائما ؟ .. اذ ذاك ذهب يسعى الى أمه العجوز ، كالتلميذ النادم على ما بدر منه ، فوجدها تتجول فى القصر ، لكى تراقب الطاهية وتتشاجر مع البستانى . فلما مد اليها جبهته على طريقته الخاصة ، قبلته بشفتيها الجافتين ، وهى تقول له :

ـ حسنا ، حسنا !.. أن الليل قد أعاد اليك صوابك ؛ ولازلت ترغب فى شرب الشكولاته ، وامتطاء جواد والدك ؟

ثم أردفت بصوتها الاجش ، فقالت هذه الكلمات التى جعلت السيد يرتجف : « كنت قد أمرت الخادم كاديشون بأن يبيع جوادك ، فاذهب واطلب منه الا ينفذ ذلك ! » ..

وكانت والدة روكبيكيه قد فكرت فى مشروع هذا الزواج من زمن بعيد ، اذ كان فى نظرها وسيلة لتوسيع املاكه — التى ظلت على حالها منذ وفاة زوجها — ولكى يصبح ابنها أغنى أغنياء المقاطعة .. وهكذا خضع روكبيكيه لرغبة أمه ، ولم يجد بدا من الزواج بتلك الحدباء .. الا انه كان يخشى سخرية الناس ، وقد اعترف لوالدته بأن هذا كان السبب الرئيسى لمعارضته، فدقت العجوز يدا بيد، وصاحت: «آه كان يجب أن تذكر ذلك.. انك تخشى أن يسخروا منك يا سيدى .. ومن هذا الذى يجرؤ على السخرية منك ؟ » .. وسكتت لحظة ، ثم استطردت تقول : « أصدقاء تونيان بلا شك ؟ .. يا لهم من زملاء ظرفاء ! .. أهو « دسبيرو » الذى يكاد يقبل قدميك كى يحتفظ بصداقتك ، أم هو « بوريس » الذى يريد أن يزوجك بابنته ، أم اسكادافال الذى أرجو الا يتحدث عن زوجات الناس لأن زوجته تخونه أكثر من أية امرأة اخرى ؟ ! .. هه ! ايها الاحمق ! .. عندما تقول لهم : سأتزوج من الآنسة لافاليت التى تملك نصف مليون من الفرنكات عدا الاراضى ، سيغضون انظارهم خجلا ، وسيزدادون احتراما لك ! »

واقتنع روكبيكيه بهذا الرد .. وفى ذات مساء — بعد أيام قلائل — بينما كان الاصدقاء الثلاثة يجلسون بالنادى — حوالى الساعة التاسعة — وقد غلبهم النعاس، اذ سمعوا فجأة وقع أقدام .. وما لبث صوت صديقهم روكبيكيه أن ظهر فى الردهه وهو يقول : « يالله ! .. انكم تنامون هنا منذ امتنعت عن الحضور ؟ » .. واستيقظ بوريس واسكادافال وديسبيرو ، وصاحوا وقد أحاطوا بصديقهم : «آه ، السيد ! .. ماذا حدث لك أيها المسكين طوال الفترة الماضية ؟ » .. « هل سافرت ؟ » .. « هل قضيت نحبك ؟ »

وألقى عليهم روكبيكيه نظرة جامعة ، تجلى فيها فخره بثروته العظيمة ، ثم قال : « لم أسافر ، ولم امت .. وكل ماهنـــاك - يا أولادى - هو أننى قـررت الزواج ! » ..
فتبادل الاصدقاء الثلاثة نظرة تدل على القلق ، وقد حاروا فيما يجب أن يظهر على وجوههم من مشاعر .. الا أن هنرى روكبيكيه تابع حديثه فقال : «الم أذكر لكم ذلك قبل الآن؟.. لقد حدثتكم عنه ، تذكروا !.. انها ابنة لافاليت، قريبتى.. وقد أصبحنا خطيبين .. انظروا ! »

ومد يده اليمنى ، فظهر خاتم ذهبى يلمع حول اصبعه . وسارع يستغل الحجة التى استعملتها معه أمه ، فقال لهم : « ان لديهـــا مليـــونا ونصف من الفرنكـــات ، يا أعزائى ، وستمنحنى والدتى مبلغ خمسمائة الف فرنك ، فيــــكون المجموع مليونين من الفرنكات ، وهو مبلغ لا بأس به ، يكفى لمصاريف المنزل ، أليس كذلك ؟ »

وقال «ديسبيرو» وقد ظهر الحسد فى عينيه : « مليونان؟ .. انهما شيء يذكر ! » .. ولهث بوريس دون أن يقوى على الكلام .. وراح اسكادافال يعض على نواجذه ، وهو يقول : «مليونان ! مليونان !».. وكان المليونان شيئا يذكر فى الحقيقة ، بل انهما كانا مبلغا كبيرا .. كانا ثروة وحيدة فى نوعها فى ذلك الاقليم الذى لم يكن يضم غير الذين حل بهم الفقر بعد أن قضت أمراض الارض والتربة على ثرواتهم فى السنوات الاخيرة ..

وكان ثمة سكوت طويل ، قطعه « ديسبيرو » الذى اراد أن يحرج السيد كما أحرجهم هو - فقال : « وهل تحب قريبتك هـــذه .. على الاقل ؟ » . فقال روكبيكيه : « أجل .. كما يجب أن يحب المرء زوجته ! .. من المؤكد أن هناك فتيات كثيرات اجمل منها ، ولكن ليس من المهم أن يتزوج الانسان من فينوس الهة الجمال ! »

وجلس روكبيكيه بدوره ، وطرق المائدة بعصاه أولا ، ثم طرق بطن « اسكادافال » ، وقال وقد اغرق فى الضحك : « وها أنت ترى يا صديقى انه لن يمكنك بعد الآن أن تداعبنى بسخريتك ! » ..

***

وبعد أن شرب علقم التضـحية وهضـمه ، لم يبق على «روكبيكيه» الا انه ينعم بالثراء . وكان اهتمامه بهذا النعيم ـ نعيم الثروة ـ أكثر من اهتمـامه بنعيم الحب .. ولم يكن الناس يرون غيره فى شوارع (تونيان) ، اذ انهمك فى اعداد المنزل الذى سيسـكنه .. كان الناس لا يرون غير «السيد» ببطنه المنتفخة، ورأسه الشامخ، ومشيته المتباطئة .. فكانوا يتخيلون اذا رأوه أنهم يرون مليونين من الفرنكات يتحركان. وكان الرجل على حق فى زهوه ، فقد اختلفت نظرة الناس اليه منذ أعلنت خطوبته، وأصبح ظهوره فى شارع المدينة الرئيسى يثير فى نفوسهم الاعجاب والاهتمام .. وكان يلذ له أن يرقب الشفاه وهى تنفرج عن الكلمة الساحرة :«مليونان» .. لقد مرت به ـ فى ذلك العهد ـ فترة شعر فيها بالرضاء الكامل عن نفسه .. فكان يمتطى جواده فى كل صـباح ، ويذهب لتناول طعامه فى قصر « مونتريج » . ولا ريب أنه كان يذهب الى هناك ليجتذب اليه قلب الحدباء . وكان كلما ازداد اتصالا بها ، خيل اليه انها اقل قبحا ، اذ كان ـ فى كل مرة ـ يكتشف شيئا جديدا يثير اعجـابه فى ذلك القصر ، وفى تلك الاراضى التى كان مقدرا ان تصبح ملكه .

وعند عودته ، كان يشعر برغبة شـديدة فى أن يروى للناس أخبار سعادته ، فكان يتوقف عند منزل آل دلكومب أو آل لوت، ويقول : «آه لو رأيت سرداب القصر يا صديقى !..

فان مابه من النبيـذ يقدر بمائة الف من الفرنـكات ! ..
ان به كل ماتمكن « لافاليت » الشيخ من جمعه خلال ثلاثين
عاما ، ولم يمسه أحد منـذ أصيب الرجل بالشـلل . أن
الصغيرة التى سأتزوجها ، تقدم لابيها على المائدة نبيذا من
النوع الرخيص ، ضنا بما فى السرداب .. لا ريب ان كل
هذه الثروة سترقص عند ما أصبح سيدها ! »

وأخذ روكبيكيه يلح على بول ولويس لكى يشـهدا مع
زوجتيهما الحفلة الراقصة ، التى تقرر أن تقـام فى قصر
« مونتريج » بمناسبة عقد القران . الا أن الـكاهن « بول
دلكومب » كان يتجنب الاشتراك فى تلك الحفلات العامة ،
كما أن مارت كانت فى الشـهور الاولى من الحمل ، ومن ثم
فانه رفض أن يتركها وحـدها فى (تونيـان) ، وأراد أن
يجنبها متاعب رحلة تستغرق ستة عشر كيلو مترا فى العربة
ذهابا وايابا .. اما كاميل ، فقـد رفضت أن تشـهد حفل
زواج الرجل الذى تقدم للزواج منها يوما ، ولكنها حرضت
لويس على الذهاب، يدفعها حب الاستطلاع الغريزى. فراحت
تقول له : «أذهب يالويس ارجوك أن تذهب، لكى تقص على
نبأ الحدباء ووالدها وأم روكبيكيه .. لا ريب أن شـكلهم
سيكون مضحكا غريبا ! »

وتهرب لويس من قبول الدعوة، اذ كان معتزما أن يسافر
فى اليوم التالى للزواج الى مدينة (سان فلورى) ، حيث
طلب أحد المهندسين استشارته فى مسائل فنية. وحدث فى
اليوم الســابق للحفلة ، ان قدم روكبيكيه فجأة ـ ولويس
يعد الترتيبات الاخيرة لسفره ـ وراح يلحف فى الرجاء ،
طالبا منه الحضـور ، قائلا انه سيشـعر بحزن شـديد
اذا لم يشـهد صديقه «لوت» حفلته . وقال له : « انك
ترى ياعزيزى اننى اهتم بحضورك اكثر من اى شخص آخر

.. دعنى أثبت لهؤلاء الفلاحين أننى اعرف رجلا له قيمته .. رجلا باريسيا ! »

وحاول لويس ان يعتذر مرة أخرى، ولكنه تبين أن رفضه سيسبب الما شديدا للشاب ، فوافق وهو يقول : « ليكن ، مادام فى ذلك سعادتك يا سيد روكبيكيه » .. ولم يتمالك « السيد » نفسه من السرور ، فقبل لويس .

– ٤ –

ـ كم بقى من الكيلو مترات يا « بورداو » ؟

ـ بقى خمسة على الاقل يا سيد لوت ، ولكننا لن نتمكن من الصعود الى قصر « مونتريج » الا على أقدامنا ..

كانت العربة ـ التى استأجرها لويس لتحمله الى قصر آل لافاليت ـ تسير على مهل، يجرها جواد صغير يلهث تعبا وهو يعرج منذ نصف ساعة .. وكان فصل الامطار قد انتهى ، والجو صافيا ، صحوا ، كأنه ذكرى الربيع فى الاسابيع الاخيرة من الشتاء .. ان المرء ليشعر بلذة عظيمة ، وراحة مطلقة ، فى مثل هذا الوقت من الفصل .. وقد شعر لويس بذلك فعلا ، فأخذ ينقل بصره بين السماء التى تناثرت فيها النجوم ، و بين تلك الاضواء الضعيفة التى كانت تظهر وتختفى .. أضواء (تونيان) ؛ المدينة الهاجعة فى الوادى ، والتى كانت تضم « كاميل » ..

وفكر لويس فى نفسه قائلا : « الساعة التاسعة الآن ، ولابد ان كاميل تستعد للنوم ! » .. وراح يتمثلها أمامه نصف عارية .. كم من مرة ـ فى مثل هذه الساعة ـ وضع شفتيه على عنقها وعلى ذراعيها .. واخذ يحاول ان يحلل ذلك الاتصال ، فوجد فيه شيئا فوق الرغبة .. وجد

فيه شيئا من التقوى والعبادة ، يماثل شعور بعض المتبتلين حين يقبلون ايقوناتهم وتماثيلهم فى خشوع ..

وعند منحنى الطريق، ظهر الوادى، وبدا قصر «مونتريج» تحيط به الانوار المتلألئة ، وعربات المدعوين تتقاطر عليه من القصور والقرى المجاورة . وأخذ لويس يتأمل تلك العربات والانوار ، حتى وقفت به العربة - فى النهاية - أمام قصر « مونتريج » .. وكانت القاعات قد غصت بالمدعوين حين دخل . وأخذ يتطلع فى وجوه الحاضرين ، عله يجد بينهم صديقا ، ولكنه لم يوفق .. وكان قد حيا - بالقرب من الباب - سيدة صغيرة على وجهها امارات الضعف ، فردت عليه تحيته الباريسية بفتور . وكان الى جانبها كهل يجلس مستندا بيديه على ذراعى مقعده ، وهو يرقب ذلك الجمع الغريب .. وأقبل على لويس شاب انيق ، قد ارتدى ثياب السهرة - وزهرة بيضاء فى عروة سترته - وارتمى عليه حتى شعر لويس بأنه يوشك ان يقع .. وكان ذلك هو السيد روكبيكيه ، وقد أشرق وجهه . وصاح يحيى لويس :

- آه ياعزيزى لوت !.. ان حضورك دليل على شدة لطفك .. كدت أعتقد انك لن تحضر ، مع اننى فى حاجة شديدة اليك . هل تصدق أن بوريس واسكادافال وزوجتيهما لم يحضروا بعد . انك لم تتعرف الى « زوجتى » بعد ، أليس كذلك ؟ .. تعال اعرفك بها !

وقاده نحو الحدباء الصغيرة ، التى كانت تقف بالقرب من الباب .. وكانت فرقة الموسيقى قد بدات العزف ، وقال روكبيكيه : «صغيرتى بولين، اننى أقدم لك المسيو لوت، وهو باريسى أصيل ، وعالم جدا .. لقد حدثتك عنه مرارا .. أقدم لك زوجتى يا عزيزى لوت ! »

وكانت مدموازيل « لافاليت » قد سمعت روكبيكيه يحدثها ـ أكثر من مرة ـ عن لويس ، فأشرق وجهها ، وانفرجت أساريرها ، ثم ضغطت على يده ، وتبادلت معه بعض عبارات عن باريس ـ التى لم تكن تعرفها ـ وعن الريف الذى كانت تكرهه . وكانت الحقائق تخرج من فمها ببساطة . وقبل أن يفارقها الشاب ، قدمته الى والدها الذى مد اليه يده بمجهود كبير ، وتمتم بضع كلمات غير واضحة ، ثم عاد الى سكونه من جديد .

وكان لويس قد ذهب الى الحفلة وهو عازم على عدم الرقص ، وعلى البقاء فترة قصيرة ، وعدم التعرف الا بأقل عدد ممكن من الناس . ولكنه لم يحسب حساب صديقه « روكبيكيه » ، الذى أخذ يضيق الخناق عليه ، ويقول له : « انك تريد أن اقدمك للمدعوين ، أليس كذلك ؟ .. هنا بضع سيدات بارعات الجمال ، يطلن اليك النظر ، تقدم! » .. وراح يستدرجه ـ وهو فخور به ـ حتى قاده الى حلقة الرقص ، وقال : « أقدم اليكم صديقى لوت، خريج مدرس الهندسة .. وهو بئر مليئة بالعلوم .. أنه باريسى من باريس ! »

وتركه لويس يقدمه الى المدعوين ، وراح يحيى من كان يقدم اليهم ببضع كلمات مناسبة .. وكانت معظم السيدات من الجميلات ، الا أن ملابسهن البسيطة كانت تدل على العسر المالى الذى كان يخيم على المقاطعة . ودهش لويس لمنظر فقراء الرجال وهم يدفعون الاغنياء بمناكبهم ، دون اهتمام أو مبالاة .. وضمت الحفلة كذلك بعض الطلبة من أقارب العروسين ، فأخذ لويس يراقب واحدا من هؤلاء ، وقد انحنى على أذن احدى السيدات يقص عليها ما جعلها تغرق فى الضحك من وراء مروحتها ..

وما لبث بوريس ان وصل ، تتبعه زوجته وابنته «جان» ، التى بدت أشد هزالا فى ملابسها الجديدة .. وتبعهم اسكادافال بجسمه الضخم ، والى جانبه زوجته الصغيرة ، وقال بوريس بصوت مرتفع : « لكم تحيتى .. تحيتى يامدام روكبيكيه ، وأنت يا سيدى والد العروس ! .. تصوروا أن سائق العربة ضل الطريق ، وأخذ يوهمنا أنه سيصل عن طريق مختصر » .. ثم داعب الرجل المريض - والد العروس - بأن وضع يده على بطنه ، فصاح الرجل صيحة ألم .. ونظرت اليه الآنسة لافاليت نظرة تصحبها ابتسامة حادة ، كان معناها : « اما أنت ياصديقى ، فلن تدخل منزلى بعد أن يتم زواجى » ! ..

لكن بوريس لم يحفل ، واستمر يقص كيف ضلوا الطريق، واسكادافال يؤيده فى أقواله من وقت لآخر ، فيرتفع صوته على الموسيقى .. وتركه لويس يقص قصته ،وغادر القاعات المكتظة بالناس ، لكى يتحاشى الاتصال بأحد .. وكان الجو قد أصبح خانقا . ولما كان الفصل لا يزال شتاء ، فان النار كانت تتأجج فى المدافىء ، برغم أنهم حاولوا اطفاءها .. ووقف لويس أمام غرفة اللعب ، الا أن الدخان المتصاعد فى جوها منعه من دخولها . وكان بعض الرجال قد خرجوا الى الحديقة لتدخين لفافات التبغ .. وجازفت بعض النساء بالخروج أيضا ، الا أن برد الليل جعلهن يشعرن بالبرودة تسرى الى أكتافهن ، فعدن - فى الحال - الى الداخل ..

***

وتناول لويس معطفه ، وأوقد لفافة ، ثم خرج الى الحديقة .. ثم واصل سيره حتى خرج منها . وكان القصر يقع فوق ربوة واسعة ، فأطل لويس على الوادى الفسيح المنبسط

امامه ، يغمره الظلام السائد باستثناء أنوار ضعيفة هى أنوار مدينة (تونيان) .. وأطال لويس النظر ، وقد اتجه قلبه مع فكره ، يسعيان الى تلك المرأة المعبودة النائمة فى منزل بعيد ، من تلك المنازل التى كان الظلام يلفها .. ثم عاد الى الحديقة ، فتطلع الى النوافذ ، وأخذ يراقب المشتركين فى الرقص وهم يتحركون كالاشباح ، تقودهم الموسيقى المحتجبة عن نظره . وأخذت الضجة والاصوات تزعج الشاب وتضايقه ، وشعر ـ ككل عاشق مخلص ـ بحاجة الى الوحدة التامة ، حيث يستعرض المرء كل سعادة ماضية ، وحيث يطلق فكره مستعرضا مراحل الحب ، واحدة اثر أخرى .. وسار وحده فى ممر مظلم ، وقد نسى نفسه وفى أى مكان هو .. وتلاشى من ذهنه روكبيكيه وبوريس ومدموازيل لافاليت ، ولم يعد يفكر الا فى زوجته ، وقد طغا حبه لها وتأجج .

ولما توغل فى الممر ، شعر بظلام الليل يغمره تماما ، وأحس بالهدوء التام ، ولم تعد الاصوات المنبعثة من القصر تصل اليه . ولم يكن يقطع ذلك السكون غير صوت الفروع الذابلة التى سقطت عن الشجر ، وهى تتقصف تحت رجليه .. ومن وقت لآخر ، كان يضع سيجاره فى فمه ليدخنه ، فتتوهج الشعلة الصغيرة ، وترسل ضوءا ضعيفا فى ذلك الظلام الدامس . وانحنى الممر الذى كان يسير فيه ، فتابع المشى مسافة أخرى ـ فى الظلام الذى ألفته عيناه ـ دون أن يدرى له وجهة ، اذ راحت تقوده الفريزة ، دون ان يهتم بالطريق الذى يسلكه .. كان يفكر فى كاميل النائمة ، ويتخيلها وهى فى فراشهما .. كم من ساعات كاملة قضاها فى التطلع اليها ، وهى فى تلك الحال ، وقد انحسر الرداء عن كتفيها ، وبدا شىء من الشحوب على وجهها ، وارتفع

الغطاء عند صدرها . وتخيلها أمامه فى هذه اللحظة بشفتيها المفريتين ، وقد انفرجتا قليلا ، فبانت أسنانها البيضـاء . وقال الرجل بصوت مرتفع، كأنه يخاطب الاشجار الصامتة : « كم أحبها !.. كم أحبها ! »

وحين خطر بباله أنه مضطر الى البعد عن تلك المعبودة فى الغد ، والافتراق عنها بضعة أيام ، سرت الرعدة فىجسمه سريان السم .. أيفارقها دون باعث قوى ، اللهم الا بضع مصالح مادية ماكان ينبغى أن يهتم بها أقل اهتمام ؟.. الا أنه مالبث ان قال فى نفسه : « يجب ان ازداد غنى . من اجلها هى على الاقل ، ومن اجل الطفل القادم » !

الطفل .. لم يكن فى امكانه أن يصدق حتى الآن أنه تمكن من خلق حياة جديدة .. حياة انسـانية لم تظهر بعـد . وظل يسير مدة من الزمن ، وقد غرق فى غمارحلمه واعجابه الفائق.. وما لبث ان سرت اليه انغام الموسيقى ، فردته الى عالم الحقيقة ، ورفع راسه فرأى ان الممر يوصل الى بقعة صغيرة مستديرة منزرعة ، تتفرغ منها بضع ممرات أخرى . ورأى على مقربة منـه القصر بواجهتـه الخلفية المظلمة . وكانت الانوار تشع من النوافذ .. وعرف لويس أنه سار ــ فى ذلك الممر ــ نصف دائرة كاملة حول القصر .

وكان سيجاره قد انتهى ، الا انه ــ بعد أن تذوق الهواء العليل ــ لم يجد من نفسه ميلا للدخول الى القصر . ووجد مقعدا يغمره ظلام الحديقة ، فجلس عليه .. وهناك استقرت عيناه على القصر ، فراح يصغى الى الموسـيقى التى كانت تصل اليه متقطعة لطول المسـافة .. ورأى ثلاثة أشـباح تتحرك مقبلة نحوه ، فلمـا اقتربت ، اسـتطاع أن يتبين الاصدقاء الثلاثة : اصدقاء «روكبيكيه» ، وهم يتضاحكون ، ويتراشقون بالنكات .

واستمر الاصدقاء الثلاثة يقتربون من لويس ، فقال فى نفسه : « ليتهم لايفطنون الى وجودى » !.. فلم يكن يهمه كثيرا أن يتحدث الى أصدقاء روكبيكيه ، أو أن يمكث معهم ! .. ولم يروه ، ولكنهم وقفوا فى الممر المجاور له . وكان بوريس يقول لزميليه : « لقد أصبنا كثيرا فى الهرب من حفلتهم الراقصة اللعينة .. ياللحر الشديد هناك ! » .. وتلفت ديسبيرو حوله ، وقال : « حقا .. ان الحر شديد فى الداخل ! » . وأردف اسكادافال : « أما هنا ، فالهواء عليل ! »

وقال بوريس يخاطب ديسبيرو : « مارأيك فى الجلوس هنا ، على هذا المقعد القريب ، لندخن ؟ » .. فهز دسبيرو رأسه معترضا ، لأنه كان يخاف البرد . ولكنه وافق فى النهاية ، وقال : « سأبقى واقفا فى مكانى الى جانبكما، حتى لا يؤثر فى البرد كثيرا » .

وسمع لويس أصواتهم وهم يجلسون على المقعد المقابل لمقعده ، بحيث أصبح لايفصله عنهم غير بعض اشجار قليلة الارتفاع . ثم سمعهم يشعلون لفافاتهم .. وما لبث اسكادافال ان صاح : « اذن فقد تزوج الصديق هنرى روكبيكيه ! » .. ودق ديسبيرو الارض بقدمه ، وقال : « ولقد عقد زواجا حسنا ! » . ثم أردف قائلا : « انه سعيد الحظ بأمه ، فلولا هذه العجوز – كما يسميها – لقلد الولد أباه ، وملأ القصر بالفتيات و .. » . وهنا قاطعه بوريس قائلا : « لولا أمه لأتجه هنرى روكبيكيه الى مكان أعرفه جيدا .. كان خليقا أن يتزوج – بدلا من لافاليت الصغيرة التى تملك مليونين من الفرنكات – ابنة الطبيب جوفر التي لا تملك شيئا ! »

***

ولم يكن لويس يصغى الى قولهم بانتباه ، ولكنه لم يكد يسمع ذكر « ابنة الطبيب » حتى ارهف اذنيه ، ليلتقط صوت ديسبيرو وهو يقول مترنما على أنغام اللحن الذى كانت الموسيقى تعزفه ، فى تلك الاثناء : « ابنة الطبيب ؟ ! .. انها الاخرى قد أصابها الحظ السعيد ، فقد تمكنت ــ بعد كل الذى حدث لها ــ من أن تجد لنفسها زوجا ! » .. وعقب بوريس على كلامه بقوله : « وهو زوج غنى !.. ماذا ترى فى هذا الزوج ؟ » . فقال ديسبيرو : « انه جميل الشكل ! »

ــ لقد كان جميلا منذ صغره .. هل تذكره بعصاه ورباط رقبته ؟.. انه صفقة رابحة لمدموازيل جوفر ــ على كل حال ــ فهى فتاة لا تملك فلسا واحد ، ولا تؤمن بالله ولا بالشيطان .. فتاة دفعت الناس الى التحدث عنها .. انها ماهرة فى اجتذاب الرجال ، وانى لواثق من انها كانت تشعر بالرغبة فى الزواج منذ سن الثانية عشرة !

فقال اسكادافال : « آه . منذ الثانية عشرة !.. انك لتبالغ فى أقوالك يابوريس ! » .. ولكنه سرعان ماندم على اعتراضه ، اذ راح صديقاه يسخران منه ، ويقولان : « يالك من أحمق ! » .. « ياللغباء ! » . وتلقى النقد صامتا .. فى سن الثانية عشرة ، ولم لا ؟.. ربما فى سن العاشر كذلك ، وروى ديسبيرو ــ عن طبيب بالجيش ــ ان فتاة وطنية فى افريقيا ، حملت من احد الجنود وانجبت قبل أن تبلغ الحادية عشرة من سنها !.. وما ان انتهى ديسبيرو من قصته ، حتى سيطر الصمت على الاصدقاء الثلاثة . وعادت فرقة الموسيقى تعزف أدوار الرقص بعد سكون استمر بضع دقائق ، وكانت أنغامها تصل الى الحديقة .

وشعر لويس كأنه مقيد في مقعده ، فقد أثر فى نفسه

ماسمع عن زوجته ، وخالجه شعور خفى بأنه سيسمع حديثا آخر ، لو ظل جاثما على مقعده . وتمنى لو كشفعن جميع الافكار الساقطة أو العدائية التى تجول بعقول هؤلاء الرجال الثلاثة . وبدأ يستثقل صمتهم ..

وكان بوريس أول من قطع حبل هذا السكوت ، فقال بحزن : « هكذا الدنيا !.. ان الفتيات الشريفات الأمينات لايتزوجن .. انظر الى ابنتى يا ديسبيرو ، أنظر الى جان .. انها على جانب من العلم ، كما انها تتردد على الكنيسة، ولم تلك الالسنة اسمها اطلاقا ، ومع ذلك فلا بد لنا من أننلقى بها الى زيجة تعسة ، أو نزج بها الى الدير .. فى حين ان الفتيات اللاتى اتصلت الواحدة منهن برجلين أو ثلاثة .. مثل هذه الفتاة .. » . وقاطعه اسكادافال متسائلا : « ومن هم هؤلاء الرجال ؟» . فأجاب : « أولهم السيد روكبيكيه» . واذ ذاك ، صاح ديسبيرو : « هراء يا بوريس ! لاتكذب !.. انك لتعرف جيدا — كما أعرف انا — أن روكبيكيه لم ينل منها قلامة اظفر ، فلقد كان شديد الحياء فى ذلك الوقت . أما الآن فقد تغير الموقف ، لأنه يخدع زوجها .. قد يكون من الخير لو أن لويس لوت المسكين سهر على .. »

ولم يدعه بوريس يكمل جملته ، بل اندفع قائلا : « اذا لم يكن هنرى روكبيكيه قد نال منها وطرا ، فان الضابط الكورسيكى — الذى سكن بالقرب منها — لم يدعها تفلت من يديه !.. اننى لأعرف الشىء الكثير عنهذا الموضوع » . فتساءل أسكادافال : « وما الذى تعرفه ؟ » .

واذ بلغ اهتمام ديسبيرو بالموضوع هذا الحد ، اقتربت رؤوسهم ، وأخذ الثلاثة يتهامسون ، وحركاتهم تبعثالخوف فى النفوس ، اذ تبدو كحركات الشياطين فى بهيم الليل . وكان بوريس شديد الحماس ، حتى أن صوته كان يرتفع

من حين الى آخر ، فتصدر منه كلمات تصل الى اذنى لويس .. وكان من بين ماسمع : « مع الضابط الكورسيكى ! .. ان لاتيج الصغير قد رآها ، فقد كان ذلك الولد يحب الحسناء .. كان يذهب كل مساء ، بعد أن يخرج من متجر عمه ، ويتسلق السور ليراها فى ساعة النوم !.. ولكن أرجو الا يردد أحدكما شيئا من هذا الحديث ، لأن لارتيج اعترف لى به فى النادى ــ ذات مساء ــ بعد ما أسقيته بعض الخمر ! »

وأطلق ديسبيرو ضحكة قصيرة ، وقال : « ها ! ها ! .. وبعد ذلك توفى الضابط ، وهو فى مدينة (تونكين) .. اليس كذلك ؟ »

ــ نعم !.. ثم عاد ذلك الساذج المخدوع فى الوقت الملائم ، لينتشل المرأة .. والشىء الآخر .. ويأخذ التبعة على عاتقه هو ..

وقاطعه ديسبيرو قائلا : « ولكن من الذى يعرف الحقيقة ؟ .. وربما كان هو ــ لويس ــ الذى فاز بها قبل الآخر . الا تذكر أنهما لم يكونا يفترقان فى صفرهما ؟ » . فصاح اسكادافال : « هذا صحيح !.. هل تعتقد يابوريس أنها .. مع ذلك الولد الصغير ؟ » . فأغرق بوريس فى الضحك ، وهو يقول : « نعم أيها الأحمق ، وهذا خير له على كل حال .. ان هذه أحسن وسيلة يخدع بها نفسه ، بدلا من أن يخدعه رجل آخر ! » . وقهقه الاصدقاء الثلاثة ، ثم هتف ديسبيرو : « يا الهى ! .. لقد بدأت أشعر بالبرد ، ويخيل الى أننى أصبت بزكام .. فلنسرع بالدخول ! »

ورأى لويس أشباحهم ــ المختلفة الاحجام ــ وهى تتحرك فى اتجاه القصر ، ثم تختفى عن نظره .. وأحس بلفحة من

لهواء تهب على وجهه ، وتحمل اليه نغمات الانشودة التى كانت تعزفها الفرقة : « أمل الايام السعيدة » !

***

ظل لويس مسمرا فى مقعده لا يتحرك ، وقد أصابه ذهول عجيب ، حتى بات أشبه برجل تلقى ضربة قوية على رأسه . وكانت الضربة القوية هى الخبر اليقين الراسخ الذى سقط على رأسه ، وكاد يقضى عليه .. ذلك الخبر الذى كان يجزم بخيانة امرأته ـ لم يصل اليه بسلسلة طويلة من الاستدلالات والاستنتاجات التى يحبكها الروائيون، بل انه وصل اليه فجأة ، ووجد غذاء قويا من نفس الحب العظيم الذى كان يعمر فؤاده .

وكان لذلك تأثير يشبه تأثير عود الثقاب اذا اقترب من المواد المفرقعة ، ففى لحظة واحدة تشتعل تلك المواد وتتفجر .. كانت ذاكرته قد احتفظت ـ دون أن يفطن ـ بآلاف الحوادث وآلاف المشاعر التى تجمعت فى نفسه ، فأدرك ـ فى تلك الساعة ـ كل شىء . وتذكر ذلك الاضطراب الشديد الذى أصاب «كاميل» عندما علمت بوفاة جياكوميتى، وتذكر مقاومتها الشديدة عندما اقترح عليها استشارة الطبيب .. لقد كانت مقاومتها شديدة جدا ، الى درجة كفيلة بأن تثير الشك ، الا لدى من كان مثله ، مغمض العينين !

وتذكر ـ بعد ذلك ـ هيئة الدكتور روبير الغريبة ، على اثر اجتماعه بكاميل .. وانقطاعه عن الحضور ثلاثة أيام ، ثم تردده فى الحضور .. وجزع كاميل عندما قرر العودة بها الى مدينة (تونيان) .. انها ـ ولا بد ـ كانت تخاف والدها !

أدرك لويس كل هذا فى وقت واحد ، ولم يدركه فى تتابع الحوادث التى مرت . فيالغرابة العقل الانسانى ! .. كان لابد من أن يتردد صوت من الخارج ، ويرن فى اذنه قائلا: « لقد كانت زوجتك عشيقة جياكوميتى ! » ، حتى يفطن الى كل تلك الحوادث ، مع انها كانت منقوشة على ذهنه !

وكم كان هذا الاكتشاف قاسيا ، وكم كان مؤلما ، حتى لقد شعر كما لو ان الموت داهمه .. وأحس كأن سهما أصاب قلبه .. بل كان ألمه فى أول الامر ـ نوعا من الضرب بالسياط ، ولكنه لم يلبث ان خلف ألما حادا ، اخذ يتزايد شيئا فشيئا حتى استفاض .. ان شخصية المرء ـ فى مثل هذه الحالة ـ تزدوج وتصبح اثنتين بدلا من واحدة ، حتى ليشهد المخلوق البشرى نفسه وهو يقاسى ، فيقول : « لكم اتألم !.. لم أكن أظن أن فى امكان احد ان يقاسى الى هذا الحد .. وان الالم ليتزايد ! »

والحق ان شدة الالم تتجلى فى عدم الاحساس به .. لقد مرت على لويس فترة من الزمن ـ لم يعرف مداها ـ خارت فيها قواه ، وفقد فى أثنائها الاحساس بأى شىء اللهم الا بحمى متزايدة تدب فى كيانه .. وفى القصر ، كانت الموسيقى تعزف لحنا راقصا ، فخيل الى التعس أنه فى حلبة الرقص ، وانه يرى وجوه الجميع وملابسهم المختلفة الالوان ، وهم يرقصون ويدورون فى القاعة ويضحكون . أجل ، ان منظر الراقصين الضاحكين كان الشىء الوحيد الذى راح يتمثل لعينيه فى تلك الساعة الرهيبة !

وما لبث كل ذلك أن أخذ فى الزوال بكل بطء ، وخالجه الشعور الذى يحس به المريض اذا اقترب من الشفاء . فأخذت الافكار الغريبة تجول فى رأسه ، وغادر مقعده فسار الى الامام ، وهو مضطرب الحواس ، موزع الفكر .. وكانت

السماء قد بدأت فى الشحوب ، وشاع فيها ضوء ضعيف كان ينعكس من بين فروع الاشجار .. وكانت هناك نفس بشرية محطمة ، تحاول أن تستجمع شجاعتها فى تلك المخابىء .. وكانت درجة الحرارة قد أخذت فى الانخفاض ـ مع اقتراب الفجر ـ وأخذ الندى يخضل فروع الاشجار .

وبدأت خيوط الضوء الاولى فى الظهور من ناحية الشرق، يعترض سبيلها بعض الغمام .. وسار لويس ببطء ، حتى اختفى صوت ضجيج بنى الانسان عن اذنيه ، ولم يعد يصل الى سمعه غير وقع قدميه على الارض الصلبة ، وهمسات الهواء بين الافنان ، فى الغابة المجاورة .. وشعر بالرعدة تسرى فى جسمه ، فانكمش فى ثيابه . واذ ذاك فقط، شعر بالقوة على التفكير ..

ولكن الاعتقاد الراسخ الذى تسلط عليه فى بادىء الامر ، مؤكدا خيانة زوجته ، لم يلبث أن أخذ يتبدد تدريجيا .. وشعر لذلك بسرور عظيم . وأخذ يفكر فى الاساس الواهى الذى قام عليه هذا الاعتقاد .. مجرد كلمات تبادلتها أفواه الحساد ، وكلهم من أهل الجنوب الذين اشتهروا بالكذب والنميمة والحسد . آه ، حقا !.. كل الذى سمعه كذب وخطأ !.. لقد أخذ الحب فى الانتصار ، وراح يطرد الشك .. ان كاميل لايمكن أن تكون مذنبة ، مادام يحبها !.. وشعر براحة لأن الحرارة بدأت تدب الى جسمه من جديد ، وتسلط عليه الميل الى المرأة المعبودة ، مرة أخرى . فأى تأثير ذلك الذى يمكن أن يكون لبضع كلمات تناثرت فى الهواء ، أو بضع ذكريات بعثتها المصادفة، ازاء شهور عديدة من الاغراق فى الحب ؟!.. هل خدعه ذلك العناق الحار ؟.. وتلك القبلات الجنونية هل كذبته ؟!

ولكنه مالبث أن توقف فجأة فى تفكيره ، اذ تذكر شراهة

الشفتين ، وتلك الضمات ، وذلك العناق الطويل .. تلك الاشياء كلها بدت له شاهدة على اتهام كاميل . فلا يمكن أن يكون لعذراء هذا الالمام بفنون الحب !

واذ بلغ من تفكيره هذا الحد ، أحس كأن شخصا قد دهس قلبه بقدمه . فقال لنفسه : « لقد علمتنى أشياء كنت أجهلها ! » .. أشياء فقط ؟! .. انها علمته الحب بأكمله ، فقد كان يجهل كل شىء ! .. وهكذا استولى عليه يقين مرعب ، زاد من غضبه الطاغى ، حتى أنه شعر برغبة فى أن يقتل نفسه نكاية فيها ، لأنه لم يعرف الحقيقة الا بعد مرور هذا الزمن الطويل ، والا بعد ان سمعها على ألسنة الغير ..

وأخذ النهار فى الظهور .. مجرد ضوء شاحب ، يغالبه الضباب ، وقد أخذ ينتشر رويدا ، فاذا به يلف الحديقة فى غلالة من الحزن فاقت تلك التى كان يسبغها الظلام .. وتلفت لويس حوله ، لايكاد يدرى أين كان .. كل ما بات يهمه هو أن يبتعد عن هذا المكان ، الذى نسى سبب وجوده فيه !.. لذلك راح يجد فى السير ولكن ما لبث السور ان قام فى طريقه ، فرأى نفسه داخل نطاق القصر .. وكانت لا تزال هناك ـ وراء نوافذ الطابق الاول ـ بعض الانوار الضعيفة ، وقد أخذت أضواء الفجر اللازوردية تنعكس عليها .. وكانت الموسيقى قد انقطعت عن العزف ، ولم يعد يسمع غير أصوات أطباق الطعام ، توحى بانفضاض القوم عن الموائد ..

وكانت ثمة مصابيح صغيرة قد أخذت تتحرك ، اذ كانت العربات تستعد للعودة . وأخذ لويس ينظر الى كل هذه الاشياء وقد بدا عليه وجوم كذلك الذى يعلو العائد من المقابر ، عند ما يفاجأ بمظاهر الحياة .. وخيل اليه أن هوة

سحيقة تفصله الآن عن كل هذا العالم . كما بدا له ان عودته بالعربة ـ كما جاء ـ وان الالتقاء ببوريس وصديقيه وروكبيكيه وبقية المدعوين ، أمر بغيض ، فظيع .. وكان البلل قد أصابه من ندى الفجر ، واخذت أسنانه نصطك من شدة البرد . فاستقر رأيه على أن يتحاشى الجميع ، وأن يتجه الى الطريق العام ، متخطيا كل ما كان هناك من حواجز .. وسرعان ماتراءى له الوادى ـ الذى اجتازه فى الامسية السالفة ـ كما شاهد فى السماء بقية من نجوم !

***

وكم للمؤثرات الخارجية من وقع فى النفوس المرهفة ، الرقيقة !.. فعندما رأى لويس السماء ـ فوق الوادى ـ والافق المنبسط أمام ناظريه ، عاوده نفس الشعور الذى داخله منذ ساعات ، فقال مفكرا فى نفسه : « انها هناك ! »

وكانت قوة العاطفة التى دفعته الى هذا القول ، توازى القوة التى دفعته الى تذكر زوجته فى المرتين السابقتين .. ولكن كرامته ما لبثت أن ثارت ضد ضعفه الجسدى ، فعلى الرغم من أن الشك كان يراوده فيما سمع ، الا أن الاعتقاد بأن « كاميل » مذنبة أخذ يرسخ فى ذهنه .. وشعر بأنه لابد له من أن ينتزع السر من ذلك الفم الذى طبع وختم بالكذب ، فانطلق يعدو بقية الطريق .. واخذ ضوء النهار يتضح أثناء جريه ، فتراءت له الجبال الشاهقة ، وشرعت الاصوات ترتفع فى عرض الطريق ، فبدأ يسمع نداء رعاة البقر ، وأصوات البنات الصغيرات وهى تتردد فى الهواء ، ونباح الكلاب ..

وأخذ الصباح ينتشر بسرعة .. واخترق لويس قرية (جرتلوب) ـ وأهلها لا يزالون نياما ـ حتى اذا بارحها

بدت له (تونيان) .. ورأى منزله تميزه الاشجار العالية ، كما رأى أسطح المنازل ، وأجراس الكنائس .. وأخذالضوء يغمر المصانع . ووقف لويس ، وقد أحس بالتعب بعد ان جرى ساعة من الزمان .. وقف مترددا مضطربا ، عند ما اقترب من المكان الذى كان يقصده .. وكانت الاصوات المختلفة تعلو من ورائه ويختلط بعضها ببعض ، ولكنه استطاع – مع ذلك – أن يميز بينها صوت عربة مقبلة فى اتجاهه .. وأسرع فانحرف الى طريق بعيد ، وما لبث أن رأى عربة كبيرة تحمل بعض ضيوف قصر (مونتريج) فى عودتهم من الحفلة ..

واستمر لويس فى طريقه ، حتى اذا وصل الى الميدان ، كانت مدينة (تونيان) قد بدأت تستعيد الحياة بعد سباتها .. فاذا نوافذ المنازل تفتح ، كما ظهرت العربات وهى تحمل بعض الفلاحين .. وسار لويس خلف المتنزه العام ليتحاشى رؤية الناس . ولكنه سرعان ما تبين أن شجاعته تخونه ، وانه لا يقوى على العودة الى منزله والتحدث الى «كاميل» فقال فى نفسه : « سأذهب لمقابلة جوفر ! » .. ومن ثم سار على مقربة من ضفة نهر (الجارون) ، ثم اتجه نحو السلم المؤدى الى المنزل .. وكان الباب الموصل للشرفة مغلقا دون احكام – كما جرت العادة – فتمكن من فتحه ، وحول نظره حتى لا يرى غرفة « كاميل » بستائرها الحمراء من وراء الاشجار ..

بيد انه مالبث أن تمثل ذلك الوجه المعبود ، وقد استقر على الوسادة وسط هالة من شعرها الفاحم الاسود .. وعندئذ اشتد اضطرابه ، حتى لقد وقف لحظة ، ووضع يده على صدره كأن خفقان قلبه يوشك أن يقضى عليه !

ولم يكن باب منزل الطبيب محكم الاغلاق ، فدلف لويس

الى الداخل .. واذا به يصادف « ارما » فى طريقه ، فما ان رأته حتى أطلقت ضحكتها الرنانة .. ولم تؤثر ضحكة « ارما » فى نفس لويس كما أثرت فيها هذه المرة .. وكانت الساعة قد بلغت السابعة .. واقترب من غرفة الطبيب فلم يسمع حركة .. وطرق الباب ، فواتاه صوت جوفر من الداخل قائلا : « ادخل ! » ..

ووجد الطبيب جالسا أمام مكتبه ، وقد ارتدى قميصه فقط ، وانهمك فى كتابة خطاب .. وما كاد جوفر يرى لويس حتى قام فى الحال ، واتجه اليه صامتا ، ثم مالبث ان صاح : « لويس .. يالشحوب وجهك ! .. ماذا حدث لك ؟ » .. ورأى لويس صورته منعكسة على المرآة ، فانزعج لشحوب وجهه واضطراب عينيه . ولكنه — مع ذلك — اجاب بصوت ثابت : « والدى .. أريد أن أحدثك عن شىء لم يكن متوقعا !.. اننى فى حاجة اليك » .. وفجأة ، اختنق صوته فشهق ، ثم ارتمى على صدر الطبيب وهو يقول : « أواه ! .. اننى تعس جدا .. تعس جدا » ..

كانت الصدمة الهائلة — التى احتملها فى الليلة السالفة — قد دهمت أعصاب هذا المخلوق المرهف الاحساس ، ثم تحولت — عندما رأى الشيخ الطيب — الى سيل من الدموع المنهمرة .. فقدم اليه جوفر مقعدا ، وساعده على الجلوس ، ثم جلس بجانبه وقد أمسك بيديه .. ولما كان يدرك أن أية كلمة كانت كفيلة بأن تزيد من اضطراب لويس ، فقد آثر السكوت ، وان بدت على أساريره امارات التفكير العميق ، وهو يحاول أن يقرأ السر القاسى فى عينى الشاب المبللتين بالدموع .. وما لبث لويس أن تمالك عواطفه ، فمسح عينيه ، وتطلع الى الطبيب قائلا : « اننى أعرف — ياوالدى — انك تحبنى ، وأوقن من انك أخلص أصدقائى .. حسنا ! اننى

أشك .. وانه لشك فظيع ، أرجو ان تسامحنى اذا حدثتك عنه ! »

وقاطعه جوفر متسائلا : « هل تشك فى كاميل ؟! .. اننى أيضا أشاركك هذا الشك ! »

ووقف لويس فجأة ، وصاح : « انت أيضا ؟! .. أنت تعرف كل شىء ؟ اذن فقد خدعتنى ! اذن فقد كنت شريكا لها .. » . وهز الطبيب رأسه قائلا : « لا .. انما قلت لك اننى أشتبه فى الامر ، لأننى لاحظت أنها تخفى عنك شيئا .. لقد مرت بضعة أيام وانا أرجو أن أفاتحك فى هذه المسألة ، ولكنى كنت اقول لنفسى : « لماذا ازعجه ؟ » .. ان ما أشعر به انا نفسى ، ليس سوى مجرد شك .. ولكن ما الذى عرفت أنت ؟ »

وقال لويس : « لقد سمعت أن هناك اشاعة انتشرت فى المدينة ، وتتلخص فى ان كاميل كانت عشيقة الضابط .. ذلك الرجل المدعو جياكوميتى ، الذى كان يسكن هنا » .

ـ ان هذا لايقوم دليلا على شىء .. ومن الذى يردد هذا القول ؟ !

ـ بوريس وديسبيرو ، صديقا روكبيكيه ...

ـ انهما كاذبان .. وكيف لهما أن يعرفا ذلك ؟ .

ـ هذا هو مايجعل الامر قابلا للتصديق ، فان الشاب « لارتيج » ـ الذى فوجىء وهو يتطلع بمنظاره الى داخل منزلنا من مدة قريبة ـ شاهد ذلك الضابط الكورسيكى فى غرفة كاميل ، فى احدى الليالى ..

وثبت جوفر نظره على لويس ، ثم قال : « وهل يكفى هذا للحكم على زوجتك .. انك لم تخبرنى بكل شىء ! » . فأجاب لويس بصوت متهدج : « هذا حقيقى ، فان الشك الذى داخل نفسى وسبب شقائى لم يكن منبعثا عن تلك

الكلمات التى سمعتها بطريق المصادفة .. وانما فتحت الكلمات عينى ، ولا بد أنى كنت أعمى لأنى لم أر شيئاحتى هذا اليوم .. »

واخذ يقص على الطبيب ماحدث أثناء شهر العسل . وما اعترى « كاميل » وصديقه « روبير » ، بعد ان قام بفحصها .. وأخذ الدكتور جوفر يفكر ، ثم تمتم قائلا : « نعم ، ان هذا فظيع .. فهل يمكن أن تكون تزوجت وهى تحمل جنينا ؟ ! .. اننى الآن أذكر أشياء غريبة مختلفة ، حدثت قبل عودتك .. ومع ذلك ، فأين تمكن ذلك الرجل من الاختلاء بها ، وقد كان يتغيب عن منزله طول النهار ؟ »

ــ بالليل ! .. لقد ذكروا أنهما شوهدا معا بالليل .

ــ بالليل ؟ .. نعم ، ان هذا ليس مستحيلا ، على اية حال !

ولكن لويس أمسك بيدى الطبيب ــ فى تلك اللحظة ــ وصاح به : « أواه ، لا يا سيدى الطبيب .. ياوالدى ، لاتقل ان هذا محتمل الوقوع . لو صح هذا لكان شيئا فظيعا .. وبعد ، انها تحبنى .. هل تسمع ؟.. انها تحبنى !.. اننى واثق من ذلك ثقتى من اننى حى أرزق ! » .. ونطق بهذه الجملة الاخيرة وهو يعلق أمله الاخير على تلك الثقة التى كان يوحيها اليه جسمه وعقله . فقال الطبيب : « هذا حقيقى ، انها تحبك » .

ــ وما دامت تحبنى ، فهل تراها تتزوج منى وهى تحمل طفلا من رجل آخر ؟ ! .. هل تراها تقدم على مثل هذا العمل الشائن ؟ .. أجبنى عن هذا السؤال !

فأجاب جوفر بصوت منخفض ، كأنه يخاطب نفسه : « ربما .. ان المرأة قد تخون وتخدع ، بالرغم من شعورها بالحب ! » .. وسكت الاثنان بضع لحظات ، كأنهما يحاولان

دفع ذلك الاعتقاد ـ بخيانة المرأة ـ عن أن يسيطر على فكريهما رغما عنهما . وقال جوفر أخيرا : « اصغ الى يا لويس !.. ليس فى امكانك أن تعيش بهذا الشك ، فاذهب الى كاميل فورا ، واستجوبها لكى تعرف الحقيقة ! » ..

فأبدى لويس اشارة تدل على اليأس والقنوط ، وقال : «لا ، لا ! .. لايمكننى أن أفعل ذلك ، فأنا أحبها كل الحب، وستخور قواى اذا ما رأيتها .. اننى أعرف ذلك ! »

ـ حسنا .. هل تود أن استجوبها أنا بنفسى ؟

وتردد لويس فى السماح له بذلك ، فقد كان يستنكر استجواب « كاميل » بهذه الطريقة . ولكنه فكر فيما احتمله من عذاب فى الساعات الخمس الماضية ، وادرك أن كل شىء يهون الى جانب ذلك العذاب .. كل شىء ، حتى الفاجعة النهائية .. ولذا فقد ارتضى أخيرا ما اقترحه الطبيب .

***

وارتدى الدكتور جوفر ملابسه ، ثم غادر الاثنان المنزل المنعزل ، دون أن ينبسا بكلمة واحدة ، واتجها صوب « الغابة العذراء » .. وكان المنزل لا يزال نائما ، لأن أهله لا يستيقظون الا متأخرين احتراما لنوم كاميل . وتقدم لويس حماه ، فان الحاجة الماسة الى ايجاد حل للمشكلة ، بعثت بالنشاط الى قلبه . وكان صوته ثابتا وهو يقول للدكتور جوفر مشيرا نحو باب صغير : « ادخل .. أما أنا ، فسأنتظر فى هذه الغرفة ! »

وكانا ـ اذ ذاك ـ فى غرفة مكتب لويس ، التى لم يكن يفصلها عن غرفة النوم غير هذا الباب الصغير ، الذى أشار اليه ..

وسأله جوفر قائلا : «سأدخل وحدى .. أليس كذلك؟».

فقال لويس : « بلى .. ولكنى أستحلفك بالله أن تترفق بها ، ولا تنسى انها تحمل جنينا فى أحشائها .. وانك قد تقتلها اذا أرعبتها ! » .. فهز الطبيب رأسه وقال : « لا .. انها ليست من اللائي يقتلهن الاضطراب ، حتى فى حالة الحمل ! .. وفوق ذلك .. » .. ولم يكمل جملته ، فقد ظهر الكمد على وجهه ، وانطفأ النور فى عينيه ، فزالت اشراقته الطيبة التى كانت تضىء وجه ذلك الكهل . وظل لحظة لا يتحرك وهو ينظر الى وجه الشاب المعذب الذى ذهب ليرتمى ــ بعد أن خارت قواه وانهارت اعصابه ــ على المقعد الصغير .

ثم فتح الباب ودخل .. وكانت كاميل نائمة ووجهها الى ناحيته ، تسود معالمه الهدوء ، وقد انتشر شعرها الأسود على الوسادة .. وكان الغطاء يخفى عنقها ــ فقد كانت سريعة التأثر بالبرد ــ كما كان يطفى كل جسمها ، فيخفى قسماته .. وكانت تفوح منها ــ أثناء النوم ــ تلك الرائحة النسوية الجميلة ، التى تعطر الغرفة ذات الستائر الزرقاء .. كانت مستغرقة فى نوم عميق ، لا يمكن أن تستمتع به غير الزوجة الأمينة .. نوم لا يعترضه حلم أو خوف ، وكأنها تنتظر قبلة لتستيقظ !.

واقترب منها « جوفر » ، وبدأ يتأمل وجهها عن قرب ، ويفحص الانتفاخ الذى طرأ على جسمها ، لأنه كثيرا مايدل على عدد الشهور التى انقضت ، منذ اخذ الجنين يتكون فى أحشائها .. ولم تكن هناك علامة واحدة ، ولا أتفه بقعة تشوه نقاء ذلك الوجه الذى كان أشبه شىء بوجه العذراء .. وكأنما كانت نظرة جوفر ذات قوة مغناطيسية ، اذ فتحت كاميل عينيها فجأة ، وتمعنت فيما حولها ، ثم ظهرت عليها

الحيرة والتردد ، بعد أن أزعجتها تلك اليقظة الفجائية .. وظل جوفر يفحصها بنظراته .

واذ استعادت وعيها كاملا ، بدأت تشعر بالخوف ، لما لمسته فى وجه والدها من تفير .. وأخرجت يديها من الفراش كأنها تحاول ابعاده عنها . وهمست قائلة : «والدى .. والدى ! »

وسمعت فى الغرفة المجاورة صوتا مختنقا يتأوه ، ثم ارتطام جسم بالارض .. وأرادت كاميل أن تصرخ لتنادى « لويس » ، الا ان لسانها خانها . وسقطت ذراعهابجانبها ، بعد أن خذلتها عضلاتها .. وأصابها اضطراب عظيم ، يشبه مايحدث فى الاحلام أحيانا ، مما يخاله الانسان خارجا عن حدود الحياة .. وهنا تقدم « جوفر » فأزاح عنها الغطاء بحركة سريعة ، مدفوعا بشعور قوى خفى من اليقين والقوة .. وكشف عن ذلك الكيان المرتجف .. كان قميص نومها الطويل يضم جسمها كله كأنه تمثال بديع !

وما أن أدركت «كاميل» انها خذلت ، وأن أمرها افتضح ، حتى دفنت فى الوسادة رأسها وعينيها اللتين بللهما سيل من الدمع .. ووضع « جوفر » أذنه على القماش الرقيق ، الذى صنع منه قميصها ، واذا أساريره تنفرج ..وأضاءت عيناه باهتمام الطبيب الخبير ، والفاحص المدقق ، فقدسمع نبض قلب آخر ، تصاحب الوجيب الذى كان قلب ابنته ينبض به .. وأدرك ان ذلك القلب الثانى ، كان فى الشهر الخامس من عمره .. كانت دقاته أشبه بدقات ساعة لفت فى الاقمشة ، يصحبه صوت آخر يشبه وسوسة ريح خفيفة تهب وتشتد ، ثم لاتلبث ان تضعف حتى تنعدم تماما ..

وتراجع الرجل قليلا ، ثم نظر الى تلك الشقية التى رفعت اليه عينيها الواسعتين وقد ملأهما الرعب . وتمتم قائلا :

« انه الضابط الكورسيكى ، أليس كذلك ؟ » .. وحركت شفتيها وهى لاتقوى على الاجابة .. وهنا تحول عنها جوفر ، وفتح الباب ، وعاد الى الغرفة الاخرى ، التى كان « لويس لوت » قد سقط الى جانب مقعد فيها ، وقد شحب لون وجهه حتى حاكى لون الارض .. كانت الاغماءة التىغشيته قد تحولت الى نوع من النوم العميق . وكانت عيناه نصف مفتوحتين ، بحيث كان فى وسع المتأمل أن يرى لونهما . وأخذه جوفر بين ذراعيه ، وحاول أن يحمله . بينما كانت شهقات « كاميل » وبكائها المنتظم المتتابع ، تنبعث بصوت مسموع ..

اذ ذاك فتح لويس عينيه تماما ، وتمتم قائلا : « ابت ! » .. وساعده جوفر على الوقوف على قدميه ثم قال لهبصوت ضعيف : « هل يمكنك السير ؟ » . فتمتم : « نعم ... فلنرحل حالا ! »

***

ونزلا الدرج ، والشاب يعتمد على الشيخ ، واتجها نحو الحديقة .. وكانت الشمس ترسل أشعتها من بين فروع الاشجار ، فتعكس على الارض عدة خيالات تتخللها بقع من الضوء .. ولم ينطق لويس بكلمة واحدة ، بينما راح « جوفر » يمر بيده على شعره الاشقر ، وهو يقول : « يالك من صغير مسكين ! »

وكان لويس قد أخذ فى البكاء ، وجسمه يهتز تحت أثر الشهقات القليلة القوية التى كان يحاول أن يكتمها ، فيغلبه ضعف أعصابه .. وظل جوفر مدة طويلة يضمه اليه .. حتى اذا رآه يستعيد شيئا من هدوئه ، قال له : « ياولدى المسكين !.. هل تسامحنى لأننى أعطيتك امرأة لا تستحق

احترام أحد ؟.. امرأة لاتستحقك أنت أيها الشاب الطيب ! »

وتساءل لويس ، تحت الحاح الشك الذى يستولى على العاشقين : « اذن فكل شىء صحيح ؟.. هى اذن تحمل طفلا من الرجل الآخر ؟ » .. كان قلبه لايزال يتشبث ببقية من أمل ، الا أن جوفر أجابه قائلا : « كل شىء حقيقى .. وتاريخ حملها يرجع الى ستة أشهر على وجه التقريب .. لقد كانت عشيقة جياكوميتى ، وتركها وهى حبلى ! »

وارتسمت على وجه الشاب معالم الالم ، بينما كرر الطبيب قوله : « انك تصفح عنى ، أليس كذلك ؟.. قل لى انك تسامحنى !.. لم أكن أعرف شيئا ، وكنت أظنها كاملة الطهارة، جديرة بك حقا !.. كيف كان يمكننى أن أعرف ؟ » .. فقال لويس ، وقد وجه نظره الى الفضاء : « آه.. اننى أعرف جيدا انك لم تكن سبب شقائى ، ولكننى فى جزع .. أخاف أن يستمر ألمى .. يجب أن ارحل من هنا ! » .. فاعترض جوفر قائلا : « لا ! .. لا أريد ان تسافر يابنى.. انا .. بل هى التى يجب أن ترحل !.. ابق هنا ياصديقى، وسآخذها أنا وأرحل ! »

وهز لويس رأسه ، فقال الطبيب : « أقسم لك اننا سنختفى ـ أنا وهى ـ بعيدا عن عالم الاحياء ، فلا يستطيع أحد أن يعثر علينا . أما أنت ، فستسترد حريتك ، وسيشفيك الزمن والنسيان .. فالزمن كفيل بشفاء كل قلب انسانى ! » .. ولكن لويس قال : « سأرحل من هنا ، فان هذا المنزل ، وهذه المدينة ، بل وهذه المنطقة كلها .. كل هذه الأشياء تعافها نفسى ! » . ثم اردف ، وكأنه قد ضل الطريق ، فتشبث بيدى الطبيب ليهديه : « حين افكر فى انه هنا ، وفى نفس هذا المكان ، ظفر بها الآخر ، واستولى عليها قبلى .. »

واخذ يشد على يـدى الطبيب حتى كان يدميها ، وهو يقول : « قبلى أنا .. أنا الذى احتفظت لها بشبابى ، وكل فكرى .. بل وجسمى أيضا .. وحين أذكر ان الانثى التى كنت اعبدها حبا ، سلمتنى نفسها للمرة الاولى وهى تحمل طفلا .. » . وضحك كالمجنون ، وهو ينطق بالجملة الاخيرة .. فراح جوفر يردد ، وهو لايجـد كلمة عزاء : « ايهـا المسكين .. ايها الولد المسكين ! »

وظل لويس مدة لايتكلم ، ثم خطرت بباله فكرة ، فقال : « يجب أن أرحل حالا ! .. حالا ، خشية أن تدخل الآن » .. كانت هذه الفكرة ترعبه ، اذ خيل اليه ان « كاميل » اذا دخلت عليه فى تلك اللحظة ، لتلقى بدخولها الطعنة الاخيرة ، واصيب بالموت .

واتجه نحو باب الخروج ، ولكن جوفر صده عنه بذراعه ، وهو يقول : « لايمكنك أن تسافر بهذا الشـكل .. انظر ، انك لاتزال بملابسك الرسمية ! .. وليس معك اى شىء .. ليس معك ملابس اخرى ، وليس معك نقود ! .. انتظر على الاقل .. ثم نادى « ارما » . وكانت حقيبة لويس قد أعدت ـ من قبل ـ استعدادا لسفره الى (سان فلورى) ، فأمرها الطبيب باحضارها ، ثم فتحها واخرج منهـا بعض الملابس ، واخذ يساعد لويس على خلع ملابس السهرة ، وارتداء الثياب التى اختـارها له ، ولويس لايعـارض ولا يقـاوم ، وكأنه لايدرى مايصنع به ، اذ كان فكره المعـذب لا يقوى على استيعاب اى شىء .

واغلق « جوفر » الحقيبة من جـديد ، واخـرج حافظة نقود ـ من درج مكتبه ـ سلمها اليه ، بعد أن وضـع بها بطاقة كتب عليها بضع كلمات ، ثم قال له : « ان بداخل هذه الحافظة عشرة آلاف فرنك ورقا ، وقد وضعت بها بطاقة ،

كتبت عليها العنوان الذى يمكنك أن تراسلنى فيه .. انه شباك بريد مدينة « آجن » .. ولست فى حاجة الى أن أخبرك بأننا أيضا سنغادر مدينة (تونيان) ، ولا ازال اجهل أين نستقر ! » .. ونظر اليه برهة ، ثم جذبه الى صدره ، وقال له : « والآن ، اذهب يابنى المسكين ، فلست أريد أن أستبقيك ! .. قد يعجب البعض من اننى أتركك ترحل بهذا الشكل ، ولكن .. ثق انه مامن شيء كان يمنعنى عن ملازمتك ، بل عن السفر معك ، لو اننى كنت موقنا من أن بوسعى أن أساعدك على البرء مما أصابك .. اننى – اذ ذاك – ما كنت لأحجم عن ان اهجر تلك الشقية ، التى سببت لك كل هذا الالم ، دون أن أشعر بندم ، فأنت هو ابنى الحقيقى .. انت صديقى بروحك النقية الطاهرة . اما هى فليس لديها غير حواسها وشعور الزهو بجمالها .. ثم اننى لا أسافر معك ، لأن ماذكرته أنت هو الحقيقة ،فيجب لشفائك أن تقطع كل صلة تربطك بهذا المكان ، فان أنا رافقتك فى سفرك ، كنت بالنسبة اليك تذكارا حيا دائما لزوجتك .. تذكارا يجب أن ينمحى .. »

وابتعد لويس عن صدر ذلك الرجل الكريم المخلص – اقدم اصدقائه – بينما كان الطبيب ماضيا فى حديثه : « اذهب يابنى !.. اهجر هذه البقعة ، والزمن هو العزاء الاكبر ، والفراق هو دواء الابطال !.. لا تضاعف من ألم نفسك ، فليس مما يشرح قلب الانسان ، أن يرى تجعدات تظهر على وجهه من فرط العبوس ! .. اذهب الى ابعدمكان يمكنك أن تذهب اليه ، لا لكى تفكر وتحلم ، بل لكى تعمل .. فما من شك فى ان الاقدار ستحسن اليك ، وتتيح لك عملا يشغلك .. اذهب الى (سان فلورى) ،وكرس نفسك للعمل جسما وعقلا ! »

وكان لويس يصغى الى أقوال الطبيب .. ومع أن معناها لم يكن واضحا لفكره الشارد ، الا أنها انطبعت فيه على كل حال .. فلما صفت ذاكرته ـ بعد زمن ـ وجدها منقوشة على صفحتها ..

وضمه جوفر ـ للمرة الاخيرة ـ بين ذراعيه ، والحزن لهذا الفراق يمزق قلبه .. وغمغم : « أيها الولد العزيز ! .. يا بنى العزيز ، هل بوسعك أن تنسى ؟ » ..

واذ غادر لويس الدار ، سار قدما الى الامام . وكان عزمه يقوده ، فدار حول المتنزه العام ، ثم سار فى شارع المحطة ، فلم يلبث ان وجد نفسه بين عاملات لفافات التبغ ، وهن فى الطريق الى مصانعهن .. وكانت أصوات غنائهن تملأ الشارع ، وقد أثارت أقدامهن الغبار حولهن . اذ ذاك ، عادت الى لويس ذكرى طفولته ، حين كان يترك درسه ليتطلع الى العاملات وملابسهن الغريبة وقبعاتهن .. وكان المنزل الذى يقطنه اذ ذاك ـ مع أهله ـ يقع أمام المصنع .. وفى تلك اللحظة شعر بكل مايشعر به البائس المحسور ، وقال فى نفسه : « ليتنى لم أعد الى هنا البتة ! »

وحين تذكر أن تلك المدينة الصغيرة ـ الواقعة على ضفة الجارون ـ كانت سبب نكبته ، صب عليها لعنة صدرت من أعماق قلبه .. وكانت العاملات قد دخلن مصنعهن ، فأغلقت أبوابه خلفهن ، وتلاشت دقات الجرس . واستمد الشاب شيئا من القوة ، بسبب ماتولد فى نفسه من غضب وثورة ـ عندما وقع نظره على منزله القديم ـ فسار بقدم ثابتة الى المحطة .. وهناك ، وجد الخادمة « ارما » قد لحقت به وهى تحمل اليه حقيبته .. وكان القطار الذاهب الى (بوردو) واقفا فى المحطة ، فسار لويس الى نافذة التذاكر ، وابتاع تذكرة الى باريس .

وبعد لحظات، كان القطار يحمله خلال ذلك الوادى الباسم ، منطلقا بأقصى سرعة وكأنه يهرب به .. وتأمل لويس أسلاك البرق ، وهى ترتفع وتنخفض بحـركة منتظمـة تحت تلك السماء الزرقاء .. وأحس فى أعماق قلبه بنوع من الشفقة والرثاء لنفسه، ثم ما لبث ان استغرق فى ذلك النوم الباكى، الذى يستولى على الاطفال بعد ان ينالهم شىء من الضرب او العقاب !

القسم الرابع

(١)

عندما يهب الهواء من الجنوب ، يغمر سهل (الجارون) برائحة الصنوبر والملح .. اذ انه يفد من ناحية المحيط . ومقاطعة (البنيادا) بفرنسا ، تكاد تكون أكثر المقـاطعات هدوءا وسكونا . فان طرقها قليلة ، لاتكاد ترى فيهـا الا قطعان الحيوان والصغار الذين يحرسونها ، ولا تكاد تسمع فيها سوى أصوات حوافر القطعان ، ونداءات رعاتها .. كأنها بلاد ميتة ، لاتضم غير القبور .. بل ان المزارع ذاتها تبدو مهجورة ، لا حس فيها ولا حركة ..

وكانت (ماو) احدى ضياع هذه المقاطعة ، وقد ضمت دارا واحدة وبضعة منازل خشبية أعدت للفلاحين .. وفى تلك الدار ، كان الطابق الاول يضم غرفة الاستقبال بمائدتها الكبيرة . أما الطابق الثانى ، فكانت فيه غرفة كبيرة تطل على الغابة ، وغرفتان صـغيرتان تطلان على دار العمدة . وحين آلت تلك المزرعة الى والد الدكتور جوفر بالوراثة ، وجاء لزيارتها ، وجد غرفها مؤثثة أثاثا مناسبا لابأس به ،

فأغلقها وعهد بمفاتيحها الى « بولاو » ـ المشرف على الزراعة بالضيعة ـ ليعنى بتنظيف المنزل مرة فى كل أسبوع، خوفا من أن تقضى الجرذان على الاثاث . وكان يقول فى نفسه : « حين أصبح كهلا ، سأعيش فى هذا المكان مع أمى ، واقضى أيامى فى الصيد ! » .. غير انه لم يقدر له أن يزور هذا المنزل غير مرتين ، قضاهما فى الصيد .. حتى اذا ترك العمل فى تجارته ، لازم المنزل المنعزل بمدينة (تونيان) ، ليستمتع بحرارة الشمس ، بسبب المرض الذى أصابه فى قدميه .. وان راح يحن أحيانا الى مقاطعة (البنيادا) ، فكان يزورها لماما للصيد فيها !

ولما مات والد جوفر ، لم ير المزارعون صاحب الضيعة الجديد اطلاقا ، فان الدكتور « جان جاك جوفر » لم يهتم بالقيام برحلة تستغرق يوما كاملا ، لكى يرى بعض أشجار الصنوبرفى تلك المنطقة الجرداء، فضلا عن أن مرضاه لم يتركوا له الوقت للقيام بهذه الرحلة . واستمرت زوجة « بولاو » الكهل تصحب ابنتها « ماريا » ـ فى كل اسبوع مرة ـ فتفتحان نوافذ المنزل ، وتومان بتنظيفه وتهويته وتعريض الاثاث الضوء والهواء .. وكانت الاصلاحات التى يتطلبها المنزل تتم بانتظام ، وبموافقة الدكتور جوفر ، اذ كان المزارعون يتوقعون أن يفد الطبيب فجأة ، لزيارة المزرعة فى اى وقت ، فكانوا يترقبونه وهم يجدون فى العمل فى تلك الارض المجدبة .. وكأنما كان محصولها يقل كلما ازداد المجهود الذى يبذل فيها .. وكانت السنة الاخيرة أسوأ السنوات محصولا ، اذ قل نتاج العنب ، واحترق جزء من الغابة .. وكان آل « بولاو » يمتثلون لسخط الطبيعة وغضبها ، ويتقبلون حكمها فى انصياع .. كانوا هادئين ساكنين، يتحدثون قليلا ويشتغلون كثيرا، وقد

أشرقت وجوههم بذلك الايمـان الذى تبعثه الوحدة فيمن يشتغلون بزراعة الارض .

وكان « بولاو » قد طعن فى السن ، الا أن ذلك لم يؤثر فيه ، اذ ظل مستقيم العود مثل أشجاره ، رئيسا للاسرة لاينازع ، يطيعه كل من حوله .. من زوجته الى أصـغر الخـدم . وكان يعيش مع ولده « اسـتينو » ، الذى كان يبلغ السـابعة والعشرين من عمـره .. وكان شـابا قوى العضلات ، يستطيع أن يحمل أثقل الاشياء ليقذف بها الى مكان بعيد ، دون أن يتحرك فى وجهه عصب واحد !.. أما نسـاء الاسرة ، فكن يقمن بالاعمـال الداخلية فى المزرعة ، وبصناعة الالبان ، ولكن ـ الواقع ـ اثنتين : زوجة «بولاو» ـ وهى عجوز لم يبق منها غير عظامها ، الا أنها كانت أنشط من الفتيـات الصغيرات ، وقـد أوتيت عينـان حادتان ـ و « ماريا » ، ابنة بولاو .. وهى فتـاة نحيلة الجسم ، عادية الملامح ، لها أكثر النظرات نفاذا ورقة ..

***

وفى ذات يوم ، تلقى « بولاو » بطاقة من الدكتور جوفر ، ذكر فيها انه قادم الى مزرعته (ماو) ـ بعـد يومين ـ تصحبه ابنته وخادمته ارما .. ولم يبد الرجل أية دهشة ، بل أمر ابنه « استينو » بأن يذهب الى مدينة (كاسـتيل جالو) ، ليستقبل القادمين ويقلهم فى مركبة الى المزرعة.. ثم كلف زوجته باعداد المنزل لنزولهم .. فسرعان ما فتحت النوافذ على مصاريعها ، وأسدلت الستائر ، ونظف الاثاث، وأوقدت النيران فى المدافىء لطرد الرطوبة من الغرف التى اغلقت مدة طويلة ، ونظمت الحديقة الصغيرة ..

وفى ذلك المساء ، كان كل شىء قد أعد .. وعند ما جلس

آل «بولاو» لتناول العشاء ، وطال حديثهم أكثر من العادة ، فقد أثار قدوم الدكتور جوفر مع ابنته وخادمته اهتمامهم؛ وأخذ كل فرد من أفراد الاسرة يبدى رأيا فى الموضوع . فسألت ماريا أمها قائلة : « اتعرفين لقدوم السيد سببا ياأماه ؟ » .. فهزت العجوز رأسها ، وقالت : «لابد ان المكان قد راق له ، ولعله اعتزم المجىء ليقضى بقية حياته هنا ، كما كان أبوه يرجوه أن يفعل .. والفرق بينهما أن الطبيب يحضر فى الوقت المناسب ، أما الآخر فقد مات قبل أن يحقق رغبته ! »

وأخذ « بولاو » وزوجته يتحدثان عن الماضى ، ويبديان رأيهما فى والد جوفر ، الذى كانا يميلان اليه لانه كان فلاحا مثلهما .. وكان بولاو قد ربى له بعض كلاب الصيد ، فذكر أياما كان يخرج فيها للصيد معه ، فيشربان من كوب واحدة ، ويقتسمان طعامهما وقت الظهر .. ولم ينس الفلاح الكهل الدكتور « جان جاك جوفر » ، الذى بات حضوره مرتقبا .. فقد رآه عندما كان صبيا ، اذ اصحطبه والده — مرة — الى (ماو) . ولم يكن الطبيب مغرما بالصيد مثل والده ، فكان يقضى معظم وقته وهو يقرأ بالمنزل، أو يتنزه وحده فى الغابة . وذكرت زوجة « بولاو » والدة الدكتور جوفر ، تلك العجوز البخيلة، التى كانت تحصى كل شىء بالمنزل — حتى الدجاج — والتى كانت تمسك بالاطفال وتجلسهم على ركبتيها ، لكى تسألهم عما اذا كانوا يخدمون الله باخلاص ، ويخافون الخطيئة ويهربون منها ..

وراح « استينو » و « ماريا » يسمعان هذه الروايات .. فكان الشاب يتناول طعامه فى صمت ، بينما اتسعت حدقتا الفتاة انفعالا ، واخذت تلقى الاسئلة ، تحاول معرفة كل شىء من هؤلاء الضيوف أو « السادة » الذين سيعكرون

عليهم صفو عزلتهم .. وطلبت من والديها أن يحدثاها عن « المدموزيل » – كما كانوا يطلقون على «كاميل» فى (ماو) – ولكنهما لم يحيطا بشىء عنها ، بل كانا يجهلان أنها تزوجت، حتى ذكر لهما الدكتور جوفر – فى رسالته – « ان ابنتى ستلد طفلها فى ماو .. ! »

واضطربت ماريا عندما عرفت أن ابنة الطبيب امرأة صغيرة السن ، وأنها توشك أن تصبح أما .. فقد كانت ماريا فى تلك السن التي تداعب الفتاة فيها فكرة الامومة ، وتجذبها اليها ، وتبعث بالاضطراب الى قلبها .. كانت قد بلغت الثانية والعشرين من عمرها دون أن تتزوج ، فقد كانت مزرعة (ماو) منعزلة ، بعيدة ، لا يتردد عليها غير بعض الخدم .

ووقفت ماريا – فى اليوم المحدد لحضور جوفر وابنته – على مقربة من الباب ، تنعم النظر فى الغابة ، وتصغى لأقل حركة .. وكان « استينو » قد ذهب – فى ذلك الصباح – لينتظر سيده وسيدته فى محطة (جالو) ، بينما انهمكت أمهما العجوز فى العمل ، وراحت تتنقل بنشاط بين المزرعة والمنزل .. وكانت المائدة قد اعدت منذ الصباح ، وراح « بولاو » يدخن غليونه ، وقد جلس على مقربة من النار ، يراقب حساء الخضر وهو يغلى ، وقد ملأت رائحته اللذيذة جو المنزل .. وكان اليوم صافيا ، لطيف الهواء .

وعند الساعة السادسة مساء ، بدأت طلائع الليل فى الزحف .. وكانت « ماريا » لا تزال واقفة عند عتبة الباب ، تراقب الشمس عند الغروب ، وقد صبغت سماء الغابة كلها بلون الدم .. وفيما كانت تتطلع الى الناحية الشرقية ، رأت نقطة سوداء تتحرك بين صفين من أشجار الصنوبر ، وقد اخذ حجمها يزداد تدريجا ، حتى وضحت

فى النهاية ، فاذا بهـا عربة المزرعة .. وصـاحت ماريا : « اماه ! .. هاهم اولاء قد حضروا » .

ولما اوشكت العربة على الوصول ، رأت « ماريا» انهـا لا تحمل غير شقيقتها « استينو » ومخلوقا شيطانيا ، يكاد وجهه يختلف عن وجوه الآدميين .. تلك كانت « ارما » الخادم ، التى قفزت الى الارض ، ووقفت أمام ماريا وأمها ، ثم اطلقت ضحكتها المعهودة فارتعدت لها المرأتان .. وقال استينو : « لقد أتيت بالحقائب ، أما السيد و السيدة فسيصلان بالليل ، اذ سيتأخران بضع ساعات فى (كاستل جالو) ، نظرا لتعب سيدتى .. وستأتى بهما عربة من مزرعة فاج » .

ووصل جوفر وابنته فى تلك الليلة فعلا ، فى عربة كبيرة مقفلة . واقترب « بولاو » من العربة وقبعته فى يده ، وتبعته « ماريا » وهى تحمل مصباحا . وانحنى الطبيب وتطلع من نافذة العربة ، فقال له بولاو : « أهلا بالسيد جوفر ، أرجو أن تكون قد قمت برحلة مريحة .. هل تود أن تنزل هنا ، او عند المنزل ؟ » . فقال الدكتور : « بل عند المنزل ! .. أرجو يا «بولاو» أن ترشد سائق العربة الى الطريق .. هل هناك أحد بالمنزل ؟ » . فقال بولاو : « نعم يا سيدى ، هناك زوجتى العجوز ، وخادمتكم . وستريكم ابنتى الطريق .. هيا يا ماريا ! »

وتقدمت « ماريا » العربة ، تحمل مصباحا كشف عن الطريق ، وعن اطار من الغابة المعتمة التى كانت تحيط به .. وشعرت الفتاة بأسى اذ رأت شبحا مجللا بالسواد ، منزويا فى ركن العربة ، جامدا ، لا يكاد يتحرك ، حتى لقد خيل اليها أن صاحبته الشابة كانت تستبق الزمن فتعيش فى حزن على نفسها ، وكأنها تتوقع الموت عن قريب ، وكأن

ذلك المنزل المهجور ـ الذى كانت مقبلة عليه ـ قبر يوشك ان يحتويها .. وايقنت الريفية انه لا بد من باعث قوى ، خطير ، لذلك القدوم الفجائى . وحركت فطرتها الطيبة قلبها بحنو صادق نحو تلك المخلوقة المسكينة ، التى اقتيدت الى هذه العزلة ، فى ليلة كتلك الليلة ، اختفت فيها نجوم السماء!

ووقفت العربة عند باب المنزل ، ففتح الدكتور جوفر بابها ، ونزل .. ثم مد ذراعيه الى كاميل ، فساعدها على النزول ، وسألها : « هل تقدرين على السير ؟ » فأجابت : « نعم » .. ولاحظت « ماريا » جفاء صوت ذلك الأب ، والرعدة التى سرت فى جسم الشابة عند ما خاطبها ، فاقتربت منها ومدت اليها ذراعها اليسرى ، دون أن تنبس بكلمة .. ونظرت اليها كاميل لحظة قصيرة ، وفى غمرة ذلك اليأس الذى كان يحيط بها من كل جانب ، احست بغريزتها بذلك العطف الخفى ، فشكرت الفتاة الفلاحة بنظرة رقيقة ، واتكأت على ذراعها التى قدمتها اليها .

وكانت النار تشتعل فى مدفأة غرفة الانتظار ، التى حولت الى غرفة للمائدة ، أعد فيها العشاء .. وخرجت زوجة بولاو من المطبخ لتحيى الضيوف ، فأزعجها مظهر جوفر الدال على خطورة الموقف ، ومنظر كاميل وقد تهالكت فى مقعد ، وعليها مظاهر الاعياء .. فلم تجد العجوز كلمة تقولها ، واسرعت الى المطبخ لتعود بأطباق الحساء الساخن ..

وكانت « ماريا » تحاول ـ فى تلك الاثناء ـ أن ترفع قبعة المرأة الصغيرة بأصابعها الصغيرة ، ثم ساعدتها على خلع معطفها ، وقدمت اليها قدحا من الماء .. ثم عاونتها على الجلوس الى المائدة ، حيث كان جوفر قد اتخذ مجلسه . وتناول الاب وابنته القليل من الطعام ، دون أن ينطقا بكلمة واحدة . واضطربت زوجة « بولاو » ، اذ خيل اليها أن

الطعام الذى أعدته لم يعجب السيد وابنته ، فتبادلت مع ابنتها نظرات تدل على القلق ..

وأزاحت كاميل طبق الطعام من امامها ، ثم نظرت الى والدها فى رجاء ، وهمست قائلة : « أريد أن آوى الى مضجعى » .. فاستدعى الطبيب « ارما » .. وسرعان ما راحت كاميل تصعد السلم فى تثاقل واعياء ، تساعدها « ارما » و «ماريا» ، حتى وصلت الى غرفتها ، فاستقبلها الدفء الذى خلفته نيران المدفأة ، ومنظر الفراش وقد أزيحت عنه الستائر ، وظهرت عليه الأغطية البيضاء النظيفة .. وألقت «كاميل» على ما يحيط بها نظرة كليلة . واقتربت منها « ماريا » ، وقد بدا فى عينيها الجميلتين ما يدل على الاخلاص ، وعلى رغبة كامنة فى الفوز بحب مخدومتها . فسألتها كاميل : « أين غرفة والدى ؟ » .. وأشارت ماريا الى الباب الملاصق قائلة : « هنا يا آنستى » .

أهو قريب منها الى هذه الدرجة ؟ .. الا يمكنها أن تهرب من الحراسة التى فرضها عليها هذا السجان ؟.. وشدت قبضتها فى حركة تدل على اليأس والفيظ . وكانت «ارما» تسير فى الغرفة ، وقد راحت ضحكتها ووجهها ــ وهو أقرب الى وجوه الشياطين ــ يذكران كاميل بأيام الشقاء التى شهدت انهيار بينان سعادتها . وانفجر غضبها ــ فى النهاية ــ فصاحت بها : « اليك عنى ! » .. وهربت الحمقاء فى طاعة تشبه طاعة الكلب المضروب . واذ ذاك ، ارتمت « كاميل » فى مقعد ، وأخذت الدموع ــ التى كتمتهافى حضرة والدها ــ تسيل من عينيها ..

***

ولم يسع ماريا الا أن تغلق باب الحجرة بحركة غريزية ، حتى لا يكتشف أحد أن سيدتها كانت تبكى .. وذهبت

فجلست عند قدميها ، ثم تناولت احدى يديها ـ وكانت فى لون الشمع ـ وألصقت بها شفتيها فى هدوء . ولم تتكلم ، ولم تحاول أن تدخل العزاء الى نفسها . ولما ذهبت عن « كاميل » نوبة الحزن التى انتابتها ، قدرت ذلك العطف الصامت الذى لمسته من « ماريا » ، وتأثرت لما تمثل فيه من حب .. ففى ذلك المنفى ، وتلك العزلة التى كان مقدرا عليها أن تعيش فى غمارها ، كان للحب ـ الذى يقدم لها ـ ثمن يفوق كل تقدير .. ولم يسعها الا أن تضغط يد الفلاحة ـ وقد اشتد تأثرها ـ وهى تقول : « يجب أن تترددى لرؤيتى من حين الى آخر » . فأجابتها ماريا : « اننى على استعداد للقيام بخدمتك يا آنستى لو أردت ! » .. وهزت كاميل رأسها ، وقالت : « اننى أود من كل قلبى .. ولكن كل شىء يتعلق بوالدى ، مع الاسف » . وأخذت « كاميل » تخلع ملابسها ، تعاونها « ماريا » ، التى راحت تحدثها ببطء بلكنتها اللطيفة ، وقد وجدت فيضا من الكلمات تسرى بها عنها .

وتركتها كاميل تطربها بموسيقى تلك الكلمات وهى فى لهو عنها ، اذ كانت شاردة البال .. حتى اذا تأهبت للنوم ، دخل الطبيب الى الغرفة . وما ان رأى أن « ماريا » قد احتلت مكان « ارما » فى خدمة ابنته ، حتى عبس وقال لها : « عودى الى والدتك يا ابنتى ، فليست السيدة بحاجة الى خدمتك ! » . وما ان خرجت ماريا ، حتى اقترب من فراش ابنته ، وقال لها فى جفاء : « كيف حالك ؟ »

ـ اننى بخير غير انى أشعر بشىء من التعب ، وهذا كل ما هنالك ..

ووضع جوفر يده على الغطاء وقال لها : « ان بك شيئا من الحمى .. هل أحسست بحركات جديدة ؟ » . واشارت

كاميل بالنفى ، فقال لها : « اذا شعرت بالالم هـذه الليلة ، فأنا هنا قريب منك ، كما تعرفين ، وما عليك الا ان تناديني أو تطرقى الباب فى الحال ! » .. وغـادر الغرفة دون أن يقبلها أو يصافحها.. ووجدت كاميل نفسها وحيدة ، يحيط بها ظلام الغرفة المغلقة النوافذ ، التى لم يكن يصـل اليها شعاع واحد من الضوء الخارجى .

وشعرت التعسة ــ فى ذلك الظلام ــ بأنها أضعف مخلوق على سطح الارض ، وان العالم كله قد نبذها . واشـتدت بها الحمى ، فأخذت تستعيدحوادث الايام الاخيرة ، منـذ اكتشـاف فضـيحتها الى سفرها الفجائى من (تونيان) فى الليلـة السـابقة .. وكانت تجهل الأعـذار التى انتحلها والدها الدكتور جوفر لسفره الفجائى .. وكانت تجهل ــ كذلك ــ اين ذهب زوجها « لويس » .. وهل كان بوسـعها أن تجرؤ على سؤال الطبيب عن هذه الامور ؟ .. لقـد تركته يقودها وهى تشعر بضعفها وعجزها بعد أن هجرتها القوى العليا التى تتحكم فى أقدارنا .. والآن ، هل وصلت الى المرحلة الاخيرة ؟ .. هل هذه نهاية الرحلة المؤلمة التى قامت بها بالامس ، أو انها ليست سوى مرحلة بسـيطة من مراحلها ؟ .. وهل تكون هذه هى المرحلة الاولى ؟

وكانت ــ طيلة الوقت ــ تسمع من حولها أصواتا بعيدة ، غير واضحة ، تملأ اذنيها .. الاصوات التى تنبعث عادة من الغابة ، فتعكر سكون الليل ، أشـبه بأصوات السلاسـل الثقيلة ، أو صـفير الريح فى الممرات الخـاوية ، يعقبهـا صراخ طائر ليلى ، أو نباح كلب فى مزرعة ما .. وكانت تلك الأصـوات الغريبة تزيدها بعـدا عن العالم ، حتى شـعرت بأنها مهجورة ، متروكة ، تائهة فى بقعة مجهولة عن العـالم المسكون !

ومر – أمام عين خيالها – عدد لا يحصى من الاشجار المتشابهة ، وكانت أشجار الصنوبر دائمة الخضرة .. أشجار الصنوبر !.. لقد صورت لها الحمى أن تلك الاشجار اضطفت حولها فى دائرة مغلقة ، وقد تعانقت أغصانها ، وأخذت تدور حولها باستمرار .. وخيل اليها أنها لن تستطيع – حتى نهاية العمر – أن تخترق هذه الدائرة الضيقة من أشجار الصنوبر ، التى راحت تدور حولها .. لن تستطيع – الى الابد – ان تذهب لتبحث عن الحبيب الغائب .. ذلك الذى كانت على استعداد لأن تدفع حياتها ثمنا للارتماء عند قدميه ، فتقبلهما وهى تقول : « اننى خادمتك ، اننى مجرد شىء حقير تملكه .. اقتلنى ، ولكن على ان تؤكد لى انك قد صفحت عنى ! »

وبكت طويلا .. اطلقت تلك الدموع التى تخفف الالم .. تركت عينيها تسكبان خلاصة الحزن ومرارته . وقبيل استغراقها فى النوم بلحظة واحدة ، رات طيفا مواسيا يتحرك أمام عينيها .. وجه «ماريا» ، بنظرتها الودود ، وابتسامتها .. وتمثلت فى هذا الطيف – بين تلك الاشباح المزعجة التى كانت تراودها – ما يراه الانسان فى ضوء الشمس الخاطف ، الذى يظهر بين سحابتين سوداوين ، لكى يذكره بأن وراء ذلك القناع المسدل من الليل والظلام ، يوجد الضوء !

(٢) من ذكرات لويس

سان فلورى ، فى شهرى مارس وابريل :

شعرت اليوم باحساس غريب يعين مرحلة من مراحل الازمة التى أعانيها منذ غادرت (تونيان) .. لقد حاولت ان أحدد تاريخ اليوم ، فلم يلبث حسابى أن بين أنه

لابد أن يكون اليوم الثالث من شهر مارس ... الثالث من مارس ؟ ! .. لقد مرت كل تلك الايام ، وأنا لا ازال على قيد الحياة ! .. انا ، الشخص الذى قاسى واحتمل كل هذا ، حتى فقد الشعور بالحياة ، فى وقت ما ! .. الا ما أشد حاجتى الى ان استعرض — فى وحدتى ، وبسببها — كل ما أقاسى ! ..

أجل ، اننى اقاسى .. أتعذب ! ترى هل يقوى بشر على احتمال مثل هذا العذاب ؟.. اننى فى عاصفة .. اننى أعيش فى جو مسموم ، وانى لازداد شعورا بشخصيتى فى هذا الجو ، وازداد احساسا بأننى على قيد الخياة ، فيعاودنى الالم مضاعفا ! .. ان بقائى فى الحياة مصدر ألم حاد يأبى أن يفارقنى ، ويوشك ان يسلمنى الى انهيار عصبى ! .. ترى الى أين اذهب ؟.. بل الى أين يذهب عقلى ، والى أين تذهب حياتى ؟ ..

اننى اساءل نفسى : أانا مجنون ؟ .. لقد أصبحت ارتاب حقا فى اننى عاقل !.. اننى احس بأولى بوادر الجنون .. بالخوف من ان استبين كنه افكارى واركزها ، وبالميل الى ان انطوى على نفسى ، لكى ادرس طرق تفكيرى كأننى شخص مزدوج ! .. ولا ريب فى اننى — من اجل هذا ، وتحقيقا لهذه الحاجة — جلست لاكتب مذكراتى . ولكنى — حين أعيد النظر الى ما كتبت — لا افهم منه شيئا ! .. لاريب أنه تفكير مجنون !

. . . .

لقد كنت اشعر بالسعادة فى طفولتى ، حتى عند ما ابكي .. انني لأذكر ذلك جيدا . فعند ما كنت أبكي ، كان

هناك أمل يتجدد فى داخل نفسى ، وكنت أنتظر اللحظة التالية بلا شعور ، لكى أعوض بها الحاضر . أواه ! .. أين هى تلك الدموع الجميلة ؟ ! .. واليوم أجد نفسى فى ضعف ذلك الطفل الذى كان يبكى فى الماضى ، واننى لتنتابنى – فى هذه اللحظة – نوبة بكاء حقيقى ، ولكن الأمل قد مات فى نفسى ، فلم أعد افكر فى اللحظة التى يجىء فيها العزاء !

آه ! لو امكننى أن أنسى ! .. لكم أريد أن انسى خمسة عشر عاما من أعوام عمرى !.. اى استعباد هذا الذى يحتمله المرء من ذاكرته !

كيف وصلت الى هذا المكان ؟ .. لقد كانت ارادتى ميتة، ولست أعرف اية غريزة خفية قادتنى الى هنا .. كل ماأذكر هو أننى فتحت عينى ، فرأيت الضوء فى البلد الذى وصلت اليه ، وكان (بوردو) بلا شك .. ورأيت أحد رجال القطار يهزنى ليوقظنى ، فقد كنت نائما رغم ذلك الالم ! .. وقال لى الرجل : « ان كل الركاب قد نزلوا ، فالى أين أنت ذاهب ؟ .. وهناك يقف القطار سينطلق الى باريس ! »

باريس ؟ ! .. لقد تخيلتها فى أقصى الشمال ، كأنها الافق البعيد الذى يمكن أن أهرب اليه من الذكريات .. أهرب من اقليم (الجارون) ، فلأهرب ! ... ولم أفكر فى شىء عند اجتيازى الطريق المؤدى الى القطار الآخر ، ولكن حواسى ارتدت الى وديان الشمال ، بالقرب من (دواى) أو (ليل). هناك فقط ، أحسست أمام هذه الوديان المنبسطة ، بأننى خرجت من اسار حزنى !

وها قد انقضت على ستة أيام وانا فى هذا المكان.. ستةايام قضيتها فى هذه الغرفة من الفندق الريفى الصغير . ولست أجد شجاعة تمكنني من الكتابة الي « روبير » ، أو الخروج

واقترب منها جوفر ، وبدأ يتأمل وجهها عن قرب ،
ثم أخذ يفحص الانتفاخ الذى طرأ على جسمها .. (ص٢١٥)

والذهاب الى المصنع حيث أعد لى مسكن ، وحيث ينتظرون حضـورى .. ان مجرد دخول الخادم ــ وهى تحمل الى طعامى ــ يضايقنى ويزعجنى ، ويصـور لى اننى مصـاب بمرض يقرأ الناس اسمه على وجهى ! .. والواقع أن مصدر المى مما لايمكن الاعتراف به ، اذ كيف أقرر ــ ولو لصديق وفى ــ ان المرأة التى احببتها حتى العبادة ، طول شبابى ، وجدتها عندما تزوجتها .. آه ، هل بوسعى ان ابوح بذلك ؟ .. اننى لا أقدر على الاعتراف به ، حتى لنفسى !.. ولكم تضايقنى تلك الدموع التى تنحدر بتأثير من ضعف اعصابى، فأتمنى لو تمكنت من اعـادتهـا الى عينى ، بل اتمنى لو استطعت أن انتزع تلك الغدد التى تفرزها .

ولكن لا ! .. لن أخضع لذلك ، فلقد قضـيت خمسـة عشر عاما ، أحاول ان أروض ارادتى وانميها ، ولابد من ان أنجح فى ذلك ، ولو تهدم جسمى وفنى..وانى لاذكر نصيحة جوفر لى ، فى ذلك الصباح ، اذ قال لى : « اجهد عضلاتك وعقلك .. اعمل ، وجـد فى العمل ، وسـترى أن الزمن سيشفيك » ! .. والواقع أن العمل فى متناول يدى ، فمن نافذة غرفتى ألمح المصنع ، يتعالى بمبانيه ومدخنته على كل ما يحيط به من منازل .

***

رأيت الآن ان افض ثلاثة خطابات ارسـلت باسمى من هذه المدينة الى (تونيان) ، فأعيدت اليها اذ وصلت بعـد أن بارحت تلك المدينة .. والخطابات الثلاثة من المهنـدس « ماسكلييه » ، يتساءل فيها عن سر تأخري عن الموعد الذى كنت قد حددته للحضور ! ..

سأذهب الي المصـنع ، وسأكرس لهذه المهمة الطارئة كل

نشاطى .. ليس فى هذه المدينة من يعرف سرى .. حتى ماسكلييه نفسه، لا يكاد يعرف أننى متزوج.. اذن ، فلأعمل .. فلأعمل دون اهتمام بالنتيجة .. ان هـذه المهمة قـد تضاعف من ثروتى ، ولكنى لم أعد أحفل بالثروة ، انما أنا انشد النسيان .. ولو اننى كنت كاثوليكيا ، لوجدت اليوم حلا لحياتى ، ولأصـبحت راهبا ، وراء جـدران الدير :.

ويا لهذه الجـدران من حاجز قوى ، يحول بين الانسـان وذكرياته !

. . . .

زرت اليوم المصنع ــ لاول مرة ــ ورأيت كل شيء فيه ، من أدق الآلات الى أضـخمها .. ورأيت صـفار العمال والفتيات اللاتى خلعن نصـف ملابسـهن ، من جراء الحر الشديد .. وكان المهندس ماسلكييه يطوف معى ، ويطلعنى على كل شيء .. انه شـاب من باريس ، لايهمه هذا الشقاء الذى يكتنف حياة العمال ، ولا ينظر اليهم الا باعتبارهم آلات نافعة ! .. وقد أخذ يوضح لى ضرورة تغيير طريقة العمل ، حتى يتسنى الاستغناء عن خمسين عاملا تعسا ، يكسب كل منهم فرنكين كل يوم ، مقـابل تعريض حيـاته للتهلكة ! .. ولكننى لم أصغ اليه ، فقـد أخذ ألمى يتضاءل فى هـذا الوسط الجديد .. ولاحظ ماسـكلييه أننى كنت شارد البال ، فأعادنى الى نفسى بهذا السـؤال : « أليس كذلك يا سـيدى ؟ .. ما رأيك فى ذلك يا سـيدى ؟ »

وتدافعت الذكريات على ذهنى ، وفى لحظات معدودات اختفى كل شيء من حولى : المصنع ، و الآلات ، وماسكلييه .. وشعرت ــ كما يشـعر المرء فى حلم من أحلام اليقظة ــ أننى مندفع الى الامام، فى طريق عودتى من قصر (مونتريج) ،

ثم كأننى واقف على مقربة من غرفتى، و «جوفر» فى داخلها، يحاول أن ينزع من كاميل سرها .. وخيل الى اننى اسمع صوتها عند ما صاحت: « لويس » .. لماذا لم أدفع هذا الباب الذى كان يفصلنى عنها ؟

اننى لم أر كاميل قبل أن اهجرها .. كان يجب أن أراها ، ويخيل الى اننى سأفعل ذلك لو تكرر ماحدث! .. لقد قمت اليوم بمجهود كبير لأتذكر ملامحها ، ومن الغريب جدا اننى لم أتمكن من تذكرها .. لم يبق فى ذاكرتى شىء من ملامحها .. لاشىء سوى صورة مبهمة ، مهتزة ، عادت الى مخيلتى تدريجيا ، وأنا جالس الى مكتبى ، فأخذت اقول لنفسى : « ان لها وجها مستطيلا ، وعينين سوداوين .. ولونها ناصع البياض .. أنفها قليل الانحناء .. صغيرة الفم ، لها أذنان كبيرتان، يتوارى طرفهما تحت شعرها » !.. أجل، اننى أذكر كل هذا ، ومع ذلك فأنا مثل ذلك الكيمياوى الذى حلل مركبا عضويا ، وعرف عناصره كلها ، ولكنه لم يستطع اعادة تركيبه من جديد .. ان المقدرة التى تمكنت بها من تذكر ملامح الوجه ، تخوننى الآن ، فلا يمكننى استعمالها حقا . اننى مريض غريب ، فهأنذا أحاول أن أتذكر وجه كاميل فلا أوفق ! . وتعود الى ذاكرتى بعض مواقفها وحركاتها ، فأتبين مفاتن جسمها البض، كما رأيتها فى ظرف خاص ! .. كل هذا يعود الى ذاكرتى — فى بعض اللحظات — بدقة عجيبة ، فأحاول الهرب منه ، واسقط مغلوبا على أمرى ، منهوك القوى ، وكأننى اوشك على الاغماء ! .. أجل ، كان يجب أن ادفع الباب !

. . . . . .

لماذا افكر فيها ؟.. اننى لم اعد أحبها !.. لقد تأكدت من ذلك صباح اليوم ، لما حاولت — خلال ساعة كاملة —

ان اتعرف شعورى اذا قدر لى أن اسمع خبر موتها مثلا !.. لقد تبينت أن فى ذلك الموت خلاصى .. اننى أكرهها كراهية لم أشعر بها نحو انسان آخر ! .. كنت ـ فى الماضى ـ أشعر بالحزن والأسى ، اذا ما سمعت أجراس الكنائس تعلن موت انسان ما ، ولو لم أكن اعرف الميت ، أما الآن فانى ارى فى موت تلك المخلوقة راحة لى ! .. اننى اكرهها لانها داست بقدميها حلم شبابى ، وتركت فوقه بقعة سوداء مخيفة ، تشمئز منها نفسى .

بالأمس كتبت فى مذكراتى : « كان يجب أن أدفع الباب » فأى جنون هذا ؟.. لو كان الباب ـ الذى فصل بينى وبينها ـ هنا ، لتركته ولم أقترب منه ، بل لأحكمت رتاجه !

ترى ماذا تفعل هى ، فى هذه اللحظة ؟ .. هل تتألم هى الاخرى ؟ .. من العدل أن تلقى نصيبها من الالم ، والا اكون انا ـ وليس لى فى الجرم يد ـ أشد الناس تعاسة وشقاء !.. هل تتألم هى الاخرى ، أو تراها قد نسيتنى ؟.. اننى أشعر فى داخل نفسى برغبة غامضة فى ان لا أنسى ، وأحمد الله على أن هذه الرغبة ليست منبعثة عن الحب ! .. انها الانانية الثائرة تطالب بأن يكون الجرح متماثلا عند الجانبين !

***

هذه ايام العمل ، والاجهاد العقلى ، والتعب الجثمانى .. وقفات طويلة بين الآلات .. اننى أبذل جهدا كبيرا لأشغل بالى عن همومى .. وقد اقتضت بعض المشكلات الفنية ، ان امكث مع « ماسكلييه » خمس ساعات كاملة ، قام خلالها بكل العمليات المطلوبة .. ان هذا الرجل يتركب من عظام وعضلات فقط ، وهو ـ منذ تخرجه فى مدرسة

« السنترال » — يعيش فى هذه البقعة من الارض ، التى يثير فيها نمو شجرة واحدة اهتمام الناس ، حتى ولو كانت هذه الشجرة عارية من الاوراق والثمار .. ولم ير بجانبه — طيلة هذه المدة — غير العمال والعاملات ، وهو يعاملهم بشدة ، ويقوم وحده بكل شىء ، دون أن يساعده أحد بالمرة .

ولقد سألته : « ألا تضايقك وحدتك هذه ؟ » ، فبدا عليه العجب ، وقال : « اننى لست وحيدا البتة ، فانت ترى الناس من حولى ، يزعجوننى طول اليوم » .

ان كل أمله هو أن يحصل على المال ، حتى يتمكن من شراء نصيبى فى هذا المصنع .. ولن يتزوج بعد ذلك ، بل سيظل — طول حياته — ينتج خيوط الغزل فى (سان فلورى). وسألته : « ألم تحب امرأة فى حياتك ؟ » . فأطلق ضحكة ملؤها الاحتقار ، وأجابنى : « نعم ، اننى أحب كلما ذهبت الى مدينة (اواى) ، أو الى باريس ، ووجدت من وقتى متسعا لذلك » .. آه لو كنت مثل هذا الرجل ! .. لماذا لم يحولوا بينى وبين كل علم آخر غير الحساب ، حين كنت صغيرا ؟ .. كان يجب أن يحال بينى وبين كل كتب غير كتب الجبر والرياضة ، فهذه وسيلة لاراحة الاطفال واسعادهم !

ثارت الريح على هذا السهل الممتد حول الفندق ، حتى ليكاد المرء يصاب بالعمى من الغبار الذى يملأ الطرقات، وهو غبار أشبه بشظايا الماس فى صلابته ! .. ووقفت أرقب خروج العاملات ، وقد اسبغت كل واحدة اطراف معطفها الصوفى على عنقها وذراعيها العاريين .. كم يؤلمنى هذا الجو القاسى .. لقد تلاشت آثار الربيع ، والسماء ترعد ، وقد شحب لونها حتى أصبح منظرها يثير الاكتئاب فى النفس !

.. ولكن هذه العتمة ، وذلك النور الكهربائى الضعيف ، الذى يعكس الاشياء يكادان يبعثان بالسرور الى قلبى .. ما اشبهنى بذلك الملك الذى جاء ذكره فى احدى روايات شكسبير ، اذ قال بعد أن أصيب بالجنون ، وفاجأته العاصفة — وهو يهيم فى المنفى — فطرب لها : « هبى أيتها الرياح ولتنشق الارض ! »

. . . .

انى بدات أشفى شيئا فشيئا ، وقد اخذ عقلى يضىء ، ويمكننى أن أفكر فى الماضى دون أن يصيبنى الكثير من الالم .. ان كل ما اشعر به الآن هو حقد صامت ، يصحبه احساس ملؤه الالم ، لأن حياتى بعد اليوم أصبحت عديمة النفع .. الى أين أذهب بهذه الحياة المجدبة ؟.. اننى لم أعد آمل فى شىء ، ولم أعد أرغب فى شىء.. اننى اشعر بأن الراحة تنحصر فى أن أكرس نفسى لعمل الخير للفقراء ، ولكننى لا أقدر على ذلك ، فان الحياة لم تف بوعدها لى !..

أهو الهدوء قد بدأ يعود الى ، أو أنها الاستكانة تريد أن تغزو نفسى ؟ .. لا أشعر الا بأسف من ناحية الماضى الميت، يصحبه شعور بالعزاء والنسيان التام .. لا ، بل ان هذا كله ليس الا نوعا من الألم !

بينما كنت أتنزه فى ساحة المصنع — فى هذا الصباح — فاجأت غراما عنيفا .. الفتاة من العاملات ، وتبلغ العشرين من عمرها .. والشاب من العمال ، ولا يكبرها سنا بكثير .. وكان يحيطها بذراعه اليسرى ، فى حين رفع رأسها بيده اليمنى، وراح يقبل عينيها وفمها حتى عنقها بحماس الشباب .. وكانت هى مستكينة له ، وقد تخاذلت ذراعاها فامتنعتا عن الحركة ، واغلقت عينيها .. وبلغ من وجدهما انهما

لم ينتبها لوجودى ، فتركتهما مسرعا .. وهكذا يستمر الرجال من حولى فى حبهم ، وهكذا تستمر الحياة فى دورتها حول حياتى المعلقة الموقوفة .. أواه ، اننى أتألم ، اننى أتألم !

كلا .. اننى لم أشف . لقد كذب « جوفر » حين ذكر أن العمل سيهدىء من روحى .. ها قد مضى على نحو شهر ، وأنا أعمل واحاول – كل يوم – أن ادفع نفسى الى الاعتقاد بأننى تعزيت ! .. بل اننى لأكتب فى مذكراتى انى قد سلوت ، وانى اقوى من الألم ، متشبها بهؤلاء الاطفال الذين يشعرون فى الفناء – اذا مروا بجهة موحشة مظلمة – حتى يشجعوا أنفسهم على السير !.. لقد حاولت ان أضحك بالامس ، فارتعبت لضحكتى ، وخالجنى ذلك الاحساس الذى يشعر به الانسان اذا رأى جثة ميت أصابها النتن !

. . . .

لا ، لن اكذب على نفسى بعد الآن ، فلقد جاهدت وحاولت أن أنتصر ، ولكننى هزمت فى النهاية ، واصبحت معدوم القوى كما كنت قبلا .. اننى لأحس – وأنا أعترف لنفسى بذلك – بشعور جديد .. انه السم الذى بدأ يسرى فى أعصابى . لقد قلت لنفسى هذه الكلمة الآن ، وهأنذا أسجلها : « اننى لاازال احب تلك المراة » !.. نعم ، اننى احبها ، أو – على الأقل – أشتهيها !.. كل جسمى يدعوها اليه ! .. اننى اقضى ليالى فظيعة فى هذه الآونة !.. أواه يا للجسد المعذب التعس !

تحاصرنى الآن مراحل حياتنا المشتركة ، وما كان أقصرها! .. انها تحاصرنى حصارا يكاد يخرجنى عن حدود العقل .. ان الحياة تملأ تلك المراحل ، حتى لقد شعرت بالرعدة

تسرى فى جسمى وتصل الى رأسى أحيانا .. هل هى قريبة منى ، تلك المرأة ؟ .. لكم يخيل لى ذلك ، حتى لأبسط ذراعى – فى بعض الاحيان – وأتحسس ما حولى ، لكى اتأكد انه لا يوجد حولى غير الظلام الفارغ ! .. قد يكون الجنون قادما .. فى الطريق !

***

لقد كرست كل شبابى من أجل « كاميل » .. يخيل الى اننى – منذ رأيتها لأول مرة ، عندما كنت غلاما – عرفت كل شىء عن الحب وأسراره ! .. لكم كانت طاهرة نقية جاهلة ، فى ذلك الوقت .. لقد كانت روحها الطاهرة البريئة تطل من عينيها الجميلتين ، خلال نظرتها المفعمة بالاستقامة والثقة .. وأنا – الذى كنت أقل طهرا منها – كنت الوم نفسى اذا قبلتها ، فكانت تضحك منى ، وكانت تلهب عنقى ووجهى بقبلاتها ، بل انها كانت تقدم لى شفتيها حتى أضع عليهما شفتاى ، فكنت اتورع عن هذا العمل فى استحياء !

لا أريد الا أن أفكر فى الفتاة الطاهرة التى احببتها – فى الماضى – حتى العبادة ، والتى ماتت بالنسبة لى .. ماتت منذ غادرت مدينة (تونيان) للمرة الاولى .. ماتت وعمرها خمسة عشر عاما !

وبعد .. لقد فزت بها – على الرغم من كل شىء – وامسكت بها بين ذراعى ، وقبلت فمها ، وسمعت منها شهقات الحب ، وحققت حلم شبابى .. كم رجلا يمكنه أن يقول ذلك ؟ .. لقد كان الوهم قصيرا ، ولكن .. هل السعادة غير الوهم ، كما يقول « فرتر » ؟ .. ثم انها كانت تحبنى .. اننى على يقين من هذا ، وليس على الا أن أستثير ذكرياتى ، لأجد ألف دليل ! .. لقد احبتنى بكل

روحها وكل جسدها وكل عواطفها . أليس الواقع هو انها أخفت عنى الحقيقة ، لأنها كانت تحبنى ؟

نعم ، لقد فزت بها .. الا أن هناك رجلا آخر فاز بها قبلى .. رجلا آخر قد استثار غرائزها الاولى . لقد أحبتنى ، ولكنها اعادت على مسامعى كلمات الحب التى قالتها لرجل آخر .. يا له من شىء تشمئز منه النفوس !.. اذن ، فأنا لم أفز بها وحدى .. لم أفز الا بجسد ملوث مدنس ، لا برء له بعد أن ترك فيه الآخر شيئا من حياته .. آه لو كان ذلك الرجل حيا ! ..

لقد مات ، ولكنه ما زال مسيطرا عليها .. ها قد مضى أكثر من شهر منذ فارقت كاميل .. ولعلها قد نسيتنى ، ما دام قلبها سريع التقلب بهذه الدرجة . ولكنها لا تملك أن تنسى الآخر ، على الرغم من موته ، فان البذرة الخفية ـ التى زرعها ـ ما زالت آخذة فى النمو ، وستثمر قريبا ! .. ان قلب ذلك المخلوق الصغير ـ الذى لايحس ـ يخفق فى أحشاء أمه ، ويطلب حقه من الحياة !

. . . .

اعتقد أن هناك رجالا يقبلون أن يكون موقفهم من الجماعة مثل الموقف الذى سببته لى خيانة هذه المرأة .. هناك رجال يتزوجون من الأرامل ، ومن نساء أنجبن أطفالا من غيرهم . ولكن الرجل الذى يقدم على الزواج من ارملة ، أو من امرأة رزقت بولد من غيره ، يكون على ثقة ـ فى العادة ـ من انها تبادله مثل حبه ، وهكذا يعيش الاثنان سعيدين ..

. . . .

انه جبن ! .. جبن ! .. لقد قرأت الكلمات التى سطرتها بالامس ، ورأيت اننى لم أضف اليها شيئا من عندى ، لأننى لم

أجسر على مجرد التفكير فى شىء فاضح كهذا ، يستحق الاحتقار .. لا شك فى اننى كنت ابغى أن أقول : « ما دام هناك رجال يقبلون ذلك ، فلماذا لا أفعل مثلهم ؟ .. لماذا لا أعود الى زوجتى ، وأطلب منها أن تكون لى من جديد ؟ »

الى هذه الهوة قد سقطت ، بعد أسابيع من الجهاد والوحدة ؟ .. لقد جربت العمل فعافته نفسى ، ولم يشفنى الزمن مع عذابى ، مع انى أبتعدت عن ذلك المكان .. وهاأنذا ، بعد أن انقضى الالم الذى شعرت به فى الساعات الاولى ، اجدنى منساقا الى مرحلة الرغبة الحادة ، والى الشعور بالحاجة الى قرب تلك المرأة ! .. اننى كلما تذكرت كيف فزت بكاميل فوزا منقوصا، شعرت بنوع من الاشمئزاز يكاد ينتزع قلبى .. وفى اللحظة التالية ، تعاودنى الشهوة فأنسى كل العار ، ولا أذكر غير اللذة .. ان ارادتى ليست الا آلة مسخرة ، وهى بالتالى ألعوبة فى قبضة أعصابى !

لكم أشعر بأنه لو استمرت حالتى هكذا ، فلن ألبث ان انتهى : اما الى الجنون ، واما الى الانتحار ! .. فلستأقوى على مجرد التفكير فى العودة الى تلك المرأة ، كما أن حياتى — فى هذه العزلة — لن تلبث أن تفوق احتمالى وطاقتى . وقد بدأ الناس فعلا ينظرون الى وهم فى شك من أمرى .. بل ان « ماسبكلييه » — الذى اتناول طعامى معه — يلقى على دائما نظرات فاحصة مستفسرة ، وكأنه يقول فى نفسه : « ان هذا الرجل مجنون »

لم أعد اشعر بالزمن او بفصول السنة.. قد نكون الآن فى فصل الربيع ، ومع ذلك فالسهل مستمر فى ظلامه واجدابه من المزروعات ، ولكن الازهار قد بدأت تتفتح وتظهر خلال نافذة غرفتى بالفندق .

. . . .

انني لا أزال احبها ، واذا غابت عني ذكراها لحظة ثم عاودتني ، فانها تثير الشجن في نفسي ! .. ليست طفلة الزمان الغابر هي التي أحبها ـ كما حاولت أن اوحي الى نفسي ـ بل تلك المرأة الناضجة للقبلة .. تلك التي أخذتها بين ذراعي وهي مدنسة ، ولكنها كانت في ذروة جمالها الرائع !

الآن تذكرني أعصابي الخائرة بكل شيء فيها .. ووجهها الذي كان يروغ مني اذا ما حاولت أن اتذكره ، يلاحقني الآن .. انني لأتمثلها نائمة ، وقد أسدلت أهداب عينيها .. لا أرى غير وجهها المائل ، ونهاية ذقنها .. يا لغيظي وحنقي ! .. انها في مكان ما ، وفي امكاني أن آخذها ، ولكني لا أريد ، لا أريد !

انني استيقظ في جوف الليل ـ احيانا ـ دون سبب الا الحاجة الى رؤيتها، كما اعتقد . فأنا لا أكف عن التفكير فيها، حتى في نومي .. فاذا ما استيقظت ـ في بهيم الليل ـ بدا لي كل ما في الحجرة مبهما .. وأرفع رأسي قليلا ـ وأنا في الفراش ـ فأرى «كاميل» مستلقية الى جانبي ، يعلو وجهها بعض الشحوب غير العادي ، وهي عديمة الحركة ، شديدة السكون في نومها ! .. لم ار في حياتي نوما كهذا ، فهي تكاد تشبه التماثيل ! .. واشعر ـ في جيشان العاطفة ـ بحنين جارف، واتذكر انها زوجتي، فأهمس بصوت واهن: « انني أحبك . انني أحبك ! » .. وكأن قوة سحرية غريبة ـ تتولد عن الرغبة ـ تفتح عيني الطيف .. واخال أن « كاميل » تبتسم لي ، وترفع الغطاء بيديها ، لكي تمدهما الى !

آه ، يا لصفاء لون ذراعيها ، ويا لرائحتها الذكية الفريدة! .. انها لا تشبه أى عبير أعرفه . لقد كانت مثل اريج الزهر طبيعى .. بل انها نوع من رائحة الحب !

الى أين أذهب .. والى أين تذهب ارادتى .. والى أين يذهب عقلى ؟ .. هاأنذا أستعيد ذكرى هذه الرؤيا ، فيا للجبن ! ..

ليس فى هذا ما يشرفنى اطلاقا ! .. أأنسى أن حياتى الى جانبها كانت دعارة طويلة ؟ .. يا له من شىء تشمئز منه النفوس ، ويحمر له وجه الانسان خجلا !

هذا ما يجب أن أصارح به نفسى عند ما أفكر فى الامر .. اجل ، ان كل عناق تبادلناه ، بل كل قبلة شابها شىء من الدنس .. دنس كفيل بأن يجعل كل من يسمع بهذه القصة يبتسم ساخرا ! .. يجب أن أكرر هذا القول لنفسى ، حتى يخمد العار والخجل أنفاس الرغبة الجامحة !

. . . .

اننى لم احمل منها تذكارا واحد .. لاشىء ، لا خصلة من الشعر ، ولا أثر يذكرنى بها ، ولا صورة .. لا شىء ! .. لقد كانت فى غرفة والدها صورة تمثلها عندما كان عمرها خمسة عشر عاما ، أى فى السن الذى فارقتها فيه . تلك هى الصورة التى كان يجب أن أحتفظ بها ، فقد كانت كفيلة بأن تحصر فكرى فى الصبية النقية ذات الجسد الطاهر الذى لم يمس .. الصبية التى لم يكن يراود خيالها أى خاطر دنس !

آه ، لو كنت قد تمكنت من الفوز بها وهى على تلك الحال ! .. آه ، لو كان قد قدر لى أن استمتع بأولى شهقات ذلك الفم الزاخر بالطهارة .. لقد سبب لى الحلم ـ الذى

مر بخاطرى فى هذه الساعة ــ اضطرابا عظيما ، حتى اننى لا أجد كلمات أعبّر بها عما احسست به !

ولكن ترى ماذا فعل الشقى حتى فاز بها ، فى طهرها وبراءتها ؟ .. هل كان يحبها ؟ .. وماذا صنع ؟ .. واين تمكن من ارتكاب جريمته ؟ .. وهل سلمته نفسها دون مقاومة ودون صياح ؟ .. لا ريب ان ذلك كله تم فى موعد اتفقا عليه من قبل .. وارتكبت تلك الفعلة الشنعاء على مقربة من والدها ، وهو لا يرى شيئا !

لو كانت تحبنى لما قبلت أن تنفصل عنى بهذه السهولة .. ألم يكن واجبا عليها أن تقوم الى فى الحال ، وتحاول أن تبرر لى موقفها ؟ .. ولكنها لم تفعل ، بل تركتنى أسافر ، ومنذ ذلك الوقت لم ترسل الى خطابا أو كلمة ... ربما كان الشهران المنصرمان كافيان لمحو ذكراى من نفسها ! .. ثم انها ستصبح أما عن قريب ، ولا شك أنها تفكر فى الطفل وحده !

رباه ! .. انك موجود ، وقد أمنت بك ، فدعنى أموت !

. . . .

سيجىء يوم أموت فيه .. أنا وهى . سيستحيل جسدى وجسدها موادا أولية متناثرة ، بعد ان تتلاشى الرابطة التى تجمعها .. رابطة الحياة . وهكذا تختفى الرغبة ، كما يختفى الحب ، مع انتهاء الحياة ، وستتشتت تلك المواد التى نتكون منها ، والتى يبحث بعضها عن بعض ، وتتوق الى الجمع بين نفسينا وجسمينا .. ستتشتت هذه المواد ، وقد تتقمص اشخاصا آخرين ثم تعيش تحت سماء أخرى ، وفوق ارض اخرى . . وسيجمعها الحب من جديد ، ويبعثها

على التقرب والاندماج الى أن يلحق الموت بالغرام الجديد ، وهكذا .. فلم يتكرر هـذا ولاى غرض من الاغراض ؟ .. اى اله يهتم بهذا التتابع ؟ .. يا له من عبث يسير وتيرة واحدة ، ويشبه عبث الطفل الذى لا يغير اللعبة التى يتسلى بها !

واذا كانت الحياة لعبة متواترة متتابعة ، فلماذا نتمسك بمبادىء الآداب والاخلاق والواجب ؟ .. وما دام كل منا يحب الآخر ، فلماذا لا نعود الى الاتصال ببعضنا ؟ .. ان فى وسعنا أن نهرب من الناس ، ونرحل وحدنا .. وسـأقول لها اذا ما حاولت أن تبرر موقفها : « أسكتى ! ..لا تتكلمى ولا تعتذرى .. اننى أريد أن احظى بك ، وانت على حالك ! .. فيما يهمنى ما قد فعلت فى الماضى ؟ .. حتى لو كانت روحك خائنة ، فانى ألمس الاخلاص فى جسدك .. انه لم يكذبنى !.. اننى ارغب فى جسدك لا فى روحك .. فردى الى جسدك ! » .

. . . .

انتهى عملى فى هذه المدينة ، وهاانذا لا أملـك شـجاعة تساعدنى على السفر .. ياله من ميل غريب ، ذلك الذى يربط الانسان بتلك الجهات التى تألم فيها وبكى ! .. هذه الغرفة غير المريحة التى ضـمتنى وأنا فى شـدة يأسى ، هذا الفراش الذى تقلبت فيه مسـهدا ، اسكب وابلا من دموعى ، وهذه المائدة التى سجلت عليها أحزانى من وقت لآخر، بل وذلك الافق الشمالى، وذلك السهل الفاحم الحزين، والسماء البيضاء ، والشوارع الطويلة التى تزخر جنباتها بالاولاد ..كل هذه وتلك أصبحت اطارا ملازما لاحزانى ،

ولن أجد اطارا آخر يمكن أن يتفق أكثر من هذا مع المجرى الذى تسير فيه ارادتى وحياتى !

ان «ماسكلييه» سعيد ، فقد حصل منى على كل مايريد ، وبسيتمكن من أن يدعم المصنع ويضاعف من مكاسبه، وبالتالى من مكاسبى أنا .. ولكن حياته لن تتغير ، وسيقضى كل أيامه بين مكتب يملؤه الدخان والنماذج ، وبين معامل التحليل ، وفى جو ممتلىء بالعرق الانسانى وبخار الماء ، فأية حياة هذه ! .. ولن يلبث ان يموت اذا حان اجله ، والله وحده يعلم أين تذهب نقوده بعد ذلك .. انه ليس الا آلة من الآلات البشرية المعدومة الشعور بالحياة ! .. آه ، اننى أفضل أن أظل على ألمى ـ كما انا الآن ـ من ان اكون معدوم الشعور مثله !

والآن ماذا أصنع؟ .. اذا كان كسلى الجسمى وضعف ارادتى يأمرانني بالبقاء هنا، فان فكرى يدفعنى الى السفر والرحيل والقيام بمحاولة ما .. فلا العمل ولا الوحدة قد أفلحا فى شفائى .. هل أقوم بمحاولة جديدة أم أعتزل كل شىء ؟ وآأسفاه ! .. ان كل ما حولى يسوده الظلام ، ولم يسبق لى أن رأيت نفسى أكثر غموضا مما هى الآن .. ماذا أريد ؟ .. اننى لاأعرف ! .. اذا فكرت لحظة فى العودة الى كاميل ، فان الاشمئزاز لا يلبث ان يملأ قلبى ، فأنزع هذه الفكرة من نفسى ، كما لو كنت أتقيأها .. وبعد أن أؤكد لنفسى أنه ليس ثمة ما يضطرنى الى ارتكاب هذه النذالة ـ نذالة العودة اليها ـ فاننى لا ألبث أن أشعر بجوع اليأس المحروم يقطع احشائى !

لقد كنت معتدا بقوتى عند ما حاولت أن احارب ذكرياتى بمفردى . وآأسفاه، اننى عاجز عن كل شىء ! .. اننى لاأساوى

شيئا . لقد هزمت وغلبت على أمرى وأضنانى التعب . . لقد كنت أعرف فى الماضى كيف ارغب ، وماذا أشتهى ، ولكن . . يخيل الى ان مورد الرغبة ذاته قد نضب وجف فى هذه المرة !

. . . .

٢٢ أبريل

عزيزى روبير

اننى تعب ، مريض ، منهك القوى . . اننى ألجأ اليك كأعز صديق ، وكطبيب . . انه شقاء عظيم ، بل انه أعظم شقاء يمكن أن يحل بى ، فقد ألقى بى بعيدا عن أسرتى الجديدة . وليس فى طاقتى أن أقص عليك القصة كلها ، ولذلك أرجوك أن تقرأ هذه المذكرات التى أرفقتها بخطابى هذا ، والتى سجلتها بين تقلبات عواطفى ، وخلال الصدمة التى تلقيتها، منذ أكثر من شهر . . وحين تنتهى من قراءتها ، ستكون قد عرفت كل شىء على ما أظن . .

أما أنا فليس لى أمل فى أى شخص غيرك !

« لويس »

(٣)

ما ان ارسل « لويس لوت » الى «روبير» تلك الصفحات ــ التى تضمنت اعترافاته ــ مشفوعة باستغاثته البائسة ، حتى تطورت الحمى الى مرحلة من الضعف وانحطاط القوى، نتيجة للمجهود العظيم الذى بذله وهو يناضل وحيدا . . ولكنه اضطر ــ فى النهاية ــ الى التسليم بالخذلان . . وما كان أشبهه بذلك الغريق الذى يتعلق بصخرة ، ثم يشعر فى

النهاية بتخاذل أعصابه وعضلاته ، ويعرف انه سيضطر بعد لحظات الى ترك الصخرة ـ التى يتشبث بها ـ ليغرق ويموت !

ان لخذلان الارادة لذة ، وخاصة حين يشعر الانسان به . فقد أهمل الشاب كل شيء مدة ثلاثة أيام متتالية ، وساعده الضعف على التخلص من الافكار الشريرة ، اذ لم يعد يقوى .. حتى على رعاية هذه الافكار . ولكن القلق بدأ يعاوده فى اليوم الثالث . فان روبير لم يحضر ، ولم يرد عليه .. ترى أين هو الآن ؟ .. وما العمل اذا هو رفض الحضور تلبية لندائه ؟.. بل ما العمل اذا كان قد مات أثناء رحلته ؟ ! .. ان خطابه الاخير ينبىء عن سفره بالبحر ، فى فصل العواصف والانواء .. ألا يحتمل أن يكون قد غرق ؟

تكاثرت الفروض على ذلك الفكر المشتت المضطرب . ووقر فى نفس لويس أن صديقه « روبير كلاييس » قد يمتنع عن الحضور لسبب ما ، فقال فى نفسه : « لو صح هذا ، فليس هناك بعد ذلك ما يربطنى بالعالم ويضطرنى الى الحياة ! » .. وأخذ هذا التيار الجديد ـ من الأفكار ـ يتبلور عنصرا من عناصر شقائه .. ولكنه شقاء حول مجرى أحزانه .. وظل طيلة أربع وعشرين ساعة يرى فى المستقبل شيئا يعذبه أكثر مما عذبه ماضيه كله .

على أنه ـ لحسن الحظ ـ تلقى فى منتصف اليوم الثالث، رسالة برقية من صديقه روبير، يخبره فيها بأنه فى مرسيليا، وبأنه قادم بقطار باريس..ووصل روبير ـ فعلا ـ فى صبيحة اليوم التالى .

***

قال فيلسوف أجنبى ، انه ليس فى العالم اجمل من صداقة شابين عاشا حياة مشتركة ، فترة من طفولتهما !..والواقع ان للحب ملاذا تفوق ملاذ الصداقة ، ولكن الانانية هى العنصر القوى فى كيان الحب .. أما الصداقة ، فعلى النقيض من هذا ، اذ انها تتجرد من النفع الشخصى ، ومن ثم فهى اعظم مظاهر التعاطف الانسانى .. وقد أيقن لويس من أن الصداقة أرفع من الحب وأسمى مقاما ، عند ما قذف بنفسه الى ذراعى صديقه ــ وقد اشتد تأثره ــ وأحس بجبهته وهى تستند الى صدر قوى ثابت ، وبيديه تشد عليهما يدا صديق ، بل أخ .. وراح صوت الطبيب الرقيق يغمغم فى اذنه : « كم قاسيت يا عزيزى لويس .. ما كنت أظنك شقيا أبدا ! »

وكان التهدج يكاد يخنق الكلمات فى حلقيهما .. والواقع ان مشاعرهما كانت أعظم من أن تعبر عنها كلمات..حتى اذا هدأت نفساهما ، جلس روبير الى جانب لويس وقال له : « ياعزيزى لويس .. لقد وصلنى خطابك عندما كنت فى مرسيليا ، ولو انك تأخرت عن ارساله يوما واحدا ، لما قدر لى أن أستلمه ، اذ كنت راحلا الى تونس ، من جديد .. وقبل أن أشرع فى قراءة مذكراتك ، بادرت بالحضور اليك، ففى وسعى أن أعترف لك اليوم بأننى كنت أعرف الحقيقة منذ كنا فى (نيس) ، اذ اعترفت لى كاميل بكل شىء » .

وصاح لويس : « اذن فقد كنت تعرف الحقيقة ؟.. لقد حدست ذلك ، ولكننى لم اكن أقوى على تصديقه . لماذا لم تتكلم اذن ؟.. لقد خنتنى وخدعتنى أنت الآخر ! » .. فأمسك روبير بيدى صديقه ، وقال له : « كم كنت الومك

على هذا الاتهام ، لو أنك وجهته الى فى أى وقت آخر !.. نعم لقد خدعتك ، اذ احتفظت بذلك السر ، وكنت أنوى ان احتفظ به الى أن أموت لو لم تسبقنى الحوادث .. وكنت ستجدنى فى (تونيان) عندما يحين وقت الوضع .. لقد كان هذا متفقا عليه بينى وبين زوجتك ، اذ كنت قد عزمت على ابعاد الدكتور جوفر عن ابنتـه ، ثم أقنعك بعد ذلك - معتمدا على ثقتك - بأن زوجتك قد وضعت بعد سبعة أشهر من زواجها .. وليس هـذا نادر الحـدوث ! » ..

فقاطعه لويس قائلا : « صه !.. ما أحسبك كنت تنوى ان تكذب هذه الكذبة المروعة .. كيف هذا ؟.. أكنت تريد أن تجعلنى أعتقد أن الطفل الذى ستلده هو ابنى ؟ .. ولربما كنت صدقتك ! .. آه ، ما أبشع هذا ! » ..

ورمقه روبير فى حزن ، ثم قال : « أجل ، كنت أعتزم أن أرتـكب كل ذلك .. ولا تظن أننى اخترت لنفسى اسـهل الطرق . لقد كان هناك حلان : الاول هو الذى اختاره الدكتور جوفر ، اذ انضم اليك ضـد ابنتـه ، وصمم على معـرفة الحقيقة ، مهما يكلفه ذلك من ثمن .. ثم أخبرك بها ، وها أنت اليـوم ترى النتيجة .. ها أنت اليوم متعب محطم مريض ، ليس لك أمل فى شخص غيرى ، أنا الذى لا أملك - مع هذا - القدرة على شـفائك .. وها هو ذا قد فرق بينها وبينك فى قسوة بالغة ، وهى التى تحبك .. لاشك فى أنها لا تقل عنك الآن مرضا وتعاسة .. انها فى قبضة رجل يعتقد ان مشاكل الحيـاة يمكن أن تحل كما تحل مسـألة الجبر .. ومن يدرى ربما تكون قد ماتت ! »

وصرخ لويس ، وهو يهب واقفا : « ماتت ؟!.. ومن أين عرفت ذلك ؟.. هل سمعت شيئا من أخبارها ؟ ! »

***

ولاحظ « روبير » الاثر الذى خلفتــه كلمــاته الاخيرة ، فقال : « كلا ، ان كل ماعرفته هو أنهما غادرا (تونيان) .. الأب وابنته . والناس هناك يعتقدون أنهما لحقــا بك فى احدى مدن الشمال .. هذا ماكتبه لى بول دلكومب » ..

ثم استطرد روبير وهو لايزال مهتما بدراسة لويس : « أما الحل الآخر ، فكان يتلخص فى أن تظل جاهلا كل شىء .. ولو حدث ما يثير شبهاتك ــ وكنت مكان الدكتور جوفر ــ لتصرفت كما تصرفت فى (نيس) ، حين استجوبت زوجتك وعرفت أن تاريخ الجنين يعود الى خمسة أشهر ، ولكننى مع ذلك أخبرتك ان كل شىء عادى .. ولو نجحت خطتى لكنتما اليوم تعيشان فى إتحاد ووفاق وسعادة ، كمــا كان الحال من قبل ، ولنسيت هى الماضى بسرعة ، بل لانتهى الامر باعتقادك ان الطفل هو ابنك أنت .. وما يدفعها على ذلك سوى حبها لك .. ذلك الحب الذى لمسته بنفسى .. ثم انكما خليقــان بأن ترزقا بأولاد آخرين ، وبأن تســتمر حياتكما فى سلام .. كم من زيجات تمضى سعيدة ، معأنها تعيش تحت رحمة مثل هذا السر ! »

ولم ينقطع « روبير كلاييس » ــ وهو يتكلم ــ عن تثبيت نظره فى وجه صديقه ، فرأى الشحوب يسود هذا الوجه ، بعد ان تضرج خجلا .. وكانت عينا لويس ــ المحتقنتــان بتأثير الحمى ــ تومضان عند بعض كلمات .. وفتح فمــه ــ عدة مرات ــ كأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه لم يقل شيئا ، بل آثر السكوت .. ولم يسعه ــ بعد ان انتهى صديقه من الكلام ــ الا أن يبكى فى هدوء ، بينما واصل الدكتور روبير

حديثه ، وكأنه لايرى دموع صديقه : « نعم .. هذا ماكنت اريد أن افعله ، ولكن الحوادث سبقتنى، وسارت الامور فى طريق آخر .. وهأنت قد انفصلت عن زوجتك ، بسبب اخلاص والد زوجتك ونزاهته .. واعتقد أن الانفصال نهائى فى اعتبارك .. أليس كذلك ؟ »

وقفز لويس عن مقعده ، ومسح عينيه بحركة سريعة، ثم أجاب مدفوعا بالكرامة الشخصية : « بلى ، انه انفصال نهائى .. انت ترى اننى لا آسف على شىء . ان صداقتك لى قد جعلتك تضل الطريق السوى ، ان هناك أسرارا يجب على المرء أن يعرفها، ولو تسببت معرفتها فى موته .. ومن الأفضل الا ينعم الانسان بالسعادة، اذا دفع ثمن سعادته مثل هذه الكذبة ! » .. فأجاب روبير : « فليكن ماتريد .. اننى لاأطلب منك أن تفكر على طريقتى ، فأنت رجل كامل العقل ، وانت ادرى بما تريد .. ثم ان ماوقع قد تم ، ولا سبيل الى الرجوع فيه .. ان الموقف دقيق ، ومما يؤسف له أن ارادتك ليست قوية مثل حكمتك وأفكارك . انك قد جربت الوحدة والعمل ، ولكنك أدركت انهما لم يساعدا على شفائك .. فهناك نوبة من الجبن والنذالة تهاجمك ـ من حين الى آخر ـ وقد التجأت الى كطبيب لأعالج ارادتك المريضة ، مدفوعا الى ذلك بيأسك من النضال وخوفك من الانهيار .. أليست هذه هى الحقيقة ؟ »

وأجاب لويس : « بلى .. اننى أريدك أن تعالجنى حقا ! » . وهنا أمسك روبير بيديه وقال له : « حسنا ياصفيرى لويس، لقد أصبت فى التجائك الى ، وسنقف معا ـ منذ الآن ـ جنبا الى جنب فى هذا النضال .. ولكنك تعرف ان المريض يجب ان يطيع طبيبه ويثق به » .. فقال لويس : « أصبت،

وانا أسلم نفسى اليك .. اننى أقدم اليك قلبى وجسدى، وقد اضناهما التعب .. انك ترى اننى لا أبكى ، وفى وسعى ان أكون قويا .. فماذا تريد منى ؟.. سوف أطيعك طاعة عمياء ! »

– سأعود بك الى باريس ، وستبقى معى .

– ولكن .. صديقتك لوسى .. ؟ !

– ان لوسى قد عادت الى مسكنها القديم ، بشارع (فريدلند) ، ولن نسكن معها .. وفى امكاننا أن نستأجر مسكنا فى (فيلا لامرتين) ، بشارع (بلزاك) .. فهناك مساكن جميلة جدا ، تطل على الشارع .. اننى أعرفها منذ زمان طويل !

***

وانتهى ذلك اليوم بالاتفاق على السفر . وراح كل من الطبيب والمريض يراقب الآخر .. كان لويس ينظر باعجاب وحب الى ذلك الوجه الذى لوحته شمس افريقيا حتى غيرت من لونه ولون شعره الطويل .. وكان روبير قد أطلق لحيته – أثناء زيارته لتونس – وانطبعت ابتسامة ثابتة على شفتيه ، كما انبسطت أساريره وظهرت أسنانه – من خلال فمه – بيضاء كالعاج ، وهى كبيرة الحجم متلاصقة . وكان الصفاء يطل من عينيه الهادئتين ، وقد تجلت فيهما نظرة تدل على الثقة والجد ، وتدل على ان الرجل قد ناهز الخامسة والثلاثين من عمره ، على الرغم من أنه – فى الحقيقة – أصغر من ذلك ، اذ أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين .

أما « روبير » ، فكان يطيل تأمل مريضه ، بنظرة الرجل

الذى فكر كثيرا وكشف سر الشاب الذى لجأ اليه ، وهو مغلوب على أمره .. ولاحظ - بحزن الام على ولدها - تلك الآثار الخارجية التى بعثها الألم الداخلى .. كانت التجاعيد قد بدأت فى الظهور على وجه لويس المكفهر ، كما بدأ لون شعره يتغير ، فاكتسب ذلك اللون الباهت الذى يسبق المشيب . أما عيناه ، فكانتا محتقنتين ، وقد اتسعت حدقتاهما ، وانبعث منهما بريق غريب غير عادى ، وكانت نظراتهما تتجه أحيانا - مدفوعة بقوة مغناطيسية - الى الفضاء . ومن وقت لآخر ، كانت تنبعث من صدره تأوهات يهتز لها كيانه .. واذ ذاك ، كان « روبير » يمسك بيديه ويضغطهما ، دون أن يوجه اليه كلمة واحدة . ويحاول لويس أن يبتسم ، وهو يقول : « انك تعتبرنى جبانا .. أليس كذلك ؟ » . فيجيبه روبير : « كلا .. ان هذا ليس من الجبن ، فأنت رجل قوى الارادة ، بل من أشجع الرجال الذين أعرفهم ، ولكن ارادتك هى المريضة !.. ان من العمال الاقوياء البنية ، من يتعاطى كمية قليلة جدا من مسحوق أبيض معين ، فتجده فى اليوم التالى خاضعا لارادة طفل صغير ضعيف .. أما أنت ، فستعود رجلا آخر ، بعدثمانية أيام تقضيها فى باريس ! »

***

لايمكن أن يشعر انسان فى باريس بالسأم ، وخاصة اذا كان قد قضى بها الاعوام الاولى - التى تفتح فيها عقله - أو شطرا من طفولته .. فان هذه المدينة الكبيرة تبدو - لهؤلاء الذين يعرفونها - جزءا لا يقتطع من حياتهم .. انها تمثل الحياة المختلطة المزدحمة الجامعة ، والنشاط الحيوى الذى يمكن الانسان من ان يرى كثيرا من الاشياء

فى وقت قصير .. انه يعيش فى وطنه ، مهما تتغير ظروف الحياة ، مادام قلبه قد نبض فيها أيام شبابه !

وكان لويس قد هجر باريس فى وقت سأم فيه الدراسة العملية والمؤثرات العاطفية ، وشعر بشدة الميل الى حياة الريف ، بهدوئها الذى تحسد عليه وبطء أيامها الخالية من القلق والمخاوف ، حيث يمكن للمرء أن يخصص كل وقته للحب كلما أحس بأن روحه ستنعم هناك براحة لا سبيل اليها فى مكان آخر .. ولقد كان لويس يعود الى تذكر باريس احيانا ، عندما كان يقضى المساء الى جانب كاميل زوجته بسبب الامطار .. فكانت تتمثل لعينيه المنازل ذات الطبقات السبع ، والشوارع المتقاطعة ، المزدحمة آنا والخاوية آنا آخر .. وكان يخيل اليه انه يرى حلما مزعجا ، فيحول نظره ـ فى الحال ـ الى الطبيعة الجميلة المحيطة به ، وكأنها كانت تهبه سعادة خالدة .

وكأنما أرادت باريس أن تغير رأيه فيها ، وأن تبدل من نظرته اليها ، بمجرد ان عاد اليها مع روبير ! .. فما ان استقر فيها ، حتى شعر باحساس جديد ، اذ ظهر له ان المدينة الكبيرة تسجل انتصار العمل على الحب .. انتصار العقل على الجسم . وشعر فى الحال كأن العاصفة تحمله على جناحيها ، وساعده ماغمره به صديقه روبير من عناية فائقة على الاحساس بقليل من الراحة ، فاعترف ـ لأول مرة منذ حلت به مصيبته الكبرى ـ بأن اليوم قد مر بسرعة .. حتى اذا هبط المساء ، تناول الصديقان طعام العشاء وحدهما ، وجلسا فى شرفة تطل على شارع (فريدلند) ، وأخذا فى التدخين .. وساد بينهما الصمت

الطويل ، وهما ينظران الى قطاع كبير من مدينة باريس التى كانت تمتد أمامهما .. وكانت هذه البقعة من المدينة اطارا لصداقتهما منذ كانا شابين لا تزيد سن كل منهما على العشرين عاما . واذ تبادر هذا الى ذاكرتيهما — فى تلك الساعة — شعرا بألم شديد يكاد يحرق قلبيهما، كما داخلهما ما كانا يشعران به — من قبل — من سرور لاجتماعهما ، واطمئنان الى ان الصداقة التى ربطت بينهما من النوع النادر الثابت .. وأقبل كل منهما يحتضن الآخر ..

وتمتم لويس : « آه ياروبير .. كم أنا مدين لك ، اذ أتيت بى الى هنا ! » . وأدرك « روبير كلاييس » — فى تلك اللحظة — ان شفاء صديقه قد صار أمرا ممكنا . وبدأ فعلا — فى الايام التالية — يهنىء نفسه على التقدم المستمر فى صحة صديقه ومظهره ، فقد استعاد لويس شيئا من شهيته للطعام ، وأخذ يبدو عليه الاهتمام بالحياة الخارجية ، بعد أن صمم على أن يهرب من التفكير فى شخصه . وشرع فى العمل من جديد — بناء على نصيحة روبير — للانتهاء من الكتاب الذى كان الزواج قد حال دون اتمامه .. وكانت نزهات الصباح — فى الغاب — ومشاغل بعد الظهر التى تتخللها محادثات طويلة ، والمساء الذى كان يقضيه اما فى أحد المسارح أو عند لوسى .. كل ذلك كان كافيا لأن يشغله فى دور النقاهة .. أما مسألة « كاميل » ، فلم تعد موضع بحث بين الصديقين ، كأن ستارا كثيفا قد حجبها عنهما

***

ولكن الم لويس لم يكن — لسوء الحظ — من النوع الذى تكفى الموسيقى أو جولات البحيرة لشفائه .. ولم يكن

« روبير » يجهل ذلك ، بل كان يعرف انه من هؤلاء المرضى الذين يشعرون بالالم فيعالجهم ببعض المسكنات الوقتية ، وهو يوقن من انه لابد من اجراء جراحة لشفائهم التام . لويس بعد تغيير الوسط ، قد أخذ فى النقصان بدرجة لايكاد يحس بها أحد ، فبدأ ببعض اضطراب فى الحركات ، وبعض السهو والشرود والوجوم .. على ان هذه الاعراض أخذت تزداد شيئا فشيئا ، وما لبث لويس ان شعر بحاجة الى الوحدة ، تدفعه الى الابتعاد عن صديقه روبير والاختلاء بنفسه أياما كاملة فى غرفته ، بحجة انه منهمك فى العمل للانتهاء من كتاب « تاريخ فلورنسا » . وكان يخرج — بعد هذه الوحدة — وقد احتقنت عيناه ، وأصبح كالمحموم ، يسرف فى الحديث المعاد المتكرر ، كأنه يريد أن يبرىء نفسه بعد أن تذوقت المحرم من الاحلام . وكان يعامل صديقه — الذى يحبه — ببعض الجفاء ، ثم لايلبث ان يعوضه عنه ببعض مظاهر الحب ، التى تمتزج بالدمع فى اغلب الاحيان !

واذا سأله صديقه روبير — فى اللحظة التى يفترقان فيها كل مساء — وقال له : « وبعد ، كيف تجد نفسك يا لويس ؟ » ، فانه كان يجيبه : « اننى بخير .. اننى فى أحسن حال ، فانا هادىء كما ترى ، بل اننى هادىء جدا وقد شفيت تماما » .. فكان روبير يطامن نفسه قائلا : « ان هذه الحال لن تستمر طويلا ، ويجب البحث عن وسائل أخرى .. ان الحالة دقيقة جدا ، أليس فى مقدور المصادفة أن تتكفل بشفاء هذه النوبة ؟ »

كان روبير — ككل زملائه الأطباء — ينظرون الى المصادفة

نظرتهم الى مساعد كبير القيمة . وقد جاءت المصادفة ، التى كان روبير يترقبها .. ففى ذات مساء ، بينما كان الصديقان يتناولان الطعام على مائدة « لوسى » ، انتحت هذه الأخيرة بروبير ركنا من غرفة الاستقبال ـ حيث كانوا يشربون القهوة ـ وأخذا فى الحديث بصوت لا يصل الى لويس ، الذى كان قد سمر على مقعده وغاب فترة عما حوله .

قالت المرأة بصوت خافت : « لقد عادت لورنس البارحة من لندن ، بعد أن قضت هناك شهرا كاملا ، تمثل دورها فى رواية «عالم الفراغ» .. وقد أخبرتها بأن لويس موجود فى باريس ، وانه قد انفصل عن زوجته أو طلق منها .. لا أذكر تماما ما قلت ، ولكنى اخبرتها أنه أصبح حرا ! .. أخبرتها بذلك بطريقة عاديه ، كما لو كان خبرا من الاخبار التى تذكرها اية صديقة لصديقتها ، حين يلتقيان بعد فراق طويل .. وبمجرد ان اخبرتها بذلك ، تغير لون وجهها ، وارتمت على صدرى ، وسقطت مروحتها من يدها .. وأخذت أعالجها بالمنبهات حتى عادت الى صوابها ، فقلت لها : « وبعد .. ماهذا ؟ اما زلت تفكرين فى هذا الشاب؟» . فاعترفت لى المسكينة ـ وقد انهمرت دموعها من عينيها ـ بأنها لاتزال تفكر فيه فعلا ، وانها فشلت فى كل محاولة بذلتها لكى تنساه ، وانها تود ان تراه . فأفهمتها انه الشاب قد لايحتمل محادثة أحد أو مقابلته فى الفترة الراهنة ، ولكنها لم تهتم لذلك ، وأصرت على رؤيته .. ولما رأيت انه يكاد يغمى عليها مرة ثانية ، ولكى أوفر استعمال منبه جديد ، وعدتها بأن أحاول أن أجمعها به .. وهنا انتهت مهمتى ! »

وفكر روبير لحظة ، ثم نظر الى لويس وقد جلس ساكنا على مقعد ، واستقرت نظراته فى نقطة معينة ، دون أن يهتم باحتساء قدح القهوه الذى كان موضوعا على المائدة القريبه منه .. كان قد نسى كل المحيطين به ، واستغرق فى حلم عميق ، لم يكن يستيقظ منه الا منزعجا اذا وجه اليه أحد الحديث .. ووضع الطبيب احدى يديه على ذراع صديقته وقال : « ومع من تعيش لورنس الآن ؟ »

– أظنها وحيدة .. فقد اختفي صديقها القديم ، بعد أن تلقى صدمة قوية فى (البورصة) ، قبل ان تسافر هى الى لندن ببضعة أسابيع . ولا أظنها قد اتصلت بشخص آخر اثناء وجودها فى انجلترا !

– حسنا ، اصغى الى !.. عليك أن تقصى على صديقنا لويس ما قصصت على الآن .. حاولى ان تذكريه له بنفس الطريقة ، فقد كنت تروينه أبدع رواية !

***

ابتسمت لوسى، وبادرت الى حيث جلس لويس، فتناولت قدح القهوة وقدمته له، وهى تقول : «أتسمح لى – ياسيدى العزيز – بأن أذكرك بالحياة الواقعة ؟ » . وجلست الى جانبه ، ثم أخذت تقص عليه القصة من جديد ، بصوت منخفض ، بينما راح روبير يقلب مجموعة صور بين يديه ، وهو يراقب التأثير الذى ينعكس على وجه لويس ، فلاحظ ان وجهه قد احمر قليلا ، ثم رآه يبتسم ابتسامة غريبة .. وفى النهاية ، رآه يضع أصابعه على فمه ، كأنه يرجو لوسى ان تكف عن سرد قصتها ، ثم لم يلبث ان وقف ، وأمسك بيد المراة فقادها الى (البيانو) ، وفتحه لها وهو يقول :

« عزيزتى لوسى أرجو أن تعزفى لى لحنـــا من بتهوفن ، اذا أردت ادخال بعض السرور الى قلبى ! » .. وحاول بقيــة السهرة أن يبدو بمظهر الفرح ، وألا يعود الى احلامه .. بل لقد حدث أن ضحك مرة ، ولكنه فطن ـ ولابد ـ الى ان الضحكة ظهرت مزيفة مصطنعة ، فقد توقف عن الاستمرار فيها فجأة ..

وعاد الصـديقان وحدهما ـ فى تلك الليلة ـ سـيرا على الاقدام ، بعد أن غادرا مسكن لوسى . فلما بلغا مسكنهما ، بنزل (لامرتين) ، جلسا فى الشرفة طويلا ، يدخنان.. وعندما أوشكا على الافتراق ساعة النوم ، أمسك روبير بيد لويس واحتجزها فى يده ، ثم قال له وهو يحدق فى عينيه : «وبعد؟ .. أتحب أن تراها ؟ » .. وكأن لويس كان يتوقع هـذا السؤال، فلم يحاول أن يتخلص من صديقه ، وقال له :«بماذا تنصح لى ؟» . فقال روبير : « انها مسألة شـائكة ياعزيزى، الى درجة ينبغى فيها على الصديق ان يتروى ، اذا اراد أن ينصح صديقه . ولكنك اذا سـألتنى هذا السؤال بوصفى طبيبك المعالج ، لما ترددت فى أن أجزم بأن من الواجب أن ترى لورنس ! »

وفكر لويس لحظة ، ثم قال : « ولـكن أين اراها ؟ .. اننى لااريد أن أذهب الى منزلها ، بل اننى لااجرؤ اذا اردت، وانت اعلم بمقدار خجلى وحيائى ! » .. فقال روبير : « نعم أعرف ! .. غدا صباحا ، سأكتب كلمة الى لوسى ، لكى تدعو لورنس الى تناول الطعام عندها . وسـنذهب اليها ـ انا وانت ـ كعادتنا، وعليك أن تدبر ـ بعد ذلك ـ ما تفعل. فاذا عادت اليك ميولك القديمة ، عند ما تذهب الى هناك ، أمكننا أن نعقد اتفاقا فى نفس المساء ، فهى حرة مثلك كما عرفت

.. اما اذا لم تشعر بميل لها ، فسنعود الى قواعدنا وينتهى كل شىء .. ولكننى اكرر لك أن الطبيب يرجو أن يتم الاتفاق بينكما ! » . فأجاب لويس بابتسامة واسعة : « حسنا ، مادام الطبيب هو الذى يتكلم ، وقد وعدت بطاعته ، فسأمتثل لامره ! » .

***

وفى اليوم التالى ، بدا لويس لصديقه كالمضطرب المحموم فكان يسكت حينا ، ويتكلم حينا ، فى غير انتظام ، ويحاول أن تلتقى عيناه بعينى صديقه روبير . . وكان هذا الاخير غير واثق تماما من أن كل شىء سينتهى كما يريد ، فراح يقارن — فى قرارة نفسه — بين حالة لويس وحالة غيره ممن كانوا على شاكلته — من ذوى الارادة الضعيفة — قبيل اقدامهم على صراع جدى ، أو على جراحة خطيرة .

وفى ذلك المساء ، ذهب الاثنان لزيارة لوسى فى الساعة المحددة .. ووجدوا عندها « لورنس » ، التى مدت اليهما يدها ، بينما تشبثت يدها الاخرى بيد صديقتها لوسى ، وهى تغالب اضطرابا عظيما ، برغم مظهرها الخارجى . . وكان لويس شاحب الوجه ، مقطب الجبين ، كأنه قد قام بمجهود عظيم .. وبدا عاجزا عن الكلام فى مبدأ الامر . ومع أن كلا منهما كان قد عرف حالة الآخر ، الا أنه تظاهر بأنه لم يكن يدرك شيئا . وتناول الجميع الطعام فى جو ينقصه المرح والسرور .. وحاول «روبير» و « لوسى » ان يزيلا الكلفة التى سادت الحديث ، الا ان افكارهما كانت منشغلة بشىء آخر ، هو مراقبة الرواية الغرامية التى كانت تمثل أمامهما . واستعاد لويس ذلك السرور — الذى اصطنعه طول اليوم — الا أن حديثه كان متقطعا ، كما كانت حركاته غريبة تنبىء عن

انفعاله الداخلى .. بل لقد كسر كأسين ــ وهو يعيدهما فارغتين الى المائدة ــ لفرط اضطرابه .

أما « لورنس » فكانت أشدهم محافظة على مظهرها الطبيعى ، ولم تحاول اتخاذ مظهر مصطنع . فلقد راحت تنظر الى صديقها القديم بعينين خضراوين صافيتين ، كالماء الرائق فى البحيرة ، وكأنها كانت تقول بنظراتها : « اننى لا أزال مقيمة على حبك ، فهل ما زلت ترغب فى ؟ .. ألا ترى أننى ملك لك ؟ .. ليتك تعرف كم سأعنى بك ، ايها المريض المسكين !.. لو أنك عرفت لنسيت تلك المرأة الشريرة التى سببت لك الالم ، ولتبعتنى فورا ! »

ولما عاد الاربعة الى غرفة الاستقبال ، انسحب « روبير » مع صديقته « لوسى » الى الشرفة ، وتركا « لويس » و « لورنس » وحدهما فى الغرفة المضاءة بمصباح واحد صغير . وكانت لوسى تتحايل على أن تنظر اليهما ــ من وقت لآخر ــ لترى ما يجرى بينهما ، يدفعها حب الاستطلاع الذى تتميز به كل بنات حواء ، حتى أن روبير ما كان يسعه غير الابتسام وهى تقول له : « ان الحال فى تقدم ! .. انهما يتقاربان .. أمسك لويس بيديها .. انهما يتحادثان !.. لقد كفا عن الحديث ! .. لورنس تجفف عينيها بمنديلها » .. وكان روبير يقول فى نفسه : « كم تهتم المرأة بكل ما يتصل بالحب ! ان من يتعلم ليصبح محاميا أو مهندسا لا تبلغ دقة ملاحظته مقدارما تبلغه دقة ملاحظة المرأة فى مسائل الحب!»

ولما طالت المقابلة الودية بين لويس و صديقته ، التفت روبير الى لوسى وقال لها : « ادخلى الى الغرفة ، واعزفى لحنا على البيانو ، على أن تبدعى فى عزفك ، وتستعملى كل ما لديك من مقدرة .. بالامس كان عزفك فاترا تنقصه

الروح ! .. تصورى نفسك اليوم فى الكونسرفتوار (المعهد الموسيقى) ، أمام هيئة من المحكمين ! » . فرمقته بنظرة عاتبة ، وقالت : « يا لك من قاس ! »

ثم دخلت وجلست أمام (البيانو) ، وبدأت تعزف قطعة من لحن « كونى امرأة يا مريم ! » ، الذى يعتبر من أروع الحان الموسيقى الشهير « جونو » وأكثرها تأثيراً فى النفس. وقد عزفتها بمهارة فائقة لم تبد مثلها من قبل ، وكأنها كانت تدفع البيانو الى البكاء .. وغلبها التأثر الشخصى أثناء عزفها ، وهى لا تشعر ، بدافع من شدة اهتمامها بغرام شخص آخر . ولما انتهت من العزف ، كان لويس هادئاً ، يرمق لورنس التى أخذت تنتحب .

وغادر روبير مقعده ، وأقبل على لوسى فقبلها فى جبينها ، وهو يقول لها : « أحسنت ! حسن جداً يا حسنائى !.. انك لفنانة حقا ، عندما تهتمين بعملك ! » .. واحمر وجه لوسى سرورا بهذه التحية ، اذ كان روبير يبخل عليها دائماً بمثل هذا الاطراء . واقتادته الى احد اركان الفرفة ، وأخذت تحدثه بصوت منخفض . وكانت لورنس و لويس ــ الذى استولى عليه الصمت ــ لا يسمعان من هذا الحديث سوى كلمات قليلة تصل اليهما مصادفة : « مرة واحدة على الاقل .. ولتكن استثناء ! .. لقد مضت مدة طويلة .. ارجوك! » .. وتردد روبير ، ولكنه قال فى النهاية : «ليكن !.. سأبقى» . وما كادت هى تسمع ذلك ، حتى قفزت الى عنقه وقبلته ، ولكنه تخلص منها ضاحكا، واتجه نحو لويس وقال له : «لقد صدر لى الأمر بالبقاء هنا ، فهل لك أن تقبل عذرى ، وأن ترافق الآنسة لورنس الى منزلها .. لا أظنك تعترض على ذلك ! »

والقت لورنس على روبير احدى تلك النظرات المشرقة، التى تدل على الاعتراف بالجميل من جانب المرأة، عند ما يقدم لها الرجل مساعدة فى شأن من شئون غرامها . أما لويس، فلم يبد أية دهشة، بل قال : « لا بأس فالوقت متأخر !.. وقد ذكرت لى لورنس انها تشعر بالتعب .. سأرافقها الى منزلها » .. واحمر وجه لورنس كأنها فتاة صغيرة تشعر بالخجل ، وتمتمت بكلمات مرتبكة ، غير واضحة ، بينما أمر روبير باستدعاء عربة من الموقف القريب ، فى الشارع .. وافترقوا . وغادرت لورنس منزل لوسى وهى تستند الى ذراع لويس .. وانتهزت لوسى أول لحظة من لحظات الخلوة بروبير ، فتعلقت بعنقه ، الا ان الطبيب تخلص منها برفق ، وأسرع الى الشرفة لكى يتبع بنظراته عربة مقفلة سارت فى اتجاه الغابة .. العربة التى تحمل صديقه لويس ومعه لورنس . وما ان اطمأن ، حتى عاد الى لوسى وجذبها الى صدره ثم قبلها فى وجد ..

***

وغادر روبير منزل عشيقته فى الساعة الخامسة صباحا ، واتجه صوب (فيلا لامرتين) ، حيث كان يقيم مع صديقه لويس . وكان النهار قد طلع ، فظهرت السماء صافية ، وان شاب صفاءها قناع خفيف من الضباب .

ولما دخل المنزل ، اتجه الى غرفة صديقه وطرق بابها ، ولكنه لم يسمع صوتا أو حركة .. ودخل الغرفة بحذر . وكان الضوء يتسرب اليها من النافذة المفتوحة ، يطارد فلول الظلام الباقية فى الاركان . ووجد الفراش وقميص النوم على حالهما ، لم يمسا . فتمتم قائلا يحدث نفسه : « هه .. ان

لويس لم يعد الى المنزل . لقد تطورت الامور الى أحسن مما قدرت . لاشك ان تلك الصغيرة لورنس ذات مقدرة عظيمة .. والآن ، فلأستكمل حاجتى من النوم ! »

واستيقظ روبير متأخرا ، حوالى الساعة العاشرة . وكان أول ما اتجه اليه فكره هو لويس ، فسأل الخادم عندما دخل حجرته لينظف له ملابسه : « هل عاد المسيو لويس ؟ »

– نعم .. لقد عاد السيد فى منتصف الساعة الثامنة ، ولم أدخل حجرته بعد حتى لا يستيقظ من نومه !

وغادر روبير فراشه بسرعة ، وارتدى بعض ملابسه ، ليسرع الى صديقه فيعرف حقيقة ما حدث بين لورنس و لويس ، وهو يقول فى نفسه : « ان لويس يستيقظ مبكرا – فى العادة – فمن الغريب أن يلازم فراشه بعد أن دقت الساعة العاشرة . لا شك انه يقلب الصفحات التى كتبها من « تاريخ فلورنسا » .. وسنرى! » .. وقبل أن ينتهى الطبيب من ارتداء ملابسه ، دخل لويس لوت الى غرفته .. وكان لا يزال مرتديا الملابس التي كانت عليه بالامس ، وقد تشعث شعره ، وشحب وجهه ؛ وذبلت عيناه من آثار دموع جديدة . ولم يكن الاعياء الذى يبدو عليه من نوع الاعياء الذى يبدو على الرجل بعد قضاء ليلة غرام مع صديقته . فانزعج روبير قائلا لمرآه ، وقال : « ماذا بك ؟ .. اتشعر بألم ؟ »

– لا ، ولكننى لم انم . وهذا كل ما هناك .. أريد أن اتحدث اليك ، فهل يتسع وقتك ؟ .

– اننى لا انتظر احدا ، فاجلس وتكلم ..

وجلس الطبيب الى جانب صديقه وسأله : « هل أجبت الصغيرة لورنس الى رجائها ؟ » . فقال لويس : « اصغ الى! .. ستعرف كل ما هنالك ، فلا تسألنى عن شىء ! .. لقد رأيتنا مساء الامس ونحن نستقل العربة . ومنذ غادرت شارع (فريدلند) ، الى أن وصلنا الى منزل لورنس ، لم اتبادل معها غير بضع كلمات لا معنى لها . وكنت ـ ونحن فى منزل لوسى ـ قد شعرت نحوها بعاطفة حب حقيقية ، ولكنا لم نكد ننفرد ـ فى العربة ـ حتى بدأت الخلوة تضايقنا وتحرجنا . ولحسن الحظ ان العربة كانت تسير بسرعة ، فأوصلتنا بعد خمس دقائق أو ست .. الم تزر منزل لورنس من قبل ؟ .. »

وسكت لحظة ، ثم اردف : « انها تقطن حجرة من منزل كبير ، فى شارع (برجوليس) . وقد وقفت العربة أمام باب المنزل الخلفى ، حتى لا يخرج البستانى من غرفته ـ فى هذا الوقت المتأخر ـ لكى يفتح الباب الخارجى . ولما فتحت الباب قالت لى : « ان الممر طويل ومظلم ، واننى لاشعر ببعض الخوف ، فهل لك ان تصحبنى الى غرفتى ؟ » .. ولم يكن فى وسعى أن أرفض ، أليس كذلك ؟ .. فأمسكت بذراعى ، وراحت تتكىء عليه اتكاء له معناه البليغ . أما أنا فقد شعرت باضطراب لا يمكننى أن أعبر عنه .. كان اضطرابا غريبا ، وكأننى أواجه الموت ، ولا أملك منه فرارا . فان فكرة الاختلاء بامرأة واحتمال حبها ، كانت تبعث الاضطراب الى نفسى .. ! »

وقال روبير مبتسما : « أعرف ذلك ! » . فمضى لويس فى حديثه قائلا : « واجتزنا الممر الممتد فى الحديقة ، حتى بلغنا المبنى ، وكان مؤلفا من جناحين ، وغرفة لورنس فى الجناح

الايمن . فقالت لى : « ليس لمنازل هذا الحى حراس ، بل ان كل ساكن يحمل مفتاحا للمبنى ، ومفتاحا لحجرته .. أليس هذا بديعا ؟ » . وأخرجت من جيبها مفتاحا ، فتحت به باب المبنى ، فظهر البهو وقد أضىء بمصباح كهربائى ، ولكنه كان ضعيف الضـوء . ولم تتعجل لورنس اغلاق الباب ، فبقينا لحظة قصيرة جدا ، أنا عند نهاية السلم وهى عند الباب .. وشعرت اذ ذاك بحرج موقفى ، ورحت أغالب نفسى بجهد اؤكد لك ان لا دخل فيه للرغبة ، حتى دخلت البهو .. ووضـعت لورنس أصـبعها على فمها ، وتقدمتنى الى غرفتها ، فصعدت السلم .. انى لأذكر جيدا كل ما مر بفكرى واحساسى وانا أصعد السلم . فقد قلت لنفسى : « الآن ـ بعد أن خضعت وأطعت ـ يجب أن أسير فى هذا الطريق الى النهاية ! .. ان للورنس كل الحق فى أن تتوقع منى الحب ، فانها لم تظهر لى غير الاخلاص .. وهى ـ فى الحق ـ جميلـة جـدا ، مخلصـة جدا ، مرغوبة ألى اقصى حد .. وفوق ذلك ، يجب أن أشفى من مرضى ، وانى لأشـارك روبير فى اعتقـاده بأن الحب كفيل بشفائى » .. هذه الافكار وكثير غيرها مرت برأسى وأنا أصعد العشرين درجة ، اذ تمر بالمرء أحيانا لحظات يتعدى الفكر فيها حدود الزمن ، ولا يظل حبيسـا فى نطاقه المعتاد .. »

قال روبير : « هذا صحيح جدا .. وبعد ؟ »

ـ وبعد .. لم نكد نجد نفسينا منفردين فى غرفة مغلقة ، حتى حاولت أن أنفذ ماعتزمت عليه وأنا أصعد السـلم ، فأخذت لورنس بين ذراعى ، وهى خفيفة كالطفلة ، وجلست على أول شىء صادفنى فى الظلام السائد ، وكنت لاأزال ممسكا

بها ، عندما رحت أبحث بشفتى عن شفتيها . وقد ردت الى قبلاتى .. ولا أملك أن أصف لك العاطفة القوية والحرارة الصامتة اللتين ضمنتهما قبلاتها .. وأنت طبيب ، وتستطيع تقدير أثر ذلك الاتصال فى رجل مثلى أصبح الآن سريع التأثر ، لاسيما بعد أن صام عن الحب مدة تزيد عن أربعة أشهر .. لذلك فان جسمى ودمى جعلانى أتوهم اننى قد عثرت على الحب من جديد ، فاستسلمت لنشوة تامة لحظة قصيرة ، نسيت خلالها الحقيقة .. وشعرت بالدم يغلى فى عروقى ، فضممت الجسم الذى كان بين يدى بقوة ، وهتفت مرتين بصوت عال : « كاميل ! ! كاميل ! » ..

وهنا صاح روبير : « ياللشيطان !.. وهل سمعتك لورنس وأنت تنطق باسم كاميل ؟ »

ــ نعم سمعتنى.. وأنا أيضا خيل الى اننى اسمع شخصا يردد هذا الاسم فى الغرفة . وعندئذ انتزعت لورنس نفسها من بين يدى بعنف ، وأصلحت ملابسها ببرود ، ثم أضاءت الانوار كلها فى الغرفة ، كأنها تريد أن تنير الطريق لغرامها المنحرف . وبقيت فى مقعدى وقد أصابنى نوع من الغباء .. كانت رغبتى كلها قد تبخرت ، وأحسست برأسى فارغا ، وبالبرودة تسرى فى أعضائى . وأصابنى ذعر لظهورى بهذا التناقض ، فاستجمعت شتات نفسى ، وغادرت مكانى واتجهت اليها ، وكانت تقف أمام المرآة لتنظم شعرها .. وحاولت أن أجبر نفسى على تطويق جسمها ، وضمها الى صدرى ، ولكنها أشاحت عنى بحزن ، وأبعدتنى عنها . ثم نظرت الى بعينيها الزرقاوين ، ورأيت فيهما دمعتين لامعتين ، كما قرأت فيهما شعورا هو مزيج من الحب والسخرية والشفقة . وقالت : « الا رفقا ياعزيزى لويس ، وكفى

خداعا وتمثيلا !.. اننى أحبك كثيرا ، وأنت تعرف ذلك ، وقد برهنت لك على حبى ، فلم أعرض عنك بعد كل مالقيت من صدك وقسوتك فى العام الماضى .. وسأبرهن لك عليه مرة أخرى ، فأغفر لك مابدر منك الآن ، برغم أنه أشد قسوة على احساسى من كل ما مضى ، اذ يبدو انك اردت استخدامى لحظة كوسيلة لحب امرأة غائبة بعيدة عنك .. ولا أعتقد انك كنت تشعر بما تصنع ، فأنت أكثر اخلاصا من ان تفعل ذلك ، ولكن هناك امرأة تقف حائلا بينى وبينك ، وليس فى مقدورك ابعادها عن الطريق ، ولذلك فانها ستحول بينك وبين حبى أو حب أى امرأة اخرى ، على الدوام » . فأجبتها قائلا : « أؤكد لك انك على خطأ . وهل تغضبين منى لأن لسانى قد نطق باسم غير اسمك ، فى الوقت الذى كنت افكر فيك أنت ؟ » . فقالت : « لا ، انك تخدع نفسك ، بل انك لا تريد أن تعترف لنفسك بأنك ملك لامرأة اخرى ، وانها قد استحوذت عليك تماما . وهذه المرأة هى ـ على ما أظن ـ « كاميل » ، التى كنت أجهل اسمها . ان كل ماتفعل ، وكل ماتقول ، يخونك ويكشف عن هذه الحقيقة . ولما أتيت بك الى هذا المكان ، كنت على علم بذلك ..أتظن اننى لم أقرأ افكارك فى عينيك ؟.. ولكننى كنت أعتمد على ذكرياتنا المشتركة ، وعلى الألم الذى سببته لك المرأة التى تحبها ، فى حين أننى لم أحاول فى حياتى الا أن اجعلك سعيدا .. فضلا عن اننى كنت صادقة فى حبى لك .. وفى الحب ، يتعلق الانسان بأصفر الآمال ، كما تعرف .. ولكننى لم أنجح ، وقد انتصرت الاخرى على ، وليس أمامى الا التسليم بذلك ! »

وسكت لويس لحظة ، ثم قال : « ولم يسعنى الا انأقبل يدها — التى تركتها بين يدى — وأنا أقول لها : « ان قلبك هو أنبل القلوب التى عرفتها وأطهرها » . ولكنها أجابتنى : « لست أمتاز عن أية امرأة اخرى ، ولكننىاعرف كيف احب باخلاص . والآن ، مادام السلام قد ساد بيننا ، وقد سوينا الموقف ، فلتجلس هنا الى جانبى لكى تقصعلى تفاصيل قصتك التى اجهلها ، واظن ان من حقى أن استحوذ على ثقتك ! »

وتمتم روبير قائلا : « ان لورنس طيبة القلب حقا ، وهى تستحق أن تجد لنفسها رجلا يحبها ! » . فقال لويس : « أجل .. وقد أطعتها وجلست الى جانبها ، وسردت عليها كل القصة المحزنة التى تعرفها ، مع تفصيلات قد تجهلها أنت نفسك .. وكانتتصغى باهتمام عظيم ، وتبكى فى بعض الاحيان .. وحين وصلت فى قصتى الى سرد ما حدث بين الدكتور جوفر وابنته كاميل — على مسمع منى ، وأنا وراء الباب — تمتمت لورنس قائلة : « ياللمرأة المسكينة !.. ان هذا شىء مروع !.. كيف تمكنت من احتمال كل هذا الألم ؟» . وشرحت لها كذلك آلامى التى قاسيتها وحدى فى منفاى بسان فلورى ، وكانت تمسك بيدى من وقت لآخر ، وتضغط عليهما . وحين أعود الآن الى التفكير فى هذا الموقف ، أجده غريبا جدا .. تصور الغرفة الصغيرة ، والنور يسطع فيها ، وأمامنا الفراش مستعد وكأنه ينتظر العاشقين .. وهى أمامى عارية الصدر والذراعين ، وملابسها غير مرتبة من أثر عناقنا ، وأنا بملابسى هذه ، التى أرتديها الآن .. وحين ذكرت لها كل شىء ، شعرت اننى اقل حزنا

وألما ، ولكننى أشــد تعبـا .. كنت مثل شخص استنزف الكثير من دمه .. وكان ضوء الفجر قد بدأ يصل الينا من النوافذ، فنظرت الى لورنس وقالت : « ياعزيزى لويس، لم يبق لدى شك ــ بعد كل ما سردت على ــ فى أنك تعبــد امرأتك ، ولا تتألم الا لسبب واحد ، هو أنك انفصلت عنها .. اسمع جيدا ما أقول : ان ألمك منبعث عن الفراق، وليس عن تذكر سنبب شقائك ! » . فقلت لها : « وبعد ؟ » .. قالت : « ليس عندى غير نصيحة واحدة أسديها اليك .. قد لايكون فى مقدور المرأة أن تحكم فى هذه الشؤون ، ولكن كل ما أعرفه هو انه اذا كانت هناك نقطة سوداء فى حيــاة رجل ما ــ وليكن أنت مثلا ــ وكنت أحب هذا الرجل وأثق من أنه يحبنى ، فلا شىء فى العالم كله يمكن أن يحول بينى وبينه !.. هل تسمع ما أقول ؟.. لاشىء غير الموت يمكن أن يفصلنى عنه ! .. والآن ، وداعا فقد طلع النهار ، ولا أريد أن يراك عندى أحد ، لأنك لن تعود الى هنا ثانية ! »

* * *

وسكت لويس ، فسأله روبير : « وهل فارقتها على هذه الحال ؟ » . فأجاب : « نعم، بعد ان تبادلنا قبلة أخوية !.. ولعلك ترى أننى وصلت الى هنا مضــطربا جدا ، شــديد الحيرة ، فاقد الارادة الى درجة لم أشعر بها من قبل .. وهأنذا أسائل نفسى الآن : « ماذا يجب أن أفعل ؟ » .. ولم يجب روبير عن هذا السؤال ، بل أخذ يســير فى الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة . ثم أشعل سيجارة ، وجلس أمام لويس ، وقال له :

ـ اصغ الى !.. اننى لا أستغرب ماحدث ، فان هذه هى النهايه الطبيعية . وحين عدت بك من (سان فلورى) ، كنت على اعتقاد راسخ بأن النوبة التى أصابتك ستنتهى بأن ترى هذه الحقيقة الواضحة ، وهى : ان شفاءك متوقف على عودتك الى زوجتك . وأنت ترى ياصديقى أن هذا كان شيئا معروفا بالبديهة كما يقول الرياضيون ، فان كاميل ، بالنسبة اليك امرأة تختلف عن الاخريات .. اذ أنك رأيتها فى الوقت الذى تفتحت فيه عيناك وتنبهت فيه حواسك ، وقد حدث لك هذا فى سن مبكرة ، فوجد الغرام حكما لم ينضج بعد ، وجسما أقل صلابة .. وفوق ذلك ، هناك القوة الفريدة فى نوعها ؛ التى زرعت بها بذرة هذا الحب فى قلبك ..

« ولما كنت شاذا نادرا بين بنى جنسك ، فانه بدلا من أن تنمحى صورتها من نفسك بسرعة ، اذا الفراق يزيدها رسوخا . بل انك وجدت سرورا ولذة وأنت تغذى نفسك بفكرتها ، وأصبحت هذه الصورة بالنسبة لك مثلا أعلى يخالف الحقيقة .. ولذلك أخذت نفسك تشمئزمنها ، فقدمت لذكرياتك تضحية من ذوب نفسك وشخصك، وكانت تضحية يومية جعلت ذكرياتك أثمن وأحب اليك من ذى قبل ، لما كبدتك من جهود وآلام . فحين تنحصر حياة الانسان ـ طوال طفولته وشبابه ـ فى امرأة معينة ، لايبقى ـ بعد ذلك ـ مجال لشىء آخر ياصديقى . وصدقنى عندما اكرر ذلك .. لاشىء يمكن أن ينقذه من هوى هذه المرأة ، اذ ينتهى أمرها بأن تستحوذ على الرجل ، كما قالت لورنس الصغيرة .. انها تصبح جزءا من تفكيره ، ورأيا من آرائه .. بل انها لتصبح جزءا منه هو . وموجز القول ،

ليس فى امكانك أن تنزعها من قلبك ، كما ليس فى امكانك ان تنزع عينيك وتغير لونهما .. وعلاوة على ذلك ، فانها أتاحت لك الاستمتاع بسعادة لا مثيل لها .. سعادة تحقيق هدفك وتحول حلمك الى حقيقة واقعة ، وهى سعادة قليلة الحدوث ..

« والآن ، أنت تعرف ان هذه المرأة لاتزال على قيد الحياة ، وانها لاتزال مقيمة على حبك ، وان الامر متوقف عليك ، وان فى مقدورك استعادتها والاحتفاظ بها . ومع ذلك ، فأنت تقاوم كل ذلك ، وتريد أن تعيش على الرغم من ذلك .. هراء باصديقى ، بل جنون ! .. واذا كنت لم أذكر لك ذلك من قبل ، فلعلمى بأن منطق الحوادث سيكشفه لك . ليست هناك غير وسيلتين للمقاومة : فاما أن تنتحر — كما فعل فرتر — واما ان تنفصل عن الحياة الاجتماعية وتلوذ بالدير ! .. فأيهما تبغى ؟ »

وقال لويس بصوت واهن : « لا .. لا هذه ، ولا تلك ! »

— حسنا ، اذن يجب أن تخضع .. ان الظروف الحالية مواتية ، ولكن الرياح قد تهب من جهة أخرى . فلتسرع !.. ليس هناك — حتى الآن — من يعرف ماحدث بينك وبين زوجتك تماما .. وكاميل تعيش وحدها مع والدها ، فى بقعة نائية من اقليم (الاندز) ..

فقاطعه لويس وهو يهب واقفا فى مكانه : « كيف ذلك ؟.. أتعرف مكانها ؟وكيف عرفت ؟ »

— لايهمك ذلك كثيرا .. اننى أعرف كل شىء ، ولكنى لا أملك أن اخبرك بكل شىء ! .. لقد تلقيت خطابين من « كاميل » ، ولم أر من واجبى ان أرد عليهما قبل ان تهدأ اعصابك تماما .

وهنا صاح لويس : « هل هى على قيد الحياة ؟.. هل هى تعسة شقية ؟ » . وقال روبير كلاييس : « هل ترى مقدار حبك لها ؟ .. أنت لاتسألنى الا عنها وعن حياتها ، ولا تسألنى عن الشىء الوحيد الذى يعترض سعادتك وهو الطفل ؟! » .. فندت عن لويس شهقة مختنقة ، بينما استطرد روبير قائلا : « نعم ، الطفل .. ويجب أن نفكر فى موضوعه قبل أن نستقر على رأى ما . لاشك انه قد ولد الآن، وأصبحت كاميل أما منذ عدة أسابيع .. وهى ضعيفة ، ولكنها ليست مريضة . وبعد ، فماذا قررت ؟ » . فقال لويس وكأنه يحتمى بصديقه : « انصحنى . ليست لى قوة على الحكم ، بل ولا شجاعة على التفكير ! »

ـ أنصحك ؟!.. لا ، لست أملك ان أنصحك ، فأنت تدرك ـ بالتأكيد ـ ماتنطوى عليه نصيحة كهذه من خطورة ومسئولية . ففكر اليوم فى الأمر وحدك ، لأننى مضطر الى مغادرة باريس .. فكر فى « كاميل » بوصفها أرملة ذات ولد .. وكما قلت أنت فى مذكراتك التى انتهيت من قراءتها : « ليس هناك شىء يشمئز منه الحب أو ينفر » .. فكر فى أن هذه المرأة تحبك ، وأنها ـ حتى اذا كانت قد أخطأت أو اجرمت ـ قد كفرت الآن عن ذنبها !

ـ أذن ، بقى على أن أعود اليها ؟

ـ لم أقل ذلك ، بل يجب أن تفكر فى الوجه الآخر للموضوع .. فيما تنطوى عليه هذه العودة من الناحية الاخلاقية وناحية الكرامة الشخصية .. انها ستنطوى على تخاذل وضعف ، أو كما قال جوفر : « على جبن ونذالة » ..

فقاطعه لويس قائلا : « ولكن الغفران ليس جبنا » .. فقال

روبير : « آه ، ما أرخص الكلمات ! .. لو لم تكن تحب كاميل ، ولو لم يكن جسدك كله يدعوها ، لكانت استعادتك لها مثلا رائعا للشفقة والرحمة اللتين يدعو اليهما الدين .. ولكنك – فى الواقع – تفعل ذلك ارضاء لنفسك ، واطفاء لنار حبك ، وستتكبد عناء أكبر – فى حياتك – اذا لم تصفح وتنس .. وفوق ذلك ، أنت تعرف عقيدتى فى هذه الشؤون ، فان الخضوع للظروف أمر لابد منه – فى نظرى – ولا يمكن لانسان أن يتهرب منه الا اذا تخلى بمحض ارادته عن الحياة .. وهذا ما كنت أقوله لك فى هذه الساعة . ولكن المهم أن يعرف الانسان السبب الذى من أجله يخضع للظروف ، وأن يخضع لها وهو متمالك لشعوره ، لا أن يكون خضوعه مجرد حركة منعكسة من حركات الارادة ! »

واختتم روبير حديثه وهو يقول : « والآن ، الى اللقاء .. سأتركك وحدك لتفكر فى هذه المسائل الخطيرة ، دون أن تكون عرضة للمؤثرات السريعة .. لتفكر فيها بذلك الجد الذى يلائم رجالا مثلنا . وسأعود لمقابلتك فى هذا المساء ، فاذا قلت لى : « لا أريد استعادة زوجتى » ، فان واجبى يكون قد انتهى ، ولن يصبح فى امكانى أن أصنع شيئا آخر فى سبيل شفائك .. واذا قلت لى : « أريد استعادتها » ، أعددنا حقائبنا استعدادا للسفر ، وسأرافقك فى أول قطار .. والآن الى اللقاء ! » . وفتح روبير ذراعيه للويس وضمه اليه بحب ، ثم وضع قبعته على رأسه واتجه نحو الباب .

وعندما فتحه ، أمسك به لويس وقال له : « كلمة أخيرة أرجو الا تضن بها على يا روبير .. ماذا كنت تفعل أنت لو كنت مكانى ؟ » . فقال روبير فى هدوء ، وهو ينظر الى لويس : « كنت أعود اليها ! »

(٤)

لم يخطىء « روبير كلاييس » فيما قال ، فان « كاميل » كانت قد أصبحت أما منذ ثلاثة وعشرين يوما . ففى منتصف شهر مارس ، أحست بالاعراض الاولى وشعرت بضعف عظيم .. شعرت كأن أعضاء جسمها مهشمة على اثر سقوطها من مكان مرتفع ، وظهرت أورام فى جسمها ، ولم يعد فى امكانها أن تأكل شيئا .. وبالجملة ، فقد أصابتها كل الآلام التى لم تعرفها منذ بدء حالتها .. وكذلك صار وزن الجنين اكبر مما كان بوسعها أن تحتمل .. ترى هل كانت هذه هى المرحلة الأخيرة ؟.. لقد كانت تجهل ذلك ، ولم تجرؤ على أن تسأل والدها عن الأمر .. فماذا يهمها لو أنها كانت على وشك الوضع ، أو على وشك الموت ؟ !

لقد غفلت عن مرور الزمن ، وهى تتبع سلسلة الماضى فى قليل من الاهتمام وكثير من الحزن .. لم تكن تبالى بشىء ما ، ولم تكن تثور ضد شىء ما . وبدأت الايام تتراكم وراء ظهرها ، لكى تقيم حاجزا يفصل حياتها بالأمس عن حياتها اليوم ، كما كانت اشجار الصنوبر ــ فى الغابة ــ تحجب عنها الأفق من جميع الجهات .. ولم تكن تدرى هل انقضت أيام أو أسابيع ، أو شهور !

وكان الدكتور جوفر يلازمها ابان هذه الأزمة ، ويسهر عليها وهو صامت ، فلم يكن فى وسعها أن تميز ما اذا كان ابا أو طبيبا أو سجانا .. ولم تجرؤ على أن توجه اليه الحديث ، لتسأله قائلة : « هل اقترب أوان الوضع ؟ » .. الا انها مالبثت ان دخلت فى دور النقاهة ، وأصبح نومها

طبيعيا هادئا ـ بعد ان كان قصيرا مصحوبا بالحمى ـ وزالت أورامها ، وبدأت تتناول الطعام ، وأحست كأن وزن الطفل قد خف .

ودخلت « كاميل » ـ أخيرا ـ فى الاسبوعين الهادئين ، اللذين تهبهما الطبيعة للمرأة التى توشك أن تصبح أما ، وكأنها تسلحها بهما قبل دخول المعركة . وسمح لها «جوفر» بالخروج بصحبة « ماريا » ، فكانت تستند الى ذراع الفتاة، التى كانت ترمقها بنظرات الحب المشوب باحترام لأمومتها القريبة ، وقد اضطربت اضطراب الناسك أمام محرابه ..

ونشأت ـ بجامع من اخلاص ماريا وألم كاميل الممزوج بضعفها ـ صداقه خالصة بينهما ، راحت تنمو وتزداد حرارة بسبب الاعجاب الذى شعرت به كل منهما نحو الاخرى .. لم تحلم ماريا فى حياتها برؤية امرأة فى مثل ذلك الجمال والنبل ، ولم تجد أحق بالعبادة من سيدتها . بل انها كانت تكاد تبكى عندما تخاطبها كاميل فتقول : « تطلعى الى يا ماريا ، فأنا أحب عينيك ! »

وكانت تظن أن سيدتها تسخر منها ، اذ كانت تجهل مقدار جمالها ، ولم يسبق لشخص أن حدثها عنه .. كانت زهرة برية منزوية فى وحدتها ، ومع ذلك، فقد كانت غاية فى الجمال، وما كانت الملابس البسيطة التى ترتديها لتخفى حسن تكوينها .. كان جمالها من نوع آخر يختلف عن جمال كاميل ، وكان فى وسع المرء أن يقرأ فى عينى ذلك الوجه ـ الذى لوحته حرارة الشمس ـ الرغبة فى الحب والوفاء والاخلاص ، بشكل يبعث على التأثر . وكانت تفلت من العينين ـ أحيانا ـ نظرة تدل على عاطفة ورغبة مكبوتتين .

وهكذا شعرت كل من الشابتين بالحب نحـو الاخرى ، وهى تدرك أن تلك الاخرى تقاسى من ألم سببه لها الرجال، وساعد عليه ضعفها النسوى .. واكتشفت كاميل فى نفس ماريا عواطف وأحاسيس كانت تجهلها هذه الاخيرة نفسها . فقد قرأت الألم الذى احتملته هـذه الاخيرة بسبب عـدم زواجهـا ، وقرأت أملهـا الضعيف فى الحب والأمومة ، بل يأسها من أن يقدر لها أن تحظى بهما .. وقرأت « ماريا » علي وجه ابنة الدكتور جوفر مقدار ما كانت تعانى من ألم لمسته ـ هى نفسها ـ فى الرجفة التى كانت تنتاب السيده اذا حضر والدها الطبيب ، وفى الدموع التى كانت تنهمر من عينيها اذا ما انفردت بنفسها .. لاشك أن ألمها ناشىء عن افتراق عاصف عن الرجل الذى تحبه ، الرجل الذى كان يجب أن يبقى الى جانبها فى الليلة التى تتخلص فيها من حملها .. ليلة المخاض .. ومع ان « ماريا » لم تسـأل مولاتها عن شىء ، ولم تبـد أية رغبـة فى الاطلاع على مبعث همها ، الا ان كاميل كانت تشهد فى عينى الفتاة مدى تأثرها لأساها ، بل لقد هز قلبها ان الفتاة كانت تبكى الى جانبها فى بعض الأحيان . وما لبثت «ماريا» أن عرفت ـ بالتدريج ، وجزءا بعد جزء ـ تفاصيل ذلك الماضى المرير ، الذى قضت عليه كارثة !

ولم تبد الفتاة دهشة ولا استنكارا ، واخذ قلبها الجاهل يلتمس المعاذير لكل ضعف سببه الحب . وسمعت صـوتا فى اعماقها يقول : « لو كنت مـكانها لخضعت أنا الأخـرى للمؤثرات .. ولأخفيت الحقيقة مثلها ! » .. وأصبح السر ـ الذى افضت به كاميل اليها ـ رباطا جديداً بينهما ، فلم تعودا تفترقان ، وحصلت « كاميل » من والدها على اذن

« .. ووضعت لورنس اصبعها على فمها ، وتقدمتنى
الى غرفتها .. »

باعداد فراش آخر فى مخدعها لماريا ، الى جانب فراشها هى .. واذ تم ذلك ، بدأت تشعر أن الليالى أقل سوادا وحزنا .. لم تعد ترهب تلك الليالى التى كانت تستيقظ فيها ـ أحيانا ـ والرعب يملأ قلبها ، وهى تسمع هبوب الريح العاتية على المزرعة .. وكانت اذا شعرت بالخوف يتملكها ، نادت ماريا ، فتقفز الفتاة من فراشها ، وتسرع اليها .. وتتلمس كاميل بيديها ـ فى الظلام ـ ذراعى صديقتها ، وتجذبها اليها ، ثم تلصق خدها بخد الفلاحة وهى تقول لها : « أواه ياماريا !.. لاتتركينى، فاننى أتألم ! »

وتضمها « ماريا » اليها فى حنو ، وكأنها أم رؤوم ، وتروح تهمس فى أذنيها بكلمات ناعمة ، تواسيها وتسرى عنها .. وتهدأ أعصاب « كاميل » ومشاعرها ، فتستكين اليها ..

وتبقيان على تلك الحال الى أن يعود النوم الى كاميل . اذ ذاك فقط ، كانت ماريا تعود الى فراشها .. أما فى النهار، فكانتا تتحدثان عن الحبيب الغائب ، وهما تمزجان الدمع وتتبادلان الآمال .. وكانت ماريا لاتفتأ تقول : « اننى واثقة من أنه سيعود » .. فتقول كاميل : « أتعتقدين ذلك حقا ؟ .. آه ، ليت هذا صحيح ! »

ـ سيعود بكل تأكيد .. اذا كان قد أحبك حقا فى الماضى، فسوف يعود اليك !

وتقول كاميل ، وهى بين الرجاء واليأس : « ولكنه لايعرف مكانى » ، فتهتف بها ماريا : « يجب أن تكتبى اليه ! ».. تكتب له ؟!.. انها ماكانت لتجرؤ على الكتابة اليه، ولو قدر لها أن تعرف عنوانه . ولكن لهفتها على استعادة سعادتها بعد ان استردت صحتها ، والحاح ماريا فى تشجيعها، أوحيا

اليها بالتفكير فى « روبير كلاييس » . وتذكرت – فى ذلك الوقت – آخر كلمة وجهها اليها الدكتور روبير ، اذ قال : « تذكرى أننى رهن اشارتك فى أى مكان أكون فيه ! » ..

ولم تكن – فى الواقع – تحب روبير، اذ كان اسمه يقترن دائما بالذكرى المروعة لكل ما انتابها من مخاوف وآلام فى أول الأمر . ولكنها تغلبت على ترددها ، وكتبت بنفسها – ذات ليلة – خطابا لروبير ، من بضعة أسطر ، استحلفته فيه أن يذكر لويس بعزلتها الحالية ، ونوع الحياة التى حكم بها الدكتور جوفر عليها .. كما أخبرته بأن حملها قد بلغ منتهاه ، وانها تتمنى أن ترى زوجها قبل أن تصبح أما، لانها تعتقد أن الطفل قد يقيم بينهما حاجزا جديدا ..

وكتبت على الخطاب عنوان شارع (فريدلند) ، كما كان روبير قد أوصاها .. وتولت « ماريا » حمل الخطاب الى مكتب البريد فى القرية المجاورة ، عند ذهابها الى السوق ، فى يوم الاربعاء .

***

كان ذلك هو القرار الاول من نوعه ، الذى اتخذته « كاميل » منذ عزلتها ، وقد بعث الى قلب المرأة الصغيرة قبسا من الأمل ، أضاء حينا ثم خمد عندما مرت الأيام دون أن يصلها اى رد . وكانت ماريا تذهب الى قرية (كابتى) – كل أربعاء – وتعود فارغة اليدين ، حتى اعتقدت كاميل ان روبير لم يستلم خطابها، أو أنه قد نقض وعده ..

وكانت هذه الصدمة أقوى من أن تحتملها ، فانتهى الهدوء الذى كان قد خفف من ألمها، ولازمت فراشها بعد أن تبينت انها فجعت فى أملها الاخير ، ولم تعد تجد فى حب « ماريا » عزاء

أو سلوى .. وأسلمت قيادها لوالدها ، يحركها كأنها جماد، وقد استوى عندها الشفاء والموت !

لم تعد تدرى بالزمن ، وقد استكانت الى اليأس .. كأنما استحالت الى جماد ، لا يكاد يعى ماحوله .. ولكن وراء المظهر الجامد ، كانت ثمة حياة عاصفة ، محتدمة ، هوجاء .. كانت هواجسها تذكو وتستبد ، وقد انهارت أمامها كل مقاومة كان الأمل والرجاء يقيمانها .

وكان صوت الرعد يدوى فوق (ماو) ــ فى تلك الآونة ــ برغم ان الربيع كان قد انتصف ، فكان هزيمه يتكسر فى أرجاء الغابة ، ويرتد صداه واهنا ، فيخيل للسامع أنه انين يتصاعد من شخص يتألم . وكانت كاميل ترتعش خوفا كلماسمعت هذا الانين ، وتحتمى بفراشها ، فلا تعاودها السكينة الا عندما تبدأ الامطار فى السقوط .. وهكذا كانت تحرم من الراحة التى يجلبها الليل للمريض عادة .. وانتشرت الرطوبة فى المنطقة ، فبدأ البرد يؤلم كاميل حتى يوقف آهات الألم فى حنجرتها ..

وفى ذات ليلة ، وحوالى الساعة الثالثة صباحا ، فاجأتها آلام فظيعة لم تعهدها من قبل .. واستيقظت ماريا على صوت صرخة مدوية ، فأضاءت النور ، وأسرعت الى فراش سيدتها ، فرأتها أشد بياضا من الوسائد التى كانت تنام عليها ، وقد أغلقت عينيها على دموع منهمرة ، والعرق يتصبب من جبهتها .. وكانت نائمة ، فان من رحمة الطبيعة بالاجسام النسوية الضعيفة ، ذلك النوم الفجائى خلال هذا الظرف الدقيق .

وأسرعت « ماريا » فطرقت باب غرفة الدكتور جوفر ،

وطلبت معونته .. وفى طرفة عين ، كان الطبيب قد انتقل الى حجرة ابنته .

كان قد استعد للحدث منذ خمسة عشر يوما، وقد حسب حسابه ، وتأهب له تمام التأهب ، وأخذ ينتظره بفارغ الصبر ، ويتوقع أن يفاجأ به فى أى وقت .. وها هوذا قد حان ، فى نهاية الخمسة عشر يوما ، فاقترب من فراش « كاميل » وقد ارتدى ملابسه البيضاء .. وسألته ماريا فى استحياء : « هل يجب أن أخرج ؟ .. هل أستدعى لك والدتى ؟ » . وتردد جوفر قليلا، فقد أدرك ــ وكان محقا ــ أن وجود الفتاة كفيل بأن يبعث الثقة الى قلب المريضة . فقال لها فى تلطف : « بل ابقى يا ابنتى .. أعدى اللفائف للطفل ، ثم عودى الى ، وقفى بجانبى ! »

***

وبدأت المعركة المروعة ، وبدأت الآلام القاتلة .. واستبدت الاوجاع بكاميل ، فأخذت عضلاتها تتقلص ، وعيناها تطلبان الرحمة ، حتى رق قلب جوفر ، فلانت قسوته ، واضطرب فؤاده ، وظفت الرحمة على كل شعور آخر فى نفسه ، وهو يشهد تلك الاوجاع المبرحة ــ التى لا يمكن للرجل أن يتصورها ــ تنعكس على وجه المرأة المعذبة ..

ورأى الطبيب للمرة الثانية فى حياته ــ خلال هذا الحادث ــ مخلوقا هو أعز المخلوقات اليه ، يتشبث برحمته ، ويمد له ذراعيه ، ثم يتعلق بيديه وبملابسه وبكل مايصل اليه .. ومهما يكن قلب الأب قاسيا ، وكيفما تتطور ارادته ، فلا ريب انها تلين تحت تأثير هذه المظاهر .

ولقد تجلت هذه المظاهر فى أقسى صورها وأفعلها بالنفس، عندما اشتدت بكاميل آلام المخاض وأوجاعه ، وحين راحت تتلوى وتتعذب .. واستطاع منظرها المعذب أن يهفو بقلب الأب وأن يحركه فينفض عنه جمود الغضب .. وهكذا راح الدكتور جوفر – وهو جالس على مقربة من فراش كاميل – يستعرض كل ماقاسته المسكينة ، التى بدت أشبه ما تكون بالحيوان المقيد فى أغلاله ..

وللمرة الاولى ، تجلى للدكتور جوفر – فى وضوح تام – ضعف المرأة وقصر باعها فى معارك الغرام ، فالتمس لها العذر ، ووجد أنها تستحق الرثاء والشفقة !

عشيقة، زوجة ، أم..أى دور من هذه الادوار أدته إبنته بكامل ارادتها ، خلال تلك الظروف التى أحاطت بها وصدمتها ، ثم خلفتها حطاما ؟ ..

ألقى الرجل على نفسه هذا السؤال ، وخشى ان يكون ضميره قد خانه .. وكانت ماريا تركع الى جانب الفراش، وقد تركت يديها بين أصابع سيدتها المتقلصة ، وراحت تتطلع اليها من خلال عينيها المبللتين بالدموع .. وفكرجوفر وهو يشهد هذا المنظر ، فقال لنفسه : « ان هذه الفتاة لا تستمع لغير صوت غريزتها ، انها أسمى منى ! »

وفى هذه الاثناء ، كانت كاميل تئن أنينا عاليا ، فى فترات مختلفة .. وكان الهواء قد سكن فى الغابة ، ولم يعد يسمع فيها غير صيحات طيور الليل ، واصوات أجنحة طيور أخرى كانت تحوم بالقرب من النافذة .. وانحنى جوفرعلى ابنته ، اذ أطلقت صرخة كانت أعلى من كل ما سبقها ،

وأنشبت أظافرها فى يد ماريا .. وفى خلال تلك الصرخة المدوية ، كانت الطبيعة قد انتهت من مهمتها !

***

كان الصباح قد صار ضحى ، عندما أفاقت المرأة بعد أن وضعت جنينها ، وبعد ان استمتعت بالراحة التى تلى الالم . وكانت ستائر الحجرة تحجب ضوء الشمس ، وأشجار الصنوبر تتمايل – فى الخارج – والعصافير تغرد على افنانها ، بينما كانت أصوات المضخات تسمع من بعيد ، وهى ترفع المياه لرى الحقول .. أما الغرفة ، فقد كان يسودها السكون التام .

استيقظت كاميل فوجدت نفسها على الفراش الحديدى الذى كانت تنام عليه ماريا عادة . أما فراشها هى فكان فارغا وقد أزيحت عنه الأغطية كلها .. وكانت ماريا تحيك بعض الملابس ، وهى تجلس على مقربة منها . وما لبثت ان قامت واتجهت اليها حين سمعتها تتساءل : « أين هو ؟ » ..

وأدركت انها تعنى ذلك المخلوق الذى لفظته من أحشائها .. فأسرعت الى غرفة الدكتور جوفر ، ثم عادت مسرعة وهى تحمل لفافة من الأقمشة البيضاء ، أودعتها يدى كاميل الممتدتين ..

ومن بين أطواء اللفافة ، برز رأس صغير ، أحمر اللون ، خال من الشعر .. وخرجت من اللفافة – كذلك – يدان صغيرتان ، كأن أصابعهما قد تماسكت بعضها ببعض ..

وحملته كاميل برهة ، وهى جالسة على فراشها .. أهذا

هو ابنها ؟.. انه أشبه بالحيوان .. بل أشبه بالجماد عديم الحس والحركه ، قابل للكسر .. انه ابنها ، وابن جياكوميتى ! ..

ونظرت اليه باهتمام وتوجس .. اهتمام بعثه الفضول ــ من ناحية ــ والشعور الغريزى ، الكامن فى نفس الانثى ــ من ناحية أخرى .. وتوجس أثارته الذكريات التى حفت بخلق هذا الوليد ، فقد خشيت أن تلمح فيه شبيها بأبيه ! .. ولكنها رأت تلك الجبهة المنبسطة الشبيهة بجباه الحمقى، والعينين المغلقتين فى عناد كأنهما تخافان النور أو تكرهانه ، وذلك الأنف الأفطس ، والفم المضطرب المرتجف .. كل ذلك لم يكن يذكرها بمخلوق معين .. أو بجياكوميتى ، بمعنى أدق !

وفجأة احمر وجه تلك القطعة من اللحم ، وصدرت منها صيحة تشبه مواء القط .. انها شكوى مخلوق يتألم فى الظلام ، دون أن يكون ألمه صادرا عن احساس أو تفكير ! .. ووصلت تلك الصيحة ــ فى الحال ــ الى أعماق قلب المرأة الصغيرة ، فأسندت راسها الى راس الطفل ، وبكت طويلا حزنا على نفسها وعليه .. لكم أثار أساها مولده التعس، وتلك الظروف التى ألقت مخلوقا صغيرا الى خضم الحياة ، وقضت عليه بأن يعيش زمنا ــ قد يمتد سنوات ــ قبل أن يصل الى راحة الموت !

وعند ما رفعت رأسها وجدت والدها الدكتور جوفر على مقربة من فراشها ، يسألها برقة : « كيف حالك ؟ » .. فابتسمت ابتسامة شاحبة ، وقالت : « بخير . وما حال هذا الصغير ؟.. ولماذا لا يفتح عينيه ؟ » . فقال الطبيب :

« لن يلبث أن يفتحهما .. اطمئنى ، فهو مكتمل الصحة ، وان كان صفير الحجم ، خفيف الوزن ! » .. وعادت كاميل تسأله : « أشعر بألم فى صدرى ، فهل هذا دليل على وجود لبن الرضاعة ؟ » . وهز الدكتور جوفر رأسه قائلا : « انه انبثاق اللبن ، ولكن حذار أن ترضعى الطفل الآن ، لاسيما وأنت ضعيفة .. سأذهب لأسجل مولده ، ولأبحث عن مرضع له ! »

وظلت كاميل ـ طيلة النهار ـ تستقبل سكان المزرعة ، الذين حضروا لتهنئتها .. وكانوا يتأملون الطفل النائم بجانب والدته ، كأنهم يبحثون عن معالم شبه بوالده . بل لقد جرؤ بعضهم على أن يتساءل : « أترينه يشبه والده ؟ » .. وتساءل آخرون : « أين والده ؟.. لماذا تغيب ؟ » . فكانت ماريا تجيب : « ان أعمالا هامة اضطرته للسفر الى الشمال » .. واذ ذاك ، كان القوم يغمغمون : « ياللوالد المسكين !.. لاشك انه يكاد يجن الآن شوقا لرؤيته ! »

وكانت « كاميل » تسمع كل هذه الاحاديث وهى نصف نائمة ، تفكر فى والد الطفل .. والده الحقيقى الذى مات فى الصين ، ولا شك أن جثته قد ألقيت فى خندق مهجور يحيط به نبات الغاب وشجيرات الذرة !

(٥)

يصل الرجل ـ بواسطة الحب ـ الى ذروة شخصيته . ولكن المرأة لاتصل الى هـذه المرتبة الا فى مرحلة الأمومة ، حيث يطرأ التغير العظيم على جسمها ، فيتطور عقلها تبعا لذلك أيضا ، حتى ليمكن القول ان قوى جديدة تنبعث منه

.. وقد شعرت « كاميل » بذلك عندما تم شفاؤها ، وعادت اليها القدرة على استطلاع دخيلة نفسها ..

ذلك لأن « كاميل » شعرت بعواطف جديدة لم يسبق لها ان أحست بمثلها .. وكان أعظم ماشعرت به من سرور ، هو سرورها بسلامتها .. والآن ، بعد ان ولد الطفل ، وشربت الكأس حتى ثمالتها ، هاهى ذى الثمالة تبدو لها أقل مرارة مما كانت تظن فى بادىء الامر !

كذلك تبينت « كاميل » ـ فى شخصيتها الجديدة ـ نمو عاطفة أخرى ، هى الشعور بالمسئولية وحب الحياة ، فان غريزة الامومة طردت ذلك الاضطراب الذى كانت تشعر به قبلا ، فأصبحت تؤمن بأن من واجبها أن تعيش من أجل الطفل ، لكى تحمى تلك الروح الضعيفة ، وتذود عنها مهما يكلفها ذلك .. ولو اضطرت الى أن تقاتل والدها نفسه ! ..

وهكذا خطر ببالها ـ لأول مرة ـ الفرار من هذا السجن الذى قادها اليه والدها .. بل انها تجرأت يوما ، فسألته : « الى متى سنظل هنا ؟ » .. وكان جواب الطبيب : « الى نهاية حياتى ! »

الى نهاية حياته ؟! .. ياللهول ! .. ومن الذى يملك أن يحدد مدى هذه الحياة ؟ .. ثم ، لماذا يفرض عليها هذا السجن ، ويحدده بعمره هو ؟ .. انها لو بقيت فلن تستطيع أن تستمر فى الحياة، بل انها قد تموت قبل « نهاية حياته » هذه .. وما ذنب هذا الوليد المسكين ؟

عند ذلك فكرت جديا فى الهرب .. وكان تفكيرها أشبه بتفكير الأطفال ، لأنها لم تكن تعرف شيئا عن الحياة الحقة ،

ولكن ماريا شجعتها ، وأبدت استعدادها لأن تتبعها الى أى مكان ، فقد كانت ممتلئة بالاخلاص الذى يعمر كل روح بسيطة ساذجة .. بيد انهما سرعان ما ادركتا صعوبة تحقيق هذا الحلم .

كان عليهما أن تسيرا على أقدامهما نهارا كاملا ، للوصول الى أقرب القرى : (كابتى) أو (كاستل جالوا) ،حيث تستطيعان العثور على عربة . وما كان فى طوق « كاميل » — وهى لاتزال فى دور النقاهة — أن تسير تلك المسافة الطويلة. وفوق ذلك ، كيف ينقل الطفل هذه المسافة ؟ .. ومن يقوم باطعامه أثناء الطريق ؟ ..

وكانت « ماريا » أشد سخطا على الظروف من « كاميل » نفسها ، فراحت تتحسر على انها كانت فتاةعذراء وليست أما يحتمل أن تكون انجبت فترضع الطفل من ثدييها ، كما شعرت كاميل بالاسف لانها وكلت تغذية طفلها الى مرضع ، فلم يعد اللبن يجرى فى ثدييها .. وهكذا ظهر لهما عجزهما عن تنفيذ خطة الهرب من جميع الوجوه .. لم تكونا تملكان ان تفعلا شيئا دون مساعدة خارجية، فمن أين تجىء هذه المعونة ؟.. من لويس ؟!.. انهما لاتعرفان مقره ، وهل هو حى يرزق ؟ .. من روبير كلاييس ؟ ! .. ولكنه نسى وعده ، فلم يرد — ولو بالرفض — على تلك الصيحة اليائسة التى وجهتها اليه المرأة قبل ان تصير أما ..

ولكنها — مع ذلك — كتبت الى روبير خطابا ثانيا ، تحت الحاح ماريا .. ومرت الايام ، وهما تترقبان الرد . ولكن الانتظار انتهى بانهيار أمل كاميل .. ولما فقدت كل رجاء فى استلام الرد ، تسرب اليأس الى النفس البائسة ! .. لاريب

انهم كانوا يعملون على القضاء عليها ، وقد اتحد جميع الرجال ضد ضعفها ..

ولم تعد ترى أية جدوى للانسياق للآمال والاحلام ، وانتهت الى أن آثرت الكف عن النضال ، وقد امتلات نفسها بالحقد الصامت ، واعتزلت فى ألم لم يعد عزاء ماريا يخفف منه ..

وعادت ــ مرة أخرى ــ الى ذلك القنوط الذى كان قد أستبد بها قبيل الوضع .. ونضبت من نفسها كل رغبة فى المقاومة أو التمرد ، و .. ارتضت لنفسها استسلام العاجز، المقهور ، المغلوب على أمره ..

وتصادف فى تلك الاثناء ، ان اشتد المرض بوليدها ، وازداد هزالا ولاحظت المسكينة ذبولا فى عينيه ، فأدركت أن أيامه قد أصبحت معدودة ، وتمنت ــ صادقة ــ لو امكنها ان تتبعه الى الموت ، محرز اولئك الذين يتعذبون فى الحياة !

***

ترى هل لاحظ جوفر تطور هذه الثورة التى شبت فى نفس ابنته ؟ .. ربما ، ولكن من المؤكد انه لم يهتم بها ، ولم يقم لها وزنا . فان وضع ابنته لم يؤثر فى نفسه الا فترة معينة من الزمن ، وما لبث أن استعاد شعوره بعد مدة قصيرة ، وأخذ يختبر ضميره ــ بعد أن عاد اليه جلده العادى ــ فشهد لنفسه قائلا : « لقد أديت واجبى ! »

كانت كاميل ــ ولا شك ــ مذنبة آثمة بدون قصد ، ولكن أية رحمة انسانية يمكن أن تمحو الماضى ؟.. وما دام زوجها « لويس » لم يقم بأية خطوة فى سبيل الانفصال أو الطلاق ، فقد كان على والدها أن يقوم بدوره ، ويحافظ على وعده ،

فيعتزل وابنته الحياة ! .. وليس من ريب فى أن من العسير على امرأة – فى سن العشرين – ان تحتمل الحياة فى منفى كهـذا .. وقال الطبيب فى نفسـه : « وأنا ؟ ! .. ألست أشاطرها الحياة فى هذا المنفى ، فى حين أننى لم ارتكب ذنبا يتطلب ان أكفر عنه ؟ ! »

واقتنع بهذا الرأى، حتى انتهى به الأمر الى اعتبار الوضع الراهن بمثابة ترتيب نهائى لا يمكن أن يتغير .. وكان – منذ شبابه – يعتبر السعادة أمرا استثنائيا ، كما يعتبر الألم قانونا عاما . ولم يحدث له قط ان ثار على تقلبات الايام، بل انه اعتاد أن يكيف نفسه دائما طبقا للظروف .. حتى تلك البقعة الموحشة من الريف ، التى يسـودها الصـمت والوحدة والبرودة ، بدت له بقعة مناسبة ، يستطيع رجل مثله – اكتفى من الحياة وأخذ ينتظر الموت – أن يقضى بها الايام الاخيرة ، فلم يضره أن يقضى اعوامه الاخيرة بصحبة الفلاحين ، بعد أن قضى شبابه ورجولته فى المدن ..

ثم .. أليس فى هـذا الريف سـتار يبعـده وابنته عن مجتمعات المدن ، ويصون – بالتالى – سرها المشين ؟ .. ان المدن أشبه ببؤر تبيض فيها الشائعات وتفرخ ، ولو بالباطل .. فكيف ، وعار ابنته حقيقة واقعة ؟ !

وهكذا أخذ يستعد للحياة بين هؤلاء الرجال الذين يعيشون على الفطرة – وهو الرجل الذى خبر مراحل الفكر بأجمعها – وقرر أن يدمج حياته فى حياتهم ، بعد أن اطمأن الى بساطتهم وسكونهم .. كانوا لا يسرفون فى الحديث ، وكانوا يعيشون وهم يفكرون فى أنفسهم ، ولا يأسون على شىء لا سـبيل الى تجنب وقوعه ، ولا يهتمون بغير السماء والارض ..

ولا يتلصصون أسرار سواهم ، أو يدسون أنوفهم فى حياة غيرهم ، لاسيما اذا كان هذا الغير يجمع بين ميزتين : انه أرفع منهم مقاما ، فهو جدير باحترامهم .. وانه طيب ، عطوف ، فهو جدير بحبهم .. وكانوا قليلى المعرفة بشئون الحياة ، أو الموت ، ولكن نقص معرفتهم كان يبعث فى نفوسهم سلاما وسكينة !

وكان جوفر شديد الاعجاب بالفلاح « بولاو » ، المزارع الذى كان يتكفل بشئون الضيعة ، والذى اعتاد ان يقضى ساعات كاملة وهو جالس فى مقعد أمام منزله ، وغليونه بين شفتيه ، وقد تعلق بصره بأعالى أشجار الصنوبر ، وامتنع عن كل حركة كالمتصوف المتعبد .. وقد اعتاد الطبيب - بدوره - ان يجلس الى جانبه ، يحاول أن يستطلع روحه التى لم تتسرب اليها الآراء والافكار المكتوبة لتزيد من قلقها أو شكوكها ..

وكان يستغرق فى أفكاره الفلسفية أحيانا - كما كان يفعل فى أيام شبابه - ويسأل نفسه : ترى الا يكون ذلك الرجل الساذج قد وصل الى أعلى درجة من السعادة ؟ !

***

وفى ذات صباح ، جلس الاثنان - وغليون « بولاو » فى فمه ، بينما كان جوفر يدخن سيجارا - فما لبث الفلاح أن مد يده مشيرا الى الطريق المؤدى للقرية ، وقال للطبيب : « انظر ! » .. وتطلع الطبيب الى البقعة التى أشار اليها الشيخ ، فرأى نقطة سوداء على بعد شاسع ، خيل اليه انها ثابتة لا تتحرك : « ما هذا ؟ » .. وهز « بولاو » رأسه وقال : « لم أعد أرى جيدا .. ولكن ابنى يستطيع أن يقول

لك! » . ونادى ابنه ، فأطال الشـاب النظر بضع لحظات ، وقال : « هذه عربة آل فاجيه » .

وكان قد ميزها بنظره الحاد وهى عند حافة الافق .. ولم يلبث جوفر ان ترك مقعده ، ورمى سيجاره ، فقد شعر بأن القادمين فى طريقهم الى (ماو) ـ اذ كان الطريق لايؤدى الى غيرها ـ وانهم لابد قدموا لازعاجه فى عزلته بالبقعة التى اختارها ، والتى أعجبه فيها ما كان يظنه من أن النـاس لا يعرفون مكانها .. وقال لبولاو : « اذا طلب القـادمون مقابلتى ، فستجدنى فى غرفة الاستقبال منتظرا ! » ..

وسار بخطى واسعةنحو المنزل .. وهناك ، راحيذرعغرفة الاستقبال ـ زهاء ربع ساعة ـ وقـد وضـع يديه خلف ظهره ، وازيز أرجوحة الطفل يتسرب اليه خلال سـقف الحجرة ، من الطابق الاعلى .

وسمع صوت العربة وهى تقف أمام الباب أخيرا .. ثم وقع أقدام تصعد السـلم ، فقال فى نفسه : « يظهر انهم كثيرو العدد ! » . وعند ما سمع طرقات على باب الغرفة ، تأهب لملاقاتهم .. وما أن فتح البـاب ، حتى لمح « روبير كلاييس » بجسمه الكبير ، فلم يدهش لرؤيتـه ، لانه كان يتوقع ان يراه ..

ولكنه لم يتمكن من أن يكتم صيحة استغراب ، عند ما رأى خلفه « لويس لوت » ، وقد هزل جسـمه ، وشحب وجهه ، ودب المشيب فى شعره .

كان الموقفدقيقا جدا، وكان اللقاء ينذر بنتائج خطيرةحتى ان الرجال الثلاثة ظلوا لحظات فى صمت وسـكون ، وقد راح كل منهم يتمعن فى وجـه الآخر . وتوقع كل من جوفر

وزوج ابنته ان يكون بينهما حديث عاصف ، لا سيما وقد دبت بينهما قطيعة تامة ، منذ أنفصل الزوجان ..

***

وكان « روبير » هو الذى فتح باب الحديث ، اذ قال : « أرجو أن تسامحنا يا دكتور اذ أزعجناك فى عزلتك .. فأنت تدرك بلا شك ما دفعنا الى ذلك » . وهز جوفر رأسه قائلا : « لا ، لست أدرك شيئا .. ولو أراد لويس مقابلتى لكان فى امكانه أن يطلب ذلك فى أى مكان آخر غير هذا المكان، فانه ــ يعرف طريق الاتصال بى .. لقد كنت على استعداد للذهاب لمقابلته فى أى مكان ، عند أول دعوة تصلنى منه .. لقد وعدته بذلك . أليست هذه هى الحقيقة يا لويس ؟ » ..

وحاول الشاب أن يجيب ، الا أن اضطرابه كان يبدد قواه ، فوضع يده على جبهته ، وقال : « بلى .. أذكر هذا »

ولم يكن « لويس » يفكر الا فى شىء واحد ، هو ان كاميل هنا ، فى هذا المنزل ، وقد تلج الحجرة فى تلك الاثناء .. وكانت حركة الارجوحة قد سكتت فى الدور الاعلى ..

وقال الطبيب جوفر، موجها الحديث الى روبير : « لابد ــ اذن ــ أن شخصا قد أثر على لويس، فاضطره الى التصرف بهذا الشكل .. فان كنت أنت هذا الشخص ، فدعنى أصارحك بأن هناك مسائل عائلية خاصة لا يجوز أن يتدخل فيها غريب .. فما الذى اتى بك الى منزلى ؟ » ..

وتمتم لويس قائلا : «أبت !» .. وهز روبير كتفيه ، وقال مشيرا الى صديقه : « انظر اليه واخبرنى : أكان فى وسعه أن يأتى الى هنا وحده ؟ .. وبعد فما قيمة ذلك ؟ .. لنفترض

إننى اخطأت فى الحضور معه الى هنا ، اذ ليس لى ما أطالبك به ، أما هو فأظن ان له هنا بعض الحقوق .. والواقع ـ بايجاز ـ انه حضر ليستعيد زوجته ! .. والموقف دقيق كما ترى » .

ونظر جوفر الى زوج ابنته برهة طويلة ثم سأله : « هل هذا حقيقى ؟ » . وهنا رفع لويس رأسه قائلا : « نعم حقيقى ! » ..

واذ ذاك اقترب الطبيب من المقعد الذى جلس فيه الشاب المسكين ، واسند يده الى ذراع المقعد ، ثم انحنى عليه طويلا كأنه يفحص مريضاً ، وقال : « لا يالويس، ليست هذه الحقيقة .. قل لى أن هذا غير حقيقى ! .. لو كنت قد فكرت ـ حقا ـ فى ارتكاب هذا التصرف ، الذى ينطوى على الجبن والنذالة ، فقل لى الآن انك تشعر باشمئزاز منه ، وانك ستخرج من هنا دون أن ترى المرأة التى دنست شرفك ! .. اتركها لى يا بنى ، فها أنتذا ترى اننى قد اعتزلت بها العالم ، ولم نعد من الاحياء ! .. اتركنا فى الحال والا فستقضى على كل ما اكنه لك من تقدير ! »

وثبت لويس لوت عينيه على والد زوجته ، وقد فاضتا بضراعة ورجاء ، وقال : « ابت ! .. لا تضاعف همومى ! .. لقد ناضلت بكل قوة حقا ، ولكنى احبها كثيرا كما ترى .. ويجب أن اغفر لها ! »

وضغط الدكتور جوفر على يدى الشاب المحمومتين ، وامتلأ صدره بحب ذلك الروح السامى ، وتمتم قائلا : « تذكر يا ولدى العزيز ، ذلك اليوم الرهيب الذى اكتشفنا فيه عارنا .. فى ذلك اليوم رأيتك كما يجب أن تكون:

رجلا شجاعا، يعرف كيف يبتر العضو الذى امتد اليه المرض من جسمه ! .. كانت قوة ارادتك هى التى أملت على واجبى، فقد أبعدت «كاميل» عن قلبى ، فانتزعتها منه بعد أن رأيتك تخرجها من قلبك .. صدقنى أن مثل هذه القرارات الحاسمة ليست مما يمكن الرجوع عنه .. نعم ، أننى أعرف جيدا أنك تتألم ، وخير للمرء أن يتألم من أن يكون جبانا .. ليس هناك ألم اكبر من أن يرى المرء نفسه وقد ضاعت قيمته ، بعد أن فقد ارادته ! »

***

وطأطأ لويس رأسه وقال : « وأين هى ؟ .. اريد أن اراها » .. وهنا صاح جوفر ، وهو يترك يد زوج ابنته : « يا للجبن .. يا للخسة !.. انه لم يعد يصغى الى حديثى!» .. ثم استطرد قائلا ، وهو يلتفت الى روبير : « هل أنت الذى دبرت هذا ؟ .. لو كانت نصائحك هى التى دفعت به الى هذا الانحلال ، فأنا أهنئك على جدك ونشاطك فى تقويض قيم الاخلاق ! »

وأجابه روبير ببرود : « أؤكد لك يا سيدى ، انه لولا أن حياة هذا الرجل ـ الذى أحبه أكثر من أى شخص آخر ـ فى خطر ، لقدرت ما تقول وأصغيت باهتمام الى أفكارك .. انك انموذج عجيب للفلاسفة ، وأنت تتحدث كما لو كنت كاهنا .. انك تطالب لويس بانفصال الا يلزمه به أى دين من الأديان ، بل أنك تكاد تنزل عليه لعنة وحرمانا لأنه يقاوم رغبتك ، وكأنى بك قد نسيت أنك أنت الرجل الوحيد الذى لا يحق له ان يعارضه ! »

وقف لويس ، وهو يتتبع كلمات صديقه باهتمام وتحمس

عجيبين .. واستغرب جوفر ما كان يسمع فقال : « أنا ؟ ! لا يحق لى ؟ ! .. اننى لا أفهم ما تقول ! » .. فأجاب روبير : « وهذا ما أستغربه حقا .. فكر يا سيدى واذكر الماضى ، وابحث قليلا فى عوامل هذه الازمة ، ثم تكرم فقل لى : من هو المسئول ؟ »

وكرر جوفر سؤاله قائلا : « المسئول ؟ المسئول !.. اننا نعرفه جميعا ، وقد صار من المستحيل انزال العقاب به ، لانه قد مات فماذا تريد بقولك هذا ؟ » . فصاح روبير بقسوة : « كلا ، انه لم يمت .. المسئول الأول موجود هنا ، فى هذه الغرفة .. وهو بنفسه الذى يريد أن تمتد آثار الشر الذى سببه ! .. أن المسئول هو أنت ! »

وحاول جوفر أن يحتج ، ولكن روبير أمسك بذراعه قائلا : « اننى أكرر أنك المذنب .. واذا كنت منصفا ــ كما أعهدك ــ فستوافقنى على رأيى . كانت لك ابنة ، وقد ألقت الظروف والمقادير عليك وحدك كل المسئوليات المتعلقة بها ، فهل أشرفت على تربيتها كما كان ينبغى على أى شخص آخر فى مركزك ، ولو كان أقل منك حكمة ؟ .. انك لم تفعل ذلك . ولا أعرف حقيقة ما يجول بفكرك عن ضعف المرأة وضعف ارادتها ، ولكنى أعرف أن الفكرة التى استولت عليك ، حملتك على أن تدع أبنتك تنشأ طبقا للظروف والاهواء ، واكتفيت بالعناية بجسمها ، وكأنى بك قد جثوت على ركبتك اعجابا بفن الطبيعة ، حين بلغت ابنتك سن الرشد ! .. ولم تهتم كثيرا بنمو النصف الآخر المقابل لهذا الجانب .. ولست اخترع شيئا ، بل اننى أذكر الحقيقة ، أليس كذلك ؟

« لقد اعترفت بأنك لم تتح لابنتك علما يكفى لحمايتها ، ثم لم تحفل ــ مع ذلك ــ باشراف عليها ، وفرض

رقابة دقيقة عليها .. بل انك عرضتها – فى أول الامر – لاغراء شاب تقدم بطلب يدها للزواج . وكان شابا غريب الاطوار، ولكنه احترمها بدافع من حماقته أو جبنه..ثم اقبل رجل آخر كان أقل حماقة، أو أقل تهيبا من الأول ، فاستأثر بها على مرأى منك تقريبا .. ومع ذلك فانت لم تفطن الى شىء ! .. ثم زوجتها – بعد ذلك – وانت طبيب ، والجنين فى احشائها ! »

فقاطعه جوفر مضطربا : « ولكنى لم أكن أعرف ذلك » . فقال روبير : « ولهذا الومك ! .. لقد كنت تجهل كل شىء يتعلق بعواطف ابنتك ، اذ لم تكن عواطفها تستحق الاهتمام فى نظرك . ومهما يكن رأيك ، فان واجبك كان يدعوك الى الاهتمام بها » . وسكت روبير ، فلم يجب جوفر ، وأحنى رأسه واخذ ينظر الى الأرض ، ثم تقهقر بضع خطوات ، وجلس فى أول مقعد صادفه .. وساد الغرفة صمت طويل، اتكأ لويس – أثناءه – الى ذراع روبير ، وأخذا ينظران الى ذلك الكهل ، الذى بدا رازحا تحت وطأة الموقف .

***

وشعر لويس بالتأثر ، وأراد أن يقترب منه ، ولكن جوفر استوقفه باشارة من يده ، ثم اتجه الى روبير وهو يقول : « انك رجل أمين يا سيدى ، وانى لأشكرك على كلماتك ، وأحفظ لك هذه المنة . أترانى أنا المخطىء ؟ .. وهل أنا السبب فى كل ما وقع من اثم ؟ .. ان هـذه الفكرة تؤلمنى بقسوة كما ترى ، ولكن .. »

وأمسك الطبيب الشيخ لحظة عن الكلام ، وقد تتابعت انفاسه فى عنف ، واشتد به التأثر .. ولكنه استأنف الكلام

بعد لحظة ، وقد استمد من ايمانه بمسلكه قوة ، فقال : « اذا كان الخطأ الذى ارتكبته يحرمنى من تقرير أى شىء يتعلق بالمستقبل ، فدعنى على الاقل أدافع عن قضية الحقيقة والكرامة .. وايا كان الشخص المذنب المسئول ، فالاثم قائم على كل حال ، ولم يتزوج لويس الا بامرأة مدنسة ، وقد أصبحت هذه المرأة أما .. فهل تظن ــ وأنا أوجه هذا السؤال الى عقلك وقلبك ــ هل تظن ان من الممكن ازالة نقطة سوداء كهذه ، مهما يتغاضى عنها الانسان ؟ .. تكلم أنت ، فأنت ــ على الاقل ــ لست صاحب مصلحة ، ولا أنت متورط فى الامر ! »

وأجاب روبير بصوت يتجلى فيه العزم الصدق : « أقسم بالشرف أن للويس أن يغفر لزوجته ، دون أن يكون فى هذا أى نوع من الخسة أو التردى .. اننى اؤمن بذلك ، لأن الدنس لم يصل الى روح زوجته ، ولم ينل الا جسمها . وأنت تعرف أن دنس الجسم يمكن محوه ، أما الدنس الذى لا يمكن محوه البتة ، فهو دنس الروح .. وبعد ، فاننى أسألك عن هذه الفتاة التى دنس جسدها بالقوة ، هل مر بخاطرها ــ فى أى يوم من الايام ــ أى فكر شرير ؟ .. لقد أودعت ثقتها رجلا شقيا خانها . وقد أخفت نبأ تلك الفاجعة ــ التى راحت ضحيتها ــ عن لويس ، بدافع من حبها ، لانها كانت تجهل الحقيقة فى ذلك الوقت » ..

وأخذ الطبيب الشاب يلهث وكأنه كان يجرى .. وسكت لحظة ، ريثما تمالك انفاسه ، ثم استطرد : « والآن ــ ونحن أدرى بقواعد الطب ــ فاننا نعرف بلا شك أن الجسد المدنس قد تغير وتطور ، وانه لم يعد يحوى ــ بكل تأكيد ــ أى أثر

من آثار العشيق . أما الروح ، فقد بقى على حاله حقا . وانت يا عزيزى لويس : ان ذلك الروح كله ملك لك، لاينازعك فيه أحد ، وهو نفس الروح الذى كنت تلمسه فى زوجتك فى صغرها ، وفى براءتها .. وهذا هو السبب الذى يدفعنى لأن أقول لك الآن : عد الى زوجتك ، وردها اليك ! »

امتلأت عينا لويس بالدموع ، فارتمى على كتف صديقه وهو يصيح : « آه يا روبير ، كم أحبك ! .. كم أنت طيب القلب ، متمسك بأهداب الحق ! .. كأنى بك ضميرى وفكرى ! .. »

ثم التفت الى الطبيب جوفر ، وقال : « هل لك أن ترد الى ابنتك يا ابت ؟ »

فأجابه جوفر : « خذها ! خذها اذا كنت قد صفحت عنها ! » .. وكان يردد فى نفسه : « أين الواجب ؟ .. أين الحق ؟ .. أين الحقيقة ؟ »

***

وفى تلك اللحظة ، فتح الباب بخفة ، كأن التى دفعته يد طفلة صغيرة .. وعرف لويس فى الحال من القادم ، فاختنق صوته وهو يهتف بهذا الاسم : « كاميل ! »

وكانت هى ! .. وتقدمت مضطربة خائفة ، ثم ارتمت على صدر زوجها ، وهى تقول : « لقد سمعت كل شىء .. كنت وراء الباب . أواه ! .. هل لك أن تسامحنى ! .. خذنى ، فقد تعذبت كثيرا ! »

وقبل لويس ذلك الوجه الذى كان يحتمى به، فأخذ روبير كلاييس بيد الدكتورجوفر، وخرجا من الغرفة، وهو يقول له: « فلنتركهما وحدهما ! »

وظل الزوجان متعانقين مدة طويلة ، بعد خروج الطبيبين .. ورفع لويس رأس كاميل، وأخذ يتفرس فى وجهها ، ويملأ عينيه بجمالها الذى حرم منه منذ شهور .. كانت لا تزال جميلة ، بل لا سبيل الى وصف جمالها ، وخاصة بعد أن وضحت ملامح الحزن المرتسم على وجهها .. وقرأ فى عينيها ـ الى جانب الاغتباط العظيم ـ ما ينبىء ببعض القلق، كأنها كانت تخشى ألا يكون كل ما حدث حقيقيا ، أو أن لا يستمر اذا كان حقيقة !

ووضع شفتيه على الفم الشاحب ، وما لبثا أن أخذ كل منهما يضم الآخر اليه ، بتلك الحمى التى كانت تنتابهما فى الماضى، كان تيارا كهربائيا قد سرى فى جسمهما !.. ياللسكرة الهائلة !.. لقد بعثت القبلة متعة عظيمة فى نفسيهما ، فأخذا يشربان تلك الكأس المترعة ، التى تساعدهما على نسيان كل الماضى المؤلم ، وهما يتعجلان البداية الجديدة للمستقبل، وينظران فى ثقة الى السعادة التى ستقدمها لهما الايام القادمة .

***

وبعد أن تم اللقاء ، شرعا يتساءلان : كيف أمكنهما أن يفترقا طول تلك المدة الماضية ، وما هى الأسباب ، أيا كان نوعها ، التى منعتهما من الاتصال ؟ .. لا ، لم يكن هناك سبب يدعو الى ذلك ، منذ الدقيقة التى تعانقا فيها .. ان أيديهما المتشابكة كانت تتحدى الحياة ، وليفن كل شىء حولهما ، على أن يبقيا معا .. دون فراق !

الا أن كاميل لم تلبث أن تخلصت من احضان لويس، وبدا التفكير على وجهها ، ثم تحول الي صورة من الالم . فقد

سمع من الدور الاعلى بكاء يشبه الأنين المنتظم . وسألها لويس : « ماذا بك ؟ .. هل من اوجاع ؟ » . فهزت رأسها اشارة النفى ، ثم أخذت بيد زوجها ، وقالت : « تعال ! »

وقادته الى السلم ، فحاول أن يستبقيها ، ولكنها قادته الى حجرة بالدور الاعلى ، فوقعت عيناه - فى الحال - على ارجوحة بيضاء الستائر .. وكانت هناك فتاة تهز الارجوحة هزا منتظما ، فما ان رأتهما مقبلين ، حتى انسحبت من الغرفة .. وكانت كاميل لا تزال ممسكة بيد زوجها فقادته الى الارجوحة .

وازاحت ستائرها ، دون أن تنطق بكلمة ، فظهر وجه طفل على الوسادة . وكان مغبر اللون ، وقد امتدت يداه الى خارج الاغطية ، وبدت حركاته بطيئة ، لاتشبه حركات الاطفال الآخرين . وكان ذا عينين سوداوين ، واسعتين ، تنبعث منهما نظرة خاصة ، لا تماثل نظرات الاطفال الذين فى سنه .

واستقرت العينان الصغيرتان على وجه لويس فى تشبث غريب ، وهما تعبران عن الالم المستمر ، الذى يشعر به مخلوق لا يعرف لماذا يقاسى ويتألم ، ويرجو الخلاص من عذابه بين لحظة وأخرى . وكان فمه يفتح بانتظام ، ليفرز اللعاب .. وادارت كاميل رأسها ، فاذا لويس واجم ، وقد وقف الى جانب ذلك الفراش الذى كان صاحبه يستحق الرثاء ..

وفى لحظة قصيرة ، هاجمته أفكار متعددة ، واندفعت الى قلبه خواطر لاحصر لها .. شعر بخطورة الحب ، تلك الخطورة التى تبعث الى الحياة بتلك المخلوقات الصغيرة معدومة الشعور .. وأدرك حق هذه المخلوقات فى ارتقاب الرأفة من كل انسان .. وتبين فى الأمومة - مهما يكن مصدرها - ناحية

تستحق الاحترام ، ما دامت قد أضافت روحا جديدا الى الحياة .. وكاد قلبه يتقطع فى شهقة طويلة تعبر عن الشفقة .. ثم انحنى ، فطبع قبله على جبهة الطفل المحموم ، الذى رفع عينين تفيضان تعاسه وشقاء ، وقد أطل منهما الموت !

الخاتمة

فى نهاية الخريف التالى ، قضى روبير — وكان فى طريقه الى اسبانيا — بضعة أيام فى مدينة (تونيان) ، ثم اتجه الى مزرعة (ماو) . وكان جوفر يعيش هناك — فى وحدة تامة — بعد سفر ابنته ، وقد اصر بعناد غريب على أن يستمر فى الاقامة هناك ، تلازمه « أرما » .. اما « ماريا » ، فكانت قد هجرت مسقط رأسها ، لتتبع « كاميل » .. ولم يكن للطبيب الشيخ من زملاء هناك غير رجال المزرعة .

ولم يحدث أن ساد السكون فى تلك المنطقة — فى وقت من الاوقات — أكثر مما ساد فى تلك الايام التى قضاها جوفر هناك ..

وكانت زيارة روبير للدكتور جوفر محاولة أخيرة، أوحى بها لويس و كاميل ، بقصد اعادة الشيخ الى مدينة (تونيان) ، وقد حملا « روبير » خبرا هاما ، كانا يرجوان أن يقضى على كل معارضة من جانب « جوفر » . ذلك ان كاميل لم تكد تخلع ثياب الحداد على طفلها — الذى مات عقب عودتها الى زوجها بقليل — حتى حملت للمرة الثانية .

وصارح روبير صديقه الشيخ بهدف زيارته ، بعد أن تناول العشاء ، وجلسا يدخنان .. فبادر جوفر قائلا :

«أناشدك أن تدع هذا الموضوع جانبا ياصديقى.. لقد رسمت لحياتى خطتها ، وأقسمت ان اموت فى هذه البقعة .. ثم ، ما جدوى ذهابى للحياة معهما ! .. انك تقول انهما نسيا كل شىء ، أما أنا فاننى أجهل طريق النسيان ، ولذلك فاما أن اعكر عليهما صفو حياتهما ، أو أن أكذب على نفسى باستمرار .. اننى سأضايق نفسى كما ترى ، ولن أجد أن لويس هو لويس الذى عرفته فى الماضى.. ولن تكون «كاميل» - بالنسبة لى - هى « كاميل » الصغيرة التى ربيتها وأحببتها ! .. ماذا تريد بعد ذلك ؟ .. اننى لا أعرف ما تسمونه الخضوع للحياة ! »

وبهر الطبيب الشاب بحديث زميله الشيخ وحرارة لهجته، وهو يدافع عن مسلكه ، ويعرض فلسفته .. انه لم يكن مجرد الأب المتعنت ، الذى رأى فى مسلك ابنته وزلتها ماأثار نفسه ، واوجب نقمته .. ولكنه كان « الفيلسوف » الحكيم ، المتشبث بالمثل الخلقية العليا .. ولقد رأى فى زلة ابنته أكثر من مجرد الغدر بالثقة التى أولاها اياها .. رأى فيها هدما للقيم الخلقية التى كان يعتز بها !

ولكن « روبير » لم يشأ أن ينساق لتأثره ، بل آثر أن يبذل جهدا أخيرا ، فقال :

- سيدى الطبيب ، أنت رجل شديد الاخلاص ، ومع ذلك فاننى أعتقد أنك على خطأ .. ان هذا الخضوع للحياة - الذى تحتقره - يتكافأ فى يقينى مع أعظم انواع السرور المشروعة ، فاستمع لما اقول : لقد قضيت أسبوعا فى (تونيان)، فوجدت أشخاصا سعداء ، كلهم آمنوا بنظرية الخضوع للحياة .. اننى لااتحدث عن ولديك - كاميل و لويس -

فقط ، ولكن صديقنا « روكبيكيه » قد تزوج بفتاة دميمة الخلقة ، سيئة الخلق ، رديئة السمعة ، فحولها الزواج الى امرأة طيبة ، جديرة بالرضى ، وروكبيكيه سعيد بذلك .. وهم يقولون أن « مدام دلكومب » قد ظفرت بدل زوجها بأعلام النصر فى عالم الخطابة والكتابة ، ولكن زوجها «بول» لايزال راعيا لكنيسة مدينة صغيرة، وها هوذا قانع بأولاده.. كل هؤلاء سعداء، فى حين أنك — يا عزيزى الطبيب — تحاول الوقوف فى وجه الحوادث .. يجب ان تعرف بصراحة أنك لا تعرف السعادة ! .. اننى طبيب مثلك ، وقد شخصت مرضك تشخيصا فيه الكفاية .. انك مريض جدا ، بل انك تنتحر هنا ببطء !

فقاطعه جوفر قائلا : « ان المرض لا يهمنى كثيرا .. لقد عشت طويلا ، وسأرحل دون كبير أسف . ولكن ، دعنى أسألك ياصديقى — وأنت صاحب نظرية «الخضوع للحياة» — أى خضوع خضعته للحياة حتى اليوم ؟ .. يبدو عليك أنك رجل لا ينثنى كثيرا تحت تأثير الريح ! »

ولم يتألم الطبيب الشاب لما انطوت عليه لهجة الطبيب الشيخ من لوم ووخز ، وانما ارتسمت علىوجه روبير ابتسامة عريضة ، ثم أجابه : « انك على خطأ ، فلقد بحثت باستمرار — خلال عشرين عاما — عن امراة ابادلها الحب .. ان ما اريده حبا من نوع حب كاميل و لويس ، ولكنى لم أجد هذه المراة ! .. لم أجد الا امراة عادية عشقتها واتخذتها خليلة .. امراة شديدة الاخلاص ، فضلا عن اننى لم أعد املك ان اتخلص منها ، فأنا اكبر سنا من أن اقطع تلك العلاقة التى تربط بينى و بينها ، ولذا فقد اعتزمت أن أزيدها توثيقا وقوة .. ان امامك الآن رجلا سيسافر الى

مدينة (برشلونة) ، ليلتقى هناك بالآنسة « لوسى مرتيل » احدى طالبات قسم البيانو السابقات فى (الكونسرفتوار) ، وهى عين المرأة التى حدثتك عنها .. وعند عودة هذا الرجل الى هنا ، سيقدمها اليك بوصفها : زوجته ! »

وسأله جوفر : « وهل ستكونان سعيدين ؟ » . فأجاب روبير : « سأكون سعيداً لأن الحيـــاة مدينة لى بتعويض كبير . وانك لترى يا سيدى الطبيب أن كل سعادة أرضية لا يمكن ان تقوم الا على التوفيق بين الحلم والحقيقة ! »

وهز جوفر رأسه وأجاب حزينا :

ـ كأنك تقول يا صديقى أن كل سعادة دائمة فى هـــذا العالم ، لابد ان تبنى على شىء من الجبن الانسانى !

تمت

مطبوعات كتابي

راجع مكتبتك الخاصة لتتأكد من وجود كل هذه الشوامخ – التى قدمتها لك ((مطبوعات كتابى)) فى أعدادهاالسابقة – فهى ثروة أدبية لا تقدر بمال

قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
ذات الثوب الابيض	ويلكى كولينز
الخالدون	ديل كارنيجى
الخاطئة	سومرست موم
حياة امرأة (جزءان)	جى دى موباسان
الخطيئة الاولى فتاة من الاقاليم	البرتو مورافيا
اوديب	سوفوكليس واندريه جيد
مدام بوفارى (جزءان)	جوستاف فلوبير
عاشقات فى الخريف	ستيفان زيفايج
قلوب ضالة	طاغور
ديكاميرون (الف ليلة وليلة الايطالية)	جيوفانى بوكاشيو
الظمأ للحب	ميكا والتارى
جين اير (٣ أجزاء)	شارلوت برونتى
فاتنات الرجال	مارجورى كورجين
رجال ونساء	جوركى
الثأر للوطن	جون شتاينبك

فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	أدوين جون ديفيز
الابن الضال	هنرى بوردو
أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
بيلا دونا (٣ أجزاء)	روبرت هتشنز
بوشكين	ليديا لامبير
اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء)	جان جاك روسو
قصص من الصين	أروع نماذج الأدب الصينى
ليالى بلزاك (الف ليلة وليلة الفرنسية)	أونوريه دى بلزاك
الالياذة (٣ أجزاء)	هوميروس
قصص من روما	البرتو مورافيا
المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلى
سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
دم .. وخمر	ليو تولستوى
تحت ظلال « الليلا »	مبرورة سامى
أرواح هائمة فى الادغال	سومرست موم
القلعة (٣ اجزاء)	دكتور « كرونين »

فرانسواز ساجان

هل تحبين برامس

مرتفعات ويذرنج (٣ أجزاء) اميلى برونتى

مدموازيل جوفر (جزءان) مرسيل بريفو

الى جانب تحفة باسترناك الخالدة ((دكتور جيفاجو)) ، الذى صدرت فى جزءين من الحجم الكبير .

اذا كانت تنقصك هذه المجموعة أو عدد منهـا ، فلا تتردد فى المبادرة الى طلبها من ادارة « كتابى » ـ ١٤ شـارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة .. فهى خير ثروة تنعم بها فى حياتك ، وتورثها أبناءك بعد ذلك ..

كتابى

الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية

يقدم لك فى كل عدد من اعداده ، مجموعة ضخمة من ملخصات اروع الكتب العالمية .. ومنها :

أقوى من المال !
(من أقوى مسرحيات آنوى)

الشمس تشرق ثانية
(قصة ارنست همنجواى الجبارة)

سيمون بوليفار
(قصة حياة وكفاح محرر أمريكا اللاتينية)

فولتير العاشق
(صفحات مجهولة من حياة الفيلسوف الكبير)

الحب خالد !
(قصة الحياة الخاصة لابراهام لنكولن)

نساء ومآس
(اشهر قصص الحب والجريمة لروجيه ريجى)
الخ .. الخ .. الخ .

كل عدد أقوى من سابقه ـ ٢٥٠ صفحة ـ ١٢ قرشا

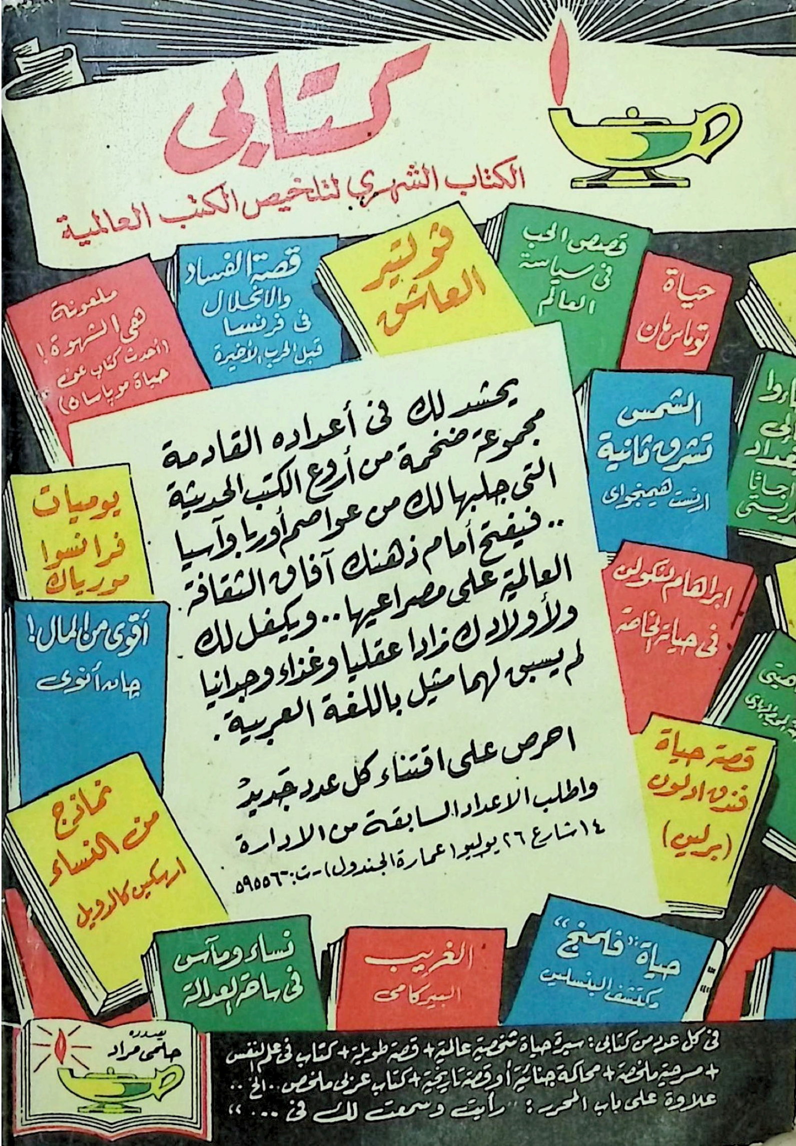
كتابى
الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية
قصص الحب فى سياسة العالم
فولتير العاشق
قصة الفساد والانحلال فى فرنسا قبل الحرب الأخيرة
ملعونة هى الشهرة! (أحدث كتاب عن حياة موباسان)
حياة توماس مان
الشمس تشرق ثانية ارنست هيمنجواى
يوميات فرانسوا مورياك
ابراهام لنكولن فى حياته الخاصة
أقوى من المال! جيمس أجوى
قصة حياة فندو ادلون (برلين)
نماذج من النساء ارسكين كالدويل
يحشد لك فى أعداده القادمة مجموعة ضخمة من أروع الكتب الحديثة التى جلبها لك من عواصم أوربا وآسيا .. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة العالمية على مصراعيها .. ويكفل لك ولأولادك زادا عقليا وغذاء وجدانيا لم يسبق لهما مثيل باللغة العربية.
احرص على اقتناء كل عدد جديد
واطلب الأعداد السابقة من الادارة
١٤ شارع ٢٦ يوليو (عمارة الجندول) - ت: ٥٩٥٥٦٠
نساء ومآس فى ساحة العدالة
الغريب البير كامى
حياة "فلمنج" مكتشف البنسلين
يصدره حلمى مراد
فى كل عدد من كتابى: سيرة حياة شخصية عالمية + قصة طويلة + كتاب فى علم النفس + مسرحية ملخصة + محاكمة جنائية أو قصة تاريخية + كتاب غزلى ملخص .. الخ ..
علاوة على باب المحرر: "رأيت وسمعت لك فى .."